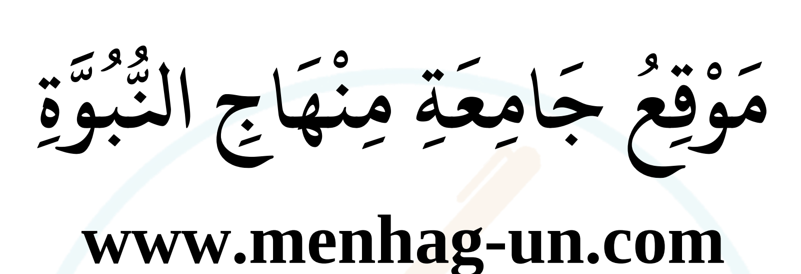


مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الأُولَى)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَلَمَّا كَانَ الْعِلْمُ عِبَادَةَ الْقَلْبِ، وَسِرَّ حَيَاتِهِ، وَمَوْطِنَ قُوَّتِهِ، كَانَ لِزَامًا عَلَىٰ طَالِبِهِ أَنْ يُحَصِّلَ آدَابَهُ، وَأَنْ يَسْعَىٰ جَاهِدًا مُشَمِّرًا فِي اكْتِسَابِهَا، وَإِلَّا سَارَ مُشَرِّقًا وَسَارَ الْعِلْمُ مُغَرِّبًا، وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا ... شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

عَلَىٰ أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْآدَابَ لَيْسَتْ آدَابًا كَأَيِّ آدَابٍ، تُحَصَّلُ أَوْ لَا تُحَصَّلُ وَالْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ سَوَاءٌ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حِينٍ، سَوَاءٌ كَانَ طَالِبًا لِلْعِلْمِ أَمْ لَمْ يَكُنْ.

وَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ غَايَتُهُ الْبَيَانُ وَالتَّبْلِيغُ، وَتَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ غَايَةُ الْبَيَانِ وَالتَّبْلِيغِ، فَالْغَايَةُ مِنَ الْعِلْمِ -إِذَنْ- هِيَ تَوْحِيدُ اللهِ ﷻ وَعِبَادَتُهُ.

وَأَحْرَىٰ بِمَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ وَتَصَدَّىٰ لَهُ -مُتَعَلِّمًا أَوْ مُعَلِّمًا- أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، بِالتَّسْلِيمِ الْكَامِلِ لِلشَّرْعِ الْأَغَرِّ وَالْخُضُوعِ الْمُطْلَقِ لِلدِّينِ الْأَعَزِّ.

وَعَلَيْهِ فَآدَابُ الطَّلَبِ لَا تَنْفَكُّ عَنْ أَصْحَابِ الْعِلْمِ أَبَدًا، لِأَنَّهَا مِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ وَأَرْشَدَتْ إِلَيْهِ، وَلِأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الْعَامَّةِ وَالْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ فِي الدِّينِ، لَا يَسَعُ أَحَدًا أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهَا، أَوْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا بِغَيْرِ عَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَهِيَ -أَيْ: آدَابُ الطَّلَبِ- فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ فِي حَقِّ طَالِبِ الْعِلْمِ آكَدُ وَعَلَيْهِ أَوْجَبُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

وَهَذِهِ جُمْلَةُ مَا يَلْزَمُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ آدَابٍ:

١- إِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ

قَالَ الْغَزَالِيُّ -هُوَ أَبُو حَامِدٍ- عَفَا اللهُ عَنْهُ: «اعْلَمْ أَنَّ النِّيَّةَ وَالْإِرَادَةَ وَالْقَصْدَ عِبَارَاتٌ مُتَوَارِدَةٌ عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَهُوَ حَالَةٌ وَصِفَةٌ لِلْقَلْبِ يَكْتَنِفُهَا أَمْرَانِ: عِلْمٌ، وَعَمَلٌ.

الْعِلْمُ يُقَدِّمُهُ لِأَنَّهُ أَصْلُهُ وَشَرْطُهُ، وَالْعَمَلُ يَتْبَعُهُ لِأَنَّهُ ثَمَرَتُهُ وَفَرْعُهُ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ -أَعْنِي كُلَّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ اخْتِيَارِيٍّ- فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ: عِلْمٍ، وَإِرَادَةٍ، وَقُدْرَةٍ. لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَعْلَمُهُ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَعْلَمَ، وَلَا يَعْمَلُ مَا لَمْ يُرِدْ فَلَا بُدَّ مِنْ إِرَادَةٍ.

وَمَعْنَىٰ الْإِرَادَةِ: انْبِعَاثُ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَا يَرَاهُ مُوَافِقًا لِلْغَرَضِ -إِمَّا فِي الْحَالِ أَوْ فِي الْمَآلِ- فَقَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ بِحَيْثُ يُوَافِقُهُ بَعْضُ الْأُمُورِ وَيُلَائِمُ غَرَضَهُ، وَيُخَالِفُهُ بَعْضُ الْأُمُورِ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ جَلْبِ الْمُلَائِمِ الْمُوَافِقِ إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَدَفْعِ الضَّارِّ الْمُنَافِي عَنْ نَفْسِهِ، فَافْتَقَرَ بِالضَّرُورَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ وَإِدْرَاكٍ لِلشَّيْءِ الْمُضِرِّ وَالنَّافِعِ، حَتَّىٰ يَجْلِبَ هَذَا وَيَهْرَبَ مِنْ هَذَا، فَإِنَّ مَنْ لَا يُبْصِرُ الْغِذَاءَ وَلَا يَعْرِفُهُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ، وَمَنْ لَا يُبْصِرُ النَّارَ لَا يُمْكِنُهُ الْهَرَبُ مِنْهَا، فَخَلَقَ اللهُ الْهِدَايَةَ وَالْمَعْرِفَةَ وَجَعَلَ لَهَا أَسْبَابًا، وَهِيَ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ.

فَالنِّيَّةُ: عِبَارَةٌ عَنِ الصِّفَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ، وَهِيَ الْإِرَادَةُ وَانْبِعَاثُ النَّفْسِ بِحُكْمِ الرَّغْبَةِ وَالْمَيْلِ إِلَىٰ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلْغَرَضِ، إِمَّا فِي الْحَالِ وَإِمَّا فِي الْمَآلِ.

فَالْمُحَرِّكُ الْأَوَّلُ هُوَ الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ وَهُوَ الْبَاعِثُ، وَالْغَرَضُ الْبَاعِثُ هُوَ الْمَقْصِدُ الْمَنْوِيُّ، وَالِانْبِعَاثُ هُوَ الْقَصْدُ وَالنِّيَّةُ، وَانْتِهَاضُ الْقُدْرَةِ لِخِدْمَةِ الْإِرَادَةِ بِتَحْرِيكِ الْأَعْضَاءِ هُوَ الْعَمَلُ»(١).

وَلَمَّا كَانَ مِنْ مُقَرَّرَاتِ الشَّرْعِ وَمِنْ مُسَلَّمَاتِ الدِّينِ أَنَّ اللهَ ﷻ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، فَقَدْ نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ النِّيَّةِ، وَوُجُوبِ تَخْلِيصِهَا مِمَّا قَدْ يَشُوبُهَا مِنْ شَوَائِبَ تُفْسِدُ الْقَصْدَ وَتُحْبِطُ الْعَمَلَ.

فَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ: عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيهِ»** هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

---

(١) «تَهْذِيبُ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ»، عَبْدُ السَّلَامِ هَارُونَ (٢/ ٢٥٣)، وَأَصْلُ التَّهْذِيبِ وَهُوَ «الْإِحْيَاءُ» مَشْحُونٌ بِالْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ الْوَاهِيَةِ، وَفِيهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ، وَدَعْوَةٌ إِلَىٰ التَّصَوُّفِ وَغَيْرِهِ، مِمَّا يُنَافِي مَنْهَجَ السَّلَفِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ، وَأَبُو حَامِدٍ -نَفْسُهُ- لَا يَخْفَىٰ حَالُهُ عَلَىٰ طُلَّابِ الْعِلْمِ.

وَلَفْظُ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيهِ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**» الْحَدِيثَ. أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَصِحَّتِهِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ رُبُعُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ، تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَىٰ تَصْحِيحِ النِّيَّةِ، وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا عَنِ الْأَئِمَّةِ مُطْلَقًا، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ فَابْتَدَءُوا بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ.

وَقَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُصُولِ وَغَيْرِهِمْ: لَفْظَةُ (إِنَّمَا) مَوْضُوعَةٌ لِلْحَصْرِ، تُثْبِتُ الْمَذْكُورَ، وَتَنْفِي مَا سِوَاهُ. فَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ: أَنَّ الْأَعْمَالَ تُحْسَبُ بِنِيَّةٍ، وَلَا تُحْسَبُ إِذَا كَانَتْ بِلَا نِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**» قَالُوا: فَائِدَةُ ذِكْرِهِ بَعْدَ «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**»، بَيَانُ تَعْيِينِ الْمَنْوِيِّ شَرْطٌ، فَلَوْ كَانَ عَلَىٰ إِنْسَانٍ صَلَاةٌ مَقْضِيَّةٌ، لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَنْوِيَ الصَّلَاةَ الْفَائِتَةَ، بَلْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَنْوِيَ كَوْنَهَا ظُهْرًا أَوْ غَيْرَهَا، وَلَوْلَا اللَّفْظُ الثَّانِي لَاقْتَضَىٰ الْأَوَّلُ صِحَّةَ النِّيَّةِ بِلَا تَعْيِينٍ أَوْ أَوْهَمَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ**»

مَعْنَاهُ: مَنْ قَصَدَ بِهِجْرَتِهِ وَجْهَ اللهِ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ قَصَدَ بِهَا دُنْيَا أَوِ امْرَأَةٍ فَهِيَ حَظُّهُ وَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْهِجْرَةِ، وَأَصْلُ الْهِجْرَةِ التَّرْكُ، وَالْمُرَادُ هُنَا تَرْكُ الْوَطَنِ. وَذِكْرُ الْمَرْأَةِ مَعَ الدُّنْيَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَنَّهُ جَاءَ أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ لِيَتَزَوَّجَ امْرَأَةً يُقَالُ: لَهَا أُمُّ قَيْسٍ، فَقِيلَ لَهُ: مُهَاجِرُ أُمِّ قَيْسٍ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ زِيَادَةِ التَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ تَنْبِيهًا عَلَىٰ مَزِيَّتِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ»[1].

«**وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الشَّرْعِ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعِبَادَاتِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، مِنْهَا:**

١- قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

أَيْ: لَا يَقْصِدُ بِهَا غَيْرَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ.

٢- وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

٣- قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا**

---

(١) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١٣/ ٥٣).

يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيهِ».

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ «صَحِيحِهِ»، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٤- قَوْلُهُ ﷺ أَيْضًا: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، وَالنَّصْرِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**».

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُهُ فِي زَوَائِدِ «الْمُسْنَدِ» (٥/ ١٣٤)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (مَوَارِد)، وَالْحَاكِمُ (٤/ ٣١١)، وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ». وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَأَقَرَّهُ الْمُنْذِرِيُّ (١/ ٣١)، قُلْتُ: وَإِسْنَادُ عَبْدِ اللهِ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الْبُخَارِيِّ.

٥- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٢/ ٥٩)، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ كَمَا قَالَ الْمُنْذِرِيُّ (١/ ٢٤).

٦- قَوْلُهُ ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي

«الزُّهْدِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي «صَحِيحِهِ» (٨/ ٢٢٣) نَحْوَهُ[١].

فَلَابُدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ للهِ ﷻ فِي كُلِّ عَمَلٍ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «كَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ فَكَمَا تَفَرَّدَ بِالْأُلُوهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ» اهـ.

قَالَ فِي «تَيْسِيرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»: «وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَوَابًا خَالِصًا، فَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وَالْخَالِصُ أَنْ يَخْلُصَ مِنَ الشِّرْكِ الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[٢].

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةَ فِي طَلَبِهِ، «وَحُسْنُ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِأَنْ يَقْصِدَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَإِحْيَاءَ الشَّرِيعَةِ وَتَنْوِيرَ قَلْبِهِ، وَتَحْلِيَةَ بَاطِنِهِ، وَالْقُرْبَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّعَرُّضَ لِمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهِ مِنْ رِضْوَانِهِ وَعَظِيمِ فَضْلِهِ.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي».

---

(١) «أَحْكَامُ الْجَنَائِزِ وَبِدَعُهَا» الْأَلْبَانِيُّ (ص٥٢).

(٢) «تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (ص٥٢٥).

وَلَا يَقْصِدُ بِهِ الْأَغْرَاضَ الدُّنْيَوِيَّةَ مِنْ تَحْصِيلِ الرِّيَاسَةِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ، وَمُبَاهَاةِ الْأَقْرَانِ وَتَعْظِيمِ النَّاسِ لَهُ، وَتَصْدِيرِهِ فِي الْمَجَالِسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَسْتَبْدِلُ بِهِ الْأَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

قَالَ أَبُو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ: «يَا قَوْمِ، أَرِيدُوا اللهَ تَعَالَىٰ بِعِلْمِكُمْ، فَإِنِّي لَمْ أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنْوِي فِيهِ أَنْ أَتَوَاضَعَ إِلَّا لَمْ أَقُمْ حَتَّىٰ أَعْلُوَهُمْ، وَلَمْ أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنْوِي فِيهِ أَنْ أَعْلُوَهُمْ إِلَّا لَمْ أَقُمْ حَتَّىٰ أُفْتَضَحَ.

وَالْعِلْمُ عِبَادَةٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَقُرْبَةٌ مِنَ الْقُرَبِ، فَإِنْ خَلُصَتْ فِيهِ النِّيَّةُ، قُبِلَ وَزَكَا وَنَمَتْ بَرَكَتُهُ، وَإِنْ قُصِدَ بِهِ غَيْرُ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ حَبِطَ وَضَاعَ وَخَسِرَتْ صَفْقَتُهُ، وَرُبَّمَا تَفُوتُهُ تِلْكَ الْمَقَاصِدُ وَلَا يَنَالُهَا، فَيَخِيبُ قَصْدُهُ وَيَضِيعُ سَعْيُهُ»[(١)].

وَيَجْمَعُ مَا سَبَقَ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ**

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٦٨).

وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّه، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَد قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ ﷺ فِي الْغَازِي وَالْعَالِمِ وَالْجَوَادِ وَعِقَابِهِمْ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِدْخَالِهِمُ النَّارَ: دَلِيلٌ عَلَىٰ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الرِّيَاءِ وَشِدَّةِ عُقُوبَتِهِ، وَعَلَىٰ الْحَثِّ عَلَىٰ وُجُوبِ الإِخْلَاصِ فِي الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وَفِيهِ: أَنَّ الْعُمُومِيَّاتِ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ أَرَادَ اللهَ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ مُخْلِصًا، وَكَذَلِكَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ وَعَلَىٰ الْمُنْفِقِينَ فِي وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مُخْلِصًا»[٢].

قُلْتُ: وَحَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ السَّابِقُ قَاضٍ بِأَنَّ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُصَحِّحَ نِيَّتَهُ فِي طَلَبِهِ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا للهِ سَعْيُهُ وَبَذْلُهُ، وَعَنَاؤُهُ وَطَلَبُهُ، يَبْتَغِي عِنْدَ اللهِ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٠٥).

(٢) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١٣/ ٥٠).

الرِّضْوَانَ، وَيَرْجُو لَدَيْهِ الثَّوَابَ، لَا لِيَرْتَفِعَ بِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَيَعْلُوَ بِهِ فَوْقَ أَعْنَاقِهِمْ، وَيَرْكَبَ بِهِ أَكْتَافَهُمْ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ**».

رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي «سُنَنِهِ» (٢٥٣)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٨)، وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧).

⦿ ⦿ ⦿



٢- الِاشْتِغَالُ بِتَطْهِيرِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مِنْ شَوَائِبِ الْمُخَالَفَاتِ

يَجِبُ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُطَهِّرَ ظَاهِرَهُ بِمُجَانَبَةِ الْبِدْعَةِ، وَبِالتَّحَلِّي بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْوُضُوءِ، وَنَظَافَةِ الْجِسْمِ وَالْمَظْهَرِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَعَلَىٰ قَدْرِ الطَّاقَةِ وَالْوُسْعِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «ذَكَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي عُمَرَ الْبَكْرِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَالْمَلِكِ الْمَيْمُونِيَّ يَقُولُ: مَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْظَفَ ثَوْبًا وَلَا أَشَدَّ تَعَاهُدًا لِنَفْسِهِ فِي شَارِبِهِ وَشَعْرِ رَأْسِهِ وَشَعْرِ بَدَنِهِ، وَلَا أَنْقَىٰ ثَوْبًا وَشِدَّةَ بَيَاضٍ مِنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ».

وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِسُنَّةٍ، وَيَسْكُنُ بِسُنَّةٍ، يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا كَتَبْتُ حَدِيثًا إِلَّا وَقَدْ عَمِلْتُ بِهِ، حَتَّىٰ مَرَّ بِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ وَأَعْطَىٰ أَبَا طَيْبَةَ دِينَارًا، فَأَعْطَيْتُ الْحَجَّامَ دِينَارًا حِينَ احْتَجَمْتُ».

وَلَا يُفْهَمَنَّ مِنَ الْحَضِّ عَلَىٰ طَهَارَةِ الثَّوْبِ وَنَظَافَتِهِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الْمُغَالَاةِ وَالتَّرَفُّعِ فِي الثِّيَابِ، وَإِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، كَيْفَ وَقَدْ رَوَىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَامَةَ الْحَارِثِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ**»[١].

---

(١) «سِلْسِلَةُ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ» رَقْمُ (٣٤١).

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْبَذَاذَةُ: رَثَاثَةُ الْهَيْئَةِ. يُقَالُ: بَذُّ الْهَيْئَةِ وَبَاذُّ الْهَيْئَةِ: أَيْ رَثُّ اللِّبْسَةِ. أَرَادَ التَّوَاضُعَ فِي اللِّبَاسِ وَتَرْكَ التَّبَجُّحِ بِهِ»(١).

وَرَوَىٰ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْبُوشَنْجِيِّ قَالَ: «وَأَمَّا الْبَذَاذَةُ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّهَا مِنَ الْإِيمَانِ فَهِيَ رَثَاثَةُ الثِّيَابِ فِي الْمَلْبَسِ وَالْمَفْرَشِ، وَذَلِكَ تَوَاضُعٌ عَنْ رَفِيعِ الثِّيَابِ وَثَمِينِ الْمَلَابِسِ وَالْمُفْتَرَشِ، وَهِيَ مَلَابِسُ أَهْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، يُقَالُ: فُلَانٌ بَذِيُّ الْهَيْئَةِ، رَثُّ الْمَلْبَسِ، وَاللهُ أَعْلَمُ»(٢).

وَقَالَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجِبُ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَجَنَّبَ اللَّعِبَ وَالْعَبَثَ وَالتَّبَذُّلَ فِي الْمَجَالِسِ بِالسُّخْفِ، وَالضَّحِكِ، وَالْقَهْقَهَةِ، وَكَثْرَةِ التَّنَادُرِ، وَإِدْمَانِ الْمُزَاحِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا يُسْتَجَازُ مِنَ الْمُزَاحِ يَسِيرُهُ وَنَادِرُهُ وَطَرِيفُهُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ وَطَرِيقَةِ الْعِلْمِ، فَأَمَّا مُتَّصِلُهُ وَفَاحِشُهُ وَسَخِيفُهُ وَمَا أَوْغَرَ مِنْهُ الصُّدُورَ، وَجَلَبَ الشَّرَّ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ، وَكَثْرَةُ الْمُزَاحِ وَالضَّحِكِ يَضَعُ مِنَ الْقَدْرِ، وَيُزِيلُ الْمُرُوءَةَ.

قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ حَقًّا عَلَىٰ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَىٰ قَبْلَهُ.

---

(١) «النِّهَايَةُ» (١/ ١١٠).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٥٤).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ: كُنَّا عِنْدَ هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ، فَضَحِكَ رَجُلٌ مِنَّا، فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ: تَضْحَكُ وَأَنْتَ تَطْلُبُ الْحَدِيثَ!!

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ قَالَ: ضَحِكَ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ، فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: يَا فَتَىٰ تَطْلُبُ الْعِلْمَ وَتَضْحَكُ قَالَ: فَقَالَ: أَلَيْسَ اللهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: فَابْكِ إِذَنْ»[1].

قُلْتُ: فَطَهَارَةُ الظَّاهِرِ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَحُسْنِ السَّمْتِ، وَنَظَافَةِ الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ، مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَأَكُّدًا فِي حَقِّ طَالِبِ الْعِلْمِ، لِأَنَّ الْعِلْمَ يَدُلُّهُ عَلَىٰ مَوَاطِنِ الْخَيْرِ وَمَسَارِبِ الْوَقَارِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟

قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «بَطَرُ الْحَقِّ: دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَكَبُّرًا، وَغَمْطُ النَّاسِ

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٥٦).

مَعْنَاهُ: احْتِقَارُهُمْ».

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ الطِّيبَ وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ؛ فَعَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ مِنْهَا».

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَالسُّكَّةُ -بِضَمِّ السِّينِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ- طِيبٌ أَسْوَدُ يُخْلَطُ وَيُعْرَكُ وَيُتْرَكُ وَتَظْهَرُ رَائِحَتُهُ كُلَّمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ الزَّمَنُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ وِعَاءً يُوضَعُ فِيهِ الطِّيبُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ»(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ الرِّيحَ الْخَبِيثَةَ وَيُنَفِّرُ مِنْهَا: فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ** -وَقَالَ مَرَّةً:- **مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنهُ بَنُو آدَمَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٦٤).

وَقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ الْمُسْلِمُ قَصَّ شَارِبِهِ أَوْ تَقْلِيمَ أَظْفَارِهِ، أَوْ حَلْقَ عَانَتِهِ، أَوْ نَتْفَ إِبِطِهِ، أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الْإِبِطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ، أَلَّا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨).

(١) «مُخْتَصَرُ الشَّمَائِلِ الْمُحَمَّدِيَّةِ» لِلْأَلْبَانِيِّ (ص١١٧).

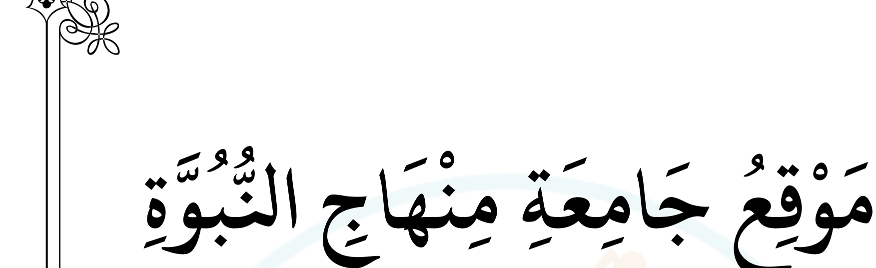
قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَعْنَاهُ: لَا يَتْرُكُ تَرْكًا يَتَجَاوَزُ أَرْبَعِينَ، لَا أَنَّهُمْ وُقِّتَ لَهُمُ التَّرْكُ أَرْبَعِينَ»(١).

وَحَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ اسْتِعْمَالِ السِّوَاكِ، وَرَغَّبَ فِيهِ الْأُمَّةَ فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِندَ كُلِّ صَلَاةٍ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٢).

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَعَهَّدَ طَهَارَةَ ظَاهِرِهِ؛ وَطَهَارَتُهُ بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَالْعَضِّ عَلَيْهَا، وَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِذَلِكَ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، فَهُمْ وَرَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَالْقَصِّ عَلَىٰ أَثَرِهِ ﷺ.

• • •

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (٣/ ١٤٩).



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الاشْتِغَالُ بِتَطْهِيرِ الْبَاطِنِ مِنْ شَوَائِبِ الْمُخَالَفَاتِ

وَأَمَّا طَهَارَةُ الْبَاطِنِ؛ فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ، «تَقْدِيمُ طَهَارَةِ النَّفْسِ عَنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَمَذْمُومِ الصِّفَاتِ، إِذِ الْعِلْمُ عِبَادَةُ الْقَلْبِ، وَصَلَاةُ السِّرِّ، وَقُرْبَةُ الْبَاطِنِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ».

وَكَمَا لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ وَظِيفَةُ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ إِلَّا بِتَطْهِيرِ الظَّاهِرِ عَنِ الْأَحْدَاثِ وَالْأَخْبَاثِ، فَكَذَلِكَ لَا تَصِحُّ عِبَادَةُ الْبَاطِنِ وَعِمَارَةُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ إِلَّا بَعْدَ طَهَارَتِهِ عَنْ خَبَائِثِ الْأَخْلَاقِ وَأَنْجَاسِ الْأَوْصَافِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، تَنْبِيهًا لِلْعُقُولِ عَلَىٰ أَنَّ الطَّهَارَةَ وَالنَّجَاسَةَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ، فَالْمُشْرِكُ قَدْ يَكُونُ نَظِيفَ الثَّوْبِ، مَغْسُولَ الْبَدَنِ، وَلَكِنَّهُ نَجِسُ الْجَوْهَرِ، أَيْ: بَاطِنُهُ مُلَطَّخٌ بِالْخَبَائِثِ.

وَالنَّجَاسَةُ عِبَارَةٌ عَمَّا يُجْتَنَبُ وَيُطْلَبُ الْبُعْدُ مِنْهُ، وَخَبَائِثُ صِفَاتِ الْبَاطِنِ أَهَمُّ بِالِاجْتِنَابِ، فَإِنَّهَا مَعَ خُبْثِهَا حَالًا، مُهْلِكَاتٌ فِي الْمَآلِ(١).

---

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (١/ ٤٩)، مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ حَالِ الْكِتَابِ وَكَاتِبِهِ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَ**: «وَعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِبْرِيلُ أَنْ يَأْتِيَهُ فَرَاثَ عَلَيهِ، حَتَّىٰ اشْتَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جِبْرِيلُ، فَشَكَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمَعْنَىٰ رَاثَ: أَبْطَأَ.

قَالَ أَبُو حَامِدٍ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «وَالْقَلْبُ كَالْبَيْتِ الَّذِي هُوَ مَنْزِلُ الْمَلَائِكَةِ وَمَهْبِطُ أَثَرِهِمْ، وَمَحَلُّ اسْتِقْرَارِهِمْ، وَالصِّفَاتُ الرَّدِيئَةُ مِثْلُ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَأَخَوَاتِهَا كِلَابٌ نَابِحَةٌ فَأَنَّىٰ تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ مَشْحُونٌ بِالْكِلَابِ؟!»[1].

وَقَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَىٰ طَالِبِ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ غِشٍّ وَدَنَسٍ وَغِلٍّ وَحَسَدٍ، وَسُوءِ عَقِيدَةٍ وَخُلُقٍ، لِيَصْلُحَ بِذَلِكَ لِقَبُولِ الْعِلْمِ وَحِفْظِهِ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ دَقَائِقِ مَعَانِيهِ وَحَقَائِقِ غَوَامِضِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: صَلَاةُ السِّرِّ وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ، وَقُرْبَةُ الْبَاطِنِ.

وَكَمَا لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ عِبَادَةُ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ إِلَّا بِطَهَارَةِ الظَّاهِرِ مِنَ الْحَدَثِ وَالْخَبَثِ، فَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ إِلَّا بِطَهَارَتِهِ عَنْ خَبَثِ الصِّفَاتِ وَحَدَثِ مَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ وَرَدِيئِهَا.

وَإِذَا طُيِّبَ الْقَلْبُ لِلْعِلْمِ ظَهَرَتْ بَرَكَتُهُ وَنَمَا كَالْأَرْضِ إِذَا طُيِّبَتْ لِلزَّرْعِ، نَمَا زَرْعُهَا وَزَكَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ**

---

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (١/ ٤٩).

الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ: أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)].

وَقَالَ سَهْلٌ: حَرَامٌ عَلَىٰ قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَجَّلَ[(٢)].

لَابُدَّ مِنْ تَطْيِيبِ الْقَلْبِ لِلْعِلْمِ، وَتَطْيِيبُهُ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، فَلِلذُّنُوبِ آثَارٌ بَالِغَةُ السُّوءِ فِي الْحِرْمَانِ مِنَ الْعِلْمِ وَفِي مَحْقِ بَرَكَتِهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ فَمِنْهَا حِرْمَانُ الْعِلْمِ فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَىٰ مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ وَتَوَقُّدِ ذَكَائِهِ وَكَمَالِ فَهْمِهِ فَقَالَ إِنِّي أَرَىٰ اللهَ قَدْ أَلْقَىٰ عَلَىٰ قَلْبِكَ نُورًا فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ».

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَىٰ تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَأَخبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُهْدَىٰ لِعَاصِي[(٣)]

---

(١) بَعْضُ حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٦٧).

(٣) «الْجَوَابُ الْكَافِي» (ص٥٤).

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَنْ أَبِي الْأَدْيَانِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أُسْتَاذِي أَبِي بَكْرٍ الدَّقَّاقِ، فَمَرَّ حَدَثٌ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَرَآنِي أُسْتَاذِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

فَبَقِيتُ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَنَا أُرَاعِي فَمَا أَجِدُ ذَلِكَ الْغِبَّ، فَنِمْتُ لَيْلَةً وَأَنَا أُفَكِّرُ فِيهِ، فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ أُنْسِيتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ»(١).

قُلْتُ: غِبُّ الْأَمْرِ وَمَغَبَّتُهُ: عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ.

قَالَ أَبُو حَامِدٍ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «فَإِنْ قُلْتَ: كَمْ مِنْ طَالِبٍ رَدِيءِ الْأَخْلَاقِ حَصَّلَ الْعُلُومَ! فَهَيْهَاتَ مَا أَبْعَدَهُ عَنِ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ النَّافِعِ فِي الْآخِرَةِ الْجَالِبِ لِلسَّعَادَةِ! فَإِنَّ مِنْ أَوَائِلِ ذَلِكَ الْعِلْمِ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ أَنَّ الْمَعَاصِي سُمُومٌ قَاتِلَةٌ مُهْلِكَةٌ؟ وَهَلْ رَأَيْتَ مَنْ يَتَنَاوَلُ سُمًّا مَعَ عِلْمِهِ بِكَوْنِهِ سُمًّا قَاتِلًا؟

إِنَّمَا الَّذِي تَسْمَعُهُ مِنَ الْمُتَرَسِّمِينَ حَدِيثٌ يُلَفِّقُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَرَّةً، وَيُرَدِّدُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ أُخْرَىٰ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ فِي شَيْءٍ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، إِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يُقْذَفُ فِي الْقَلْبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا الْعِلْمُ الْخَشْيَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ أَخَصِّ ثَمَرَاتِ الْعِلْمِ وَلِذَلِكَ قَالَ

---

(١) «تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ» (ص٣١٠).

بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ تَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ فَأَبَىٰ الْعِلْمُ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ: «تَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ فَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَكُونَ للهِ» أَنَّ الْعِلْمَ أَبَىٰ وَامْتَنَعَ عَلَيْنَا فَلَمْ تَنْكَشِفْ لَنَا حَقِيقَتُهُ وَإِنَّمَا حَصَلَ لَنَا حَدِيثُهُ وَأَلْفَاظُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنِّي أَرَىٰ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ الْمُحَقِّقِينَ بَرَزُوا فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ وَعُدُّوا مِنْ جُمْلَةِ الْفُحُولِ، وَأَخْلَاقُهُمْ ذَمِيمَةٌ لَمْ يَتَطَهَّرُوا مِنْهَا.

فَيُقَالُ: إِذَا عَرَفْتَ مَرَاتِبَ الْعُلُومِ، وَعَرَفْتَ عِلْمَ الْآخِرَةِ، اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّ مَا اشْتَغَلُوا بِهِ قَلِيلُ الْغَنَاءِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ عِلْمًا، وَإِنَّما غَنَاؤُهُ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ للهِ تَعَالَىٰ إِذَا قُصِدَ بِهِ التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ»(١).

قُلْتُ: وَحَرْفُ الْمَسْأَلَةِ يَدُورُ عَلَىٰ طَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَخُضُوعِ الْجَوَارِحِ لِأَحْكَامِ الشَّرْعِ، فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَعَهَّدَ ظَاهِرَهُ بِالسُّنَّةِ، وَبَاطِنَهُ بِالرِّعَايَةِ، حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ أَنْوَارَهُ، وَمِنَ الْحِكْمَةِ كُنُوزَهَا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (١/ ٤٩)، مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ حَالِ الْكِتَابِ وَكَاتِبِهِ.

٣- تَفْرِيغُ الْقَلْبِ لِلْعِلْمِ، وَقَطْعُ الْعَلَائِقِ، وَهَجْرُ الْعَوَائِدِ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْوُصُولُ إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ هَجْرِ الْعَوَائِدِ وَقَطْعِ الْعَلَائِقِ.

فَالْعَوَائِدُ: السُّكُونُ إِلَىٰ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ، وَمَا أَلِفَهُ النَّاسُ وَاعْتَادُوهُ مِنَ الرُّسُومِ وَالْأَوْضَاعِ الَّتِي جَعَلُوهَا بِمَنْزِلَةِ الشَّرْعِ الْمُتَّبَعِ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرْعِ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ خَرَجَ عَنْهَا وَخَالَفَهَا مَا لَا يُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ صَرِيحَ الشَّرْعِ، وَرُبَّمَا كَفَّرُوهُ أَوْ بَدَّعُوهُ وَضَلَّلُوهُ[1]، أَوْ هَجَرُوهُ وَعَاقَبُوهُ لِمُخَالَفَةِ تِلْكَ الرُّسُومِ؛ وَأَمَاتُوا لَهَا السُّنَنَ، وَنَصَبُوهَا أَنْدَادًا لِلرَّسُولِ يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، فَالْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا وَافَقَهَا، وَالْمُنْكَرُ مَا خَالَفَهَا.

وَهَذِهِ الْأَوْضَاعُ وَالرُّسُومُ قَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَىٰ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ وَالْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ، وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُطَّوِّعِينَ[2] وَالْعَامَّةِ. فَرُبِّيَ فِيهَا الصَّغِيرُ وَنَشَأَ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ وَاتُّخِذَتْ سُنَنًا بَلْ هِيَ أَعْظَمُ عِنْدَ أَصْحَابِهَا مِنَ السُّنَنِ؛ الْوَاقِفُ مَعَهَا مَحْبُوسٌ وَالْمُتَقَيِّدُ بِهَا مُنْقَطِعٌ، عَمَّ بِهَا الْمُصَابُ، وَهُجِرَ لِأَجْلِهَا السُّنَّةُ

---

(١) **بَدَّعُوهُ**: نَسَبُوهُ إِلَىٰ الْبِدْعَةِ. **وَضَلَّلُوهُ**: نَسَبُوهُ إِلَىٰ الضَّلَالِ.

(٢) هُمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ.

وَالْكِتَابُ، مَنِ اسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ مَخْذُولٌ، وَمَنِ اقْتَدَىٰ بِهَا دُونَ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَهَذِهِ أَعْظَمُ الْحُجُبِ وَالْمَوَانِعِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ النُّفُوذِ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَمَّا الْعَوَائِقُ: هِيَ أَنْوَاعُ الْمُخَالَفَاتِ ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا، فَإِنَّهَا تَعُوقُ الْقَلْبَ عَنْ سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَتَقْطَعُ عَلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: شِرْكٌ، وَبِدْعَةٌ، وَمَعْصِيَةٌ، فَيَزُولُ عَائِقُ الشِّرْكِ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ، وَعَائِقُ الْبِدْعَةِ بِتَحْقِيقِ السُّنَّةِ، وَعَائِقُ الْمَعْصِيَةِ بِتَصْحِيحِ التَّوْبَةِ.

وَهَذِهِ الْعَوَائِقُ لَا تَبِينُ لِلْعَبْدِ حَتَّىٰ يَأْخُذَ فِي أُهْبَةِ السَّفَرِ، وَيَتَحَقَّقُ بِالسَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، فَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ لَهُ هَذِهِ الْعَوَائِقُ، وَيُحِسُّ بِتَعْوِيقِهَا لَهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ سَيْرِهِ وَتَجَرُّدِهِ لِلسَّفَرِ، وَإِلَّا فَمَا دَامَ قَاعِدًا لَا يَظْهَرُ لَهُ كَوَامِنُهَا وَقَوَاطِعُهَا.

وَأَمَّا الْعَلَائِقُ: فَهِيَ كُلُّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْقَلْبُ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ مَلَاذِّ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَرِيَاسَاتِهَا، وَصُحْبَةِ النَّاسِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِمْ.

وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَىٰ قَطْعِ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ وَرَفْضِه إِلَّا بِقُوَّةِ التَّعَلُّقِ بِالْمَطْلَبِ الْأَعْلَىٰ، وَإِلَّا فَقَطْعُهَا عَلَيْهِ بِدُونِ تَعَلُّقِهِ بِمَطْلُوبِهِ مُمْتَنِعٌ. فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَتْرُكُ مَأْلُوفَهَا وَمَحْبُوبَهَا إِلَّا لِمَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهَا مِنْهُ وَآثَرُ عِنْدَهَا مِنْهُ. وَكُلَّمَا قَوِيَ تَعَلُّقُهُ بِمَطْلُوبِهِ ضَعُفَ تَعَلُّقُهُ بِغَيْرِهِ، وَكَذَا بِالْعَكْسِ. وَالتَّعَلُّقُ بِالْمَطْلُوبِ هُوَ شِدَّةُ

الرَّغْبَةِ فِيهِ. وَذَلِكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ وَشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ»(١).

قُلْتُ: وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَالْوُصُولُ إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ هَجْرِ الْعَوَائِدِ، وَقَطْعِ الْعَلَائِقِ، وَتَذْلِيلِ الْعَوَائِقِ.

وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ التَّعَلُّقِ أَوْ شِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِي الْمَطْلَبِ الْأَعْلَىٰ فَكُلَّمَا اشْتَدَّتِ الرَّغْبَةُ هَانَتِ التَّضْحِيَةُ، وَأَصْبَحَ الْمَآلُ كَالْحَالِ، وُضُوحًا وَتَحَقُّقًا، وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ يَسِيرَةٌ، وَلَذَّاتٌ مُنْقَضِيَةٌ، وَأَوْهَامٌ كَالسَّرَابِ، وَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا الْمَوْتُ هَانَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَإِنَّهَا أَيَّامٌ قَلَائِلُ».

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ عَظِيمَ الرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ وَمَا عِنْدَ اللهِ، شَدِيدَ التَّعَلُّقِ بِالْمَطْلَبِ الْأَعْلَىٰ وَالْمَقْصِدِ الْأَسْنَىٰ، فَإِنَّ فِي الْعِلْمِ شُغُلًا عَنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ وَزُخْرُفِهَا، وَإِنَّهَا أَيَّامٌ قَلَائِلُ.

قَالَ أَشْعَثُ أَبُو الرَّبِيعِ: «قَالَ لِي شُعْبَةُ: لَزِمْتَ سُوقَكَ فَأَفْلَحْتَ وَأَنْجَحْتَ، وَلَزِمْتُ أَنَا الْحَدِيثَ فَأَفْلَسْتُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ: مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ، لَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّىٰ بِعْتُ طَسْتًا لِأُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ.

---

(١) انْظُرْ: «الْفَوَائِدَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٢٠٤).

وَعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: قَالَتِ ابْنَةُ أُخْتِي لِأَهْلِنَا: خَالِي خَيْرُ رَجُلٍ لِأَهْلِهِ، لَا يَتَّخِذُ ضَرَّةً وَلَا يَشْتَرِي جَارِيَةً، قَالَ: تَقُولُ الْمَرْأَةُ: وَاللهِ لَهَذِهِ الْكُتُبُ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ثَلَاثِ ضَرَائِرَ»(١).

قَالَ الطَّحَّانُ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «قَوْلُ شُعْبَةَ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ شُعْبَةُ بَيَانَ حَقِيقَةِ مَا حَصَلَ مَعَهُ أَوَّلًا، وَالنُّصْحَ لِتَلَامِيذِهِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، الَّذِينَ يَسْتَغْرِقُ طَلَبُ الْحَدِيثِ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِمْ، فَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْكَسْبِ الَّذِي يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ وَحَاجَةَ مَنْ يَعُولُونَ، فَيُصْبِحُونَ عَالَةً عَلَىٰ النَّاسِ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَمَرَتْ بِهِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ.

وَلَا يُفْهَمَنَّ مِنْ كَلَامِ شُعْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ يَتَحَسَّرُ عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا، كَلَّا، فَقَدْ كَانَ زَاهِدًا كَرِيمًا، حَتَّىٰ إِنَّ الْمَهْدِيَّ أَهْدَاهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَقَسَمَهَا، وَمَنْ أَحَبَّ الْمَزِيدَ مِنْ مَعْرِفَةِ كَرَمِهِ وَزُهْدِهِ فَلْيُرَاجِعِ «الْحِلْيَةَ» لِأَبِي نُعَيْمٍ (٧/ ١٤٤- ١٤٧) كَمَا لَا يُفْهَمَنَّ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ صَرْفَ النَّاسِ عَنْ طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا الْحَدِيثَ وَيَكْسِبُوا مَعَاشَهُمْ»(٢).

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ: لَا تَدْخُلُ هَذِهِ الْمَحَابِرُ بَيْتَ رَجُلٍ إِلَّا أَشْقَىٰ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ».

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ٩٩).

(٢) تَعْلِيقُ الطَّحَّانِ عَلَىٰ «الْجَامِعِ» لِلْخَطِيبِ (١/ ٩٩).

قَالَ الطَّحَّانُ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «الْمُرَادُ بِالْمَحَابِرِ هُنَا: الْمَحَابِرُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا أَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَيَصْطَحِبُونَهَا مَعَهُمْ أَيْنَمَا ذَهَبُوا لِكِتَابَةِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يَتَلَقَّوْنَهَا. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ سُفْيَانَ: إِنَّ غَالِبَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ تَشْغَلُهُمْ كِتَابَةُ الْحَدِيثِ وَالْعِنَايَةُ بِهِ عَنْ كَسْبِ مَعَاشِهِمْ وَقُوتِ عِيَالِهِمْ، فَبِذَلِكَ يَبْقَىٰ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ فِي حَاجَةٍ وَعَوَزٍ، فَيَشْقَوْنَ بِسَبَبِ تِلْكَ الْمَحَابِرِ الَّتِي شَغَلَتْ كَاسِبَهُمْ وَمُعِيلَهُمْ».

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَادِرَ شَبَابَهُ وَأَوْقَاتَ عُمُرِهِ إِلَىٰ التَّحْصِيلِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِخِدَاعِ التَّسْوِيفِ وَالتَّأْمِيلِ، فَإِنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمْضِي مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَمِنْ عُمُرِهِ لَا بَدَلَ لَهَا، وَلَا عِوَضَ عَنْهَا.

وَيَقْطَعُ مَا يَقْدِرُ مِنَ الْعَلَائِقِ الشَّاغِلَةِ وَالْعَوَائِقِ الْمَانِعَةِ عَنْ تَمَامِ الطَّلَبِ وَبَذْلِ الِاجْتِهَادِ وَقُوَّةِ الْجِدِّ فِي التَّحْصِيلِ، فَإِنَّهَا كَقَوَاطِعِ الطَّرِيقِ.

وَلِذَلِكَ اسْتَحَبَّ السَّلَفُ التَّغَرُّبَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْبُعْدَ عَنِ الْوَطَنِ، لِأَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا تَوَزَّعَتْ قَصُرَتْ عَنْ دَرَكِ الْحَقَائِقِ وَغُمُوضِ الدَّقَائِقِ، وَمَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.

وَنَقَلَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْجَامِعِ» عَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ: لَا يَنَالُ الْعِلْمَ إِلَّا مَنْ عَطَّلَ دُكَّانَهُ، وَخَرِبَ بُسْتَانَهُ، وَهَجَرَ إِخْوَانَهُ، وَمَاتَ أَقْرَبُ أَهْلِهِ فَلَمْ يَشْهَدْ جَنَازَتَهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مُبَالَغَةٌ، فَالْمَقْصُودُ بِهِ أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ جَمْعِ

الْقَلْبِ وَاجْتِمَاعِ الْفِكْرِ»[١].

قُلْتُ: وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ قَطْعِ الْعَلَائِقِ أَنْ يُضَيِّعَ الْمَرْءُ مَنْ يَعُولُ، أَوْ يَكُفَّ عَنِ السَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ، فَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا تُشَاوِرْ مَنْ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ دَقِيقٌ، فَإِنَّه مُولَهُ[٢] الْعَقْلِ.

وَإِنَّمَا الْقَصْدُ أَنْ يَقْطَعَ مِنَ الْعَلَائِقِ الشَّاغِلَةِ مَا هُوَ فِي غِنًىٰ عَنْهُ، مَعَ الِاقْتِصَادِ فِي السَّعْيِ، وَمَعَ تَفْرِيغِ الْقَلْبِ وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي: الْعِلْمُ شَيْءٌ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ حَتَّىٰ تُعْطِيَهُ كُلَّكَ، وَأَنْتَ إِذْ تُعْطِيهِ كُلَّكَ مِنْ إِعْطَائِهِ الْبَعْضَ عَلَىٰ غَرَرٍ[٣].

قُلْتُ: عَلَىٰ غَرَرٍ أَيْ: عَلَىٰ خَطَرٍ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٧٠).

(٢) **الْوَلَهُ**: الْحُزنُ. **وَقِيلَ**: هُوَ ذَهَابُ الْعَقْلِ وَالتَّحَيُّرُ مِن شِدَّةِ الوَجْدِ أَوِ الْحُزنِ أَوِ الْخَوفِ، وَالْوَلَهُ: ذَهَابُ الْعَقْلِ لِفُقْدَانِ الْحَبِيبِ.

(٣) **عَلَىٰ غَرَرٍ**: عَلَىٰ خَطَرٍ: وَغَرَّرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ تَغْرِيرًا وتَغِرَّةً: عَرَّضَهَا لِلْهَلَكَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ، وَالِاسْمُ: الْغَرَرُ، وَالْغَرَرُ: الْخَطَرُ، وَبَيْعُ الغَرَرِ؛ هُوَ مِثْلُ بَيْعِ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ. «لِسَانُ الْعَرَبِ» (غرر) (ص٣٢٣٣).

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ، وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَىٰ عِيَالٍ صِغَارٍ يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ وَيُغْنِيهِمْ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَىٰ مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِىٰ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ. قَالَ لَا. قَالَ فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْله: (قَهْرَمَانٌ) بِفَتْحِ الْقَاف، وَإِسْكَان الْهَاء، وَفَتْح الرَّاء، وَهُوَ الْخَازِن الْقَائِم بِحَوَائِج الْإِنْسَان، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ الْوَكِيل، وَهُوَ بِلِسَانِ الْفُرْسِ»[١].

«وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا أَتَاهُ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ سَأَلَهُ: هَلْ لَكَ وَجْهُ مَعِيشَةٍ؟ فَإِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ فِي كِفَايَةِ أَمْرِهِ بِطَلَبِ الْعِلْمِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِفَايَةِ أَمْرِهِ بِطَلَبِ الْمَعَاشِ»[٢].

---

(١) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٧/ ٨٢).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ٩٨).

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ نُصُوصُ السَّلَفِ فِي إِيثَارِ الْفَقْرِ مَعَ طَلَبِ الْعِلْمِ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ مَعَ بُلُوغِ حَدِّ الْكَفَافِ، وَالْقِيَامِ بِشَأْنِ مَنْ يَعُولُ، وَأَنَّ الْمَذْمُومَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْإِغْرَاقُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ مَتَاعِهَا، وَإِنْفَاقُ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ حُطَامِهَا.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ ﭫ يُحِبُّونَ الْعِلْمَ حُبًّا رُبَّمَا أَضَرَّ بِدُنْيَاهُمْ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ ﭬ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ قَالَ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: «**إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلاَّ وَعَىٰ مَا أَقُولُ**». فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَىٰ صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ»(١).

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْبُيُوعِ ب ١، وَأَيْضًا فِي كِتَابِ الْحَرْثِ وَالْمُزَارَعَةِ ب ٢١، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ فَضْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** «كُنْتُ أَلْزَمُ النَّبِيَّ ﷺ لِشِبَعِ بَطْنِي حِينَ لا آكُلُ الْخَمِيرَ وَلَا أَلْبَسُ الْحَبِيرَ، وَلَا يَخْدُمُنِي فُلَانٌ وَلَا فُلَانَةٌ، وَأُلْصِقُ بَطْنِي بِالْحَصْبَاءِ، وَأَسْتَقْرِئُ الرَّجُلَ الْآيَةَ -وَهِيَ مَعِي- كَيْ يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَنِي» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

وَبوَّبَ الْبُخَارِيُّ: فِي «كِتَابِ الْعِلْمِ» مِنْ «صَحِيحِهِ» بَابًا سَمَّاهُ: بَابُ «**حِفْظِ الْعِلْمِ**» وَأَخْرَجَ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلَهُ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُو هُرَيرَةَ، ولَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ بِشبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، ويَحْفَظُ مَا لَا يَحفَظُونَ».

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُ الْبُخَارِيِّ: بَابُ حِفْظِ الْعِلْمِ»، لَمْ يَذْكُرْ فِي الْبَابِ شَيْئًا عَنْ غَيْرِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَذَلِكَ لِأَنَّه كَانَ أَحْفَظَ الصَّحَابَةِ لِلْحَدِيثِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: أَبُو هُرَيْرَةَ أَحْفَظُ مَنْ رَوَىٰ الْحَدِيثَ فِي عَصْرِهِ، وَقَدْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥١١٦)، **وَالْحَبِيرُ**: هُوَ الثَّوْبُ الْمُحَبَّرُ: وَهُوَ الْمُزَيَّنُ الْمُلَوَّنُ، مَأْخُوذٌ مِنَ التَّحْبِيرِ وَهُوَ التَّحْسِينُ، **وَقِيلَ**: **الْحَبِيرُ**: ثَوْبُ وَشْيٍ مُخَطَّطٌ، **وَقِيلَ**: هُوَ الْجَدِيدُ.

يَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ فِي جَنَازَتِهِ وَيَقُولُ: كَانَ يَحْفَظُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ: «أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ» أَيْ: مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: «الصَّفْقُ» -بِإِسْكَانِ الْفَاءِ-: هُوَ ضَرْبُ الْيَدِ عَلَىٰ الْيَدِ، وَجَرَتْ بِهِ عَادَتُهُمْ عِنْدَ عَقْدِ الْبَيْعِ»(١).

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَىٰ مِلْءِ بَطْنِي» أَيْ: مُقْتَنِعًا بِالْقُوتِ، أَيْ: فَلَمْ تَكُنْ لَهُ غَيْبَةٌ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: «نَمِرَةٌ» بِفَتْحِ النُّونِ وكَسْرِ الْمِيمِ، أَيْ: كِسَاءٌ مُلَوَّنًا. وَقَالَ ثَعْلَبٌ: هِيَ ثَوْبٌ مُخَطَّطٌ، وَقَالَ الْقَزَّازُ: دُرَّاعَةٌ تُلْبَسُ، فِيهَا سَوادٌ وَبَيَاضٌ»(٢).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ: «لَا أَلْبَسُ الْحَبِيرَ» هُوَ الثَّوْبُ الْمُحَبَّرُ، وَهُوَ الْمُزَيَّنُ الْمُلَوَّنُ مَأْخُوذٌ مِنَ التَّحْبِيرِ وَهُوَ التَّحْسِينُ، وَقِيلَ الْحَبِيرُ ثَوْبُ وَشْيٍ مُخَطَّطٌ، وَقِيلَ هُوَ الْجَدِيدُ»(٣).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ: «عَلَىٰ مِلْءِ بَطْنِي» أَيْ: أُلَازِمُهُ وَأَقْنَعُ بِقُوَّتِي وَلَا أَجْمَعُ مَالًا لِذَخِيرَةٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَلَا أَزِيدُ عَلَىٰ قُوَّتِي. وَالْمُرَادُ مِنْ حَيْثُ حَصَلَ

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٥٨).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (٤/ ٣٣٩).

(٣) «فَتْحُ الْبَارِي» (٩/ ٤٦٩).

الْقُوتُ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُبَاحَةِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْخِدْمَةِ بِالْأَجْرِ»(١).

وَأَخْرَجَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: بِسَنَدِهِ إِلَىٰ سَعِيدِ بْنِ هِنْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «**أَلَا تَسْأَلُنِي مِنْ هَذِهِ الْغَنَائِمِ الَّتِي سَأَلَنِي أَصْحَابُكَ**»؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ(٢).

وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْفَظُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثِهِ، مَعَ كَوْنِهِ قَصِيرَ مُدَّةِ صُحْبَةٍ لَهُ، فَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ أَسْلَمَ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ بَيْنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَخَيْبَرَ، وَكَانَ عُمُرُهُ حِينَئِذٍ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَلَازَمَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُلَازَمَةً تَامَّةً، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَمَعَ قِصَرِ مُدَّةِ الصُّحْبَةِ هَذِهِ فَهُوَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْفَظُ الْأَصْحَابِ لِلْحَدِيثِ وَأَكْثَرُهُمْ رِوَايَةً لَهُ، وَذَلِكَ لِإِخْلَاصِهِ لِلْعِلْمِ، وَحَذْفِ عَلَائِقِ الدُّنْيَا، وَتَفْرِيغِ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْمَطَامِعِ وَالْهُمُومِ.

فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ قَطْعُ الْعَلَائِقِ الشَّاغِلَةِ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ مَتَىٰ تَوَزَّعَتْ قَصُرَتْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يُؤْثِرُونَ الْعِلْمَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَرُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ.

---

(١) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١٦/ ٥٣).

(٢) «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» (٨/ ١١١).

وَأُهْدِيَتْ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الْأَنْبَارِيِّ جَارِيَةٌ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ تَفَكَّرَ فِي اسْتِخْرَاجِ مَسْأَلَةٍ فَعَزَبَتْ[١] عَنْهُ، فَقَالَ: أَخْرِجُوهَا إِلَىٰ النَّخَّاسِ[٢] فَقَالَتْ: هَلْ لِي مِنْ ذَنْبٍ؟! قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّ قَلْبِي اشْتَغَلَ بِكِ، وَمَا قَدْرُ مِثْلِكِ أَنْ يَمْنَعَنِي عِلْمِي»[٣].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَطْلُبُ أَحَدٌ هَذَا الْعِلْمَ بِالْمُلْكِ وَعِزِّ النَّفْسِ فَيُفْلِحَ، وَلَكِنْ مَنْ طَلَبَهُ بِذُلِّ النَّفْسِ وَضِيقِ الْعَيْشِ وَخِدْمَةِ الْعُلَمَاءِ أَفْلَحَ.

وَرَوَىٰ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ مَا يُرِيدُ حَتَّىٰ يَضُرَّ بِهِ الْفَقْرُ وَيُؤْثِرَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ»[٤].

●●●

---

(١) **عَزَبَتْ**: أَيْ بَعُدَتْ.

(٢) هُوَ بَائِعُ الدَّوَابِّ وَالرَّقِيقِ.

(٣) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٣١).

(٤) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (٢/ ٩٣).

٤- أَكْلُ الْقَدْرِ الْيَسِيرِ مِنَ الْحَلَالِ، وَالْأَخْذُ بِالْوَرَعِ، وَإِدْمَانُ الذِّكْرِ

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ الِاشْتِغَالِ وَالْفَهْمِ وَعَدَمِ الْمَلَالِ، أَكْلُ الْقَدْرِ الْيَسِيرِ مِنَ الْحَلَالِ».

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا شَبِعْتُ مُنْذُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً».

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ جَالِبَةٌ لِكَثْرَةِ الشُّرْبِ، وَكَثْرَتُهُ جَالِبَةٌ لِلنَّوْمِ وَالْبَلَادَةِ وَقُصُورِ الذِّهْنِ وَفُتُورِ الْحَوَاسِّ وَكَسَلِ الْجِسْمِ، هَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِخَطَرِ الْأَسْقَامِ الْبَدَنِيَّةِ، كَمَا قِيلَ:

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

وَلَمْ يُرَ أَحَدٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ يَصِفُ أَوْ يُوصَفُ بِكَثْرَةِ الْأَكْلِ، وَلَا حُمِدَ بِهِ، وَإِنَّمَا يُحْمَدُ كَثْرَةُ الْأَكْلِ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي لَا تَعْقِلُ، بَلْ هِيَ مُرْصَدَةٌ لِلْعَمَلِ، وَالذِّهْنُ الصَّحِيحُ أَشْرَفُ مِنْ تَبْدِيدِهِ وَتَعْطِيلِهِ بِالْقَدْرِ الْحَقِيرِ مِنْ طَعَامٍ يَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَىٰ مَا قَدْ عُلِمَ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ آفَاتِ كَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا الْحَاجَةُ إِلَىٰ كَثْرَةِ دُخُولِ الْخَلَاءِ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ اللَّبِيبِ أَنْ يَصُونَ نَفْسَهُ عَنْهُ.

وَمَنْ رَامَ الْفَلَاحَ فِي الْعِلْمِ وَتَحْصِيلَ الْبُغْيَةِ مِنْهُ مَعَ كَثْرَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنَّوْمِ، فَقَدْ رَامَ مُسْتَحِيلًا فِي الْعَادَةِ»(١).

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شَهْوَةُ الْبَطْنِ مِنْ أَعْظَمِ الْمُهْلِكَاتِ، وَبِهَا أُخْرِجَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمِنْ شَهْوَةِ الْبَطْنِ تَحْدُثُ شَهْوَةُ الْفَرْجِ وَالرَّغْبَةُ فِي الْمَالِ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ آفَاتٌ كَثِيرَةٌ كُلُّهَا مِنْ بَطَرِ الشِّبَعِ».

وَقَالَ عُقْبَةُ الرَّاسِبِيُّ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ الْحَسَنِ وَهُوَ يَتَغَدَّىٰ، فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَكَلْتُ حَتَّىٰ لَا أَسْتَطِيعَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ: أَوَيَأْكُلُ الْمُسْلِمُ حَتَّىٰ لَا يَسْتَطِيعَ أَنْ يَأْكُلَ؟!

وَمَقَامُ الْعَدْلِ فِي الْأَكْلِ: رَفْعُ الْيَدَيْنِ مَعَ بَقَاءِ شَيْءٍ مِنَ الشَّهْوَةِ، فَالْأَكْلُ فِي مَقَامِ الْعَدْلِ يُصِحُّ الْبَدَنَ وَيَنْفِي الْمَرَضَ، وَذَلِكَ أَلَّا يَتَنَاوَلَ الطَّعَامَ حَتَّىٰ يَشْتَهِيَهُ، ثُمَّ يَرْفَعُ يَدَهُ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ، وَالدَّوَامُ عَلَىٰ التَّقَلُّلِ مِنَ الطَّعَامِ يُضْعِفُ الْقُوَىٰ، وَقَدْ قَلَّلَ أَقْوَامٌ مَطَاعِمَهُمْ حَتَّىٰ قَصَّرُوا عَنِ الْفَرَائِضِ، وَظَنُّوا بِجَهْلِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ فَضِيلَةٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَمَنْ مَدَحَ الْجُوعَ فَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَىٰ الْحَالَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا»(٢).

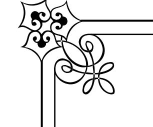
⦿ ⦿ ⦿

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٧٤).

(٢) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص١٦٣).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْأَخْذُ بِالْوَرَعِ، وَإِدْمَانُ الذِّكْرِ

وَمَدَارُ الْأَمْرِ عَلَىٰ أَخْذِ النَّفْسِ بِالْوَرَعِ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ، وَالْوَرَعُ مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْوَرَعَ كُلَّهُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[1]، فَهَذَا يَعُمُّ التَّرْكَ لِمَا لَا يَعْنِي: مِنَ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، وَالِاسْتِمَاعِ وَالْبَطْشِ، وَالْمَشْيِ، وَالْفِكْرِ، وَسَائِرِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ فِي الْوَرَعِ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «الْوَرَعُ تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِيكَ هُوَ تَرْكُ الْفَضَلَاتِ»[2].

قُلْتُ: وَمِلَاكُ الْوَرَعِ تَرْكُ الشُّبُهَاتِ، وَقَدْ حَضَّ عَلَىٰ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ كَانَ**

---

(١) **قَالَ فِي** «**شَرْحِ السُّنَّةِ**»: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ لَكِنَّهُ مُرْسَلٌ، رَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّإِ» (٢/ ٤٧٠)، فِي حُسْنِ الْخُلُقِ «شَرْحُ السُّنَّةِ» (١٤/ ٣٢١)، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «مِشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ» (٣/ ١٣٦١).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ، تَحْقِيقُ الشَّيْخِ مُحَمَّد حَامِدِ الْفِقِي (٢/ ٢١).

لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَىٰ مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالْمَعَاصِي حِمَىٰ اللهِ، مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي الْوَرَعِ، وَهُوَ أَنَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَىٰ الرَّجُلِ أَمْرُهُ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَلَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ مُتَقَدِّمٌ، فَالْوَرَعُ أَنْ يَجْتَنِبَهُ وَيَتْرُكَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَجْتَنِبْهُ، وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ، وَاعْتَبَارِهِ جَرَّهُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، وَجُمْلَةُ الشُّبَهِ الْعَارِضَةِ فِي الْأُمُورِ قِسْمَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ فِي تَحْلِيلٍ وَلَا تَحْرِيمٍ، فَالْوَرَعُ تَرْكُهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ لَهُ أَصْلٌ فِي التَّحْلِيلِ أَوِ التَّحْرِيمِ، فَعَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِالْأَصْلِ وَلَا يَنْزِلُ عَنْهُ إِلَّا بِيَقِينِ عِلْمٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ الرَّجُلِ يَتَطَهَّرُ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ يَشُكُّ فِي الْحَدَثِ، فَإِنَّهُ يُصَلِّىٰ مَا لَمْ يَعْلَمِ الْحَدَثَ يَقِينًا، وَكَذَلِكَ الْمَاءُ يَجِدُهُ فِي الْفَلَاةِ يَشُكُّ فِي نَجَاسَتِهِ، فَهُوَ عَلَىٰ الْأَصْلِ مِنَ الطَّهَارَةِ، فَعَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِهِ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِي الْوَسْوَاسِ»[1].

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْله: «**الْحَلَال بَيِّن وَالْحَرَام بَيِّن**» فِيهِ تَقْسِيمُ الْأَحْكَامِ إِلَىٰ ثَلَاثَة أَشْيَاءَ، وَهُوَ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِمَّا أَنْ يُنَصَّ عَلَىٰ طَلَبِهِ مَعَ الْوَعِيدِ عَلَىٰ تَرْكِهِ، أَوْ يُنَصّ عَلَىٰ تَرْكِهِ مَعَ الْوَعِيدِ عَلَىٰ فِعْلِهِ، أَوْ لَا يُنَصُّ عَلَىٰ

---

(١) «شَرْحُ السُّنَّةِ» (٨/ ١٥).

وَاحِدٍ مِنْهُمَا. فَالْأَوَّلُ: الْحَلَالُ الْبَيِّنُ، وَالثَّانِي: الْحَرَامُ الْبَيِّنُ. فَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ**» أَيْ: لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانِهِ، وَيَشْتَرِكُ فِي مَعْرِفَتِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَالثَّالِثُ: مُشْتَبِهٌ لِخَفَائِهِ، فَلَا يُدْرَىٰ هَلْ هُوَ حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ، وَمَا كَانَ هَذَا سَبِيلُهُ يَنْبَغِي اجْتِنَابُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ تَبِعَتِهِ، وَإِنْ كَانَ حَلَالًا فَقَدْ أُجِرَ عَلَىٰ تَرْكِهِ بِهَذَا الْقَصْدِ»(١).

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْوَرَعِ فِي جَمِيعِ شَأْنِهِ، وَيَتَحَرَّىٰ الْحَلَالَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلِبَاسِهِ وَمَسْكَنِهِ، وَفِي جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ وَعِيَالُهُ، لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ، وَيَصْلُحَ لِقَبُولِ الْعِلْمِ وَنُورِهِ وَالنَّفْعِ بِهِ.

وَلَا يَقْنَعَ لِنَفْسِهِ بِظَاهِرِ الْحِلِّ شَرْعًا مَهْمَا أَمْكَنَهُ التَّوَرُّعُ، وَلَمْ تُلْجِئْهُ حَاجَةٌ، أَوْ يَجْعَلَ حَظَّهُ الْجَوَازَ، بَلْ يَطْلُبِ الرُّتْبَةَ، وَيَقْتَدِيَ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ فِي التَّوَرُّعِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ كَانُوا يُفْتُونَ بِجَوَازِهِ، وَأَحَقُّ مَنِ اقْتُدِيَ بِهِ فِي ذَلِكَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ حَيْثُ لَمْ يَأْكُلِ التَّمْرَةَ الَّتِي وَجَدَهَا فِي الطَّرِيقِ خَشْيَةَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، مَعَ بُعْدِ كَوْنِهَا مِنْهَا، وَلِأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يُقْتَدَىٰ بِهِمْ وَيُؤْخَذُ عَنْهُمْ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلُوا الْوَرَعَ فَمَنْ يَسْتَعْمِلُهُ؟!»(٢).

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِي ﷺ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ،

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٤/ ٣٤١).
(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٧٥).

فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً لَأَكَلْتُهَا**»، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

وَأَخْرَجَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَىٰ فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا ثُمَّ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ: «**مَسْقُوطَة**» قَالَ ابْنُ التَّيْمِيِّ: قَوْلُهُ: «**مَسْقُوطَة**» كَلِمَةٌ غَرِيبَةٌ؛ لِأَنَّ الْمَشْهُورَ أَنَّ سَقَطَ لَازِمٌ وَالْعَرَبُ قَدْ تَذْكُر الْفَاعِل بِلَفْظِ الْمَفْعُولِ؛ وَاسْتَشْهَدَ لَهُ الْخَطَّابِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أَيْ آتِيَا، وَقَالَ اِبْن التِّين: مَسْقُوطَة بِمَعْنَىٰ سَاقِطَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أَيْ سَاتِرًا.

وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ تَعْيِينَ الْمَحَلِّ الَّذِي رَأَىٰ فِيهِ التَّمْرَةَ وَهُوَ فِرَاشُهُ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَأْكُلْهَا وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الْوَرَعِ»(١).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فِي الْحَدِيثِ اسْتِعْمَالُ الْوَرَعِ، لِأَنَّ هَذِهِ التَّمْرَةَ لَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الِاحْتِمَالِ، وَلَكِنَّ الْوَرَعَ تَرْكُهَا»(٢).

قُلْتُ: وَأَهَمُّ مَا يَلْزَمُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَمْرٍ، إِدْمَانُ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ حَالٍ وَحِينٍ، فَإِنَّ الذِّكْرَ هُوَ بَابُ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ، وَسَبِيلُ الْوُصُولِ الْأَقْوَمُ، وَمَنْ صَدَفَ

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٤/ ٣٤٤).

(٢) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٧/ ١٧٧).

عَنْهُ فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَسَارَ عَلَىٰ غَيْرِ سَبِيلٍ، وَمَنْ وُفِّقَ إِلَيْهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ الرُّشْدِ وَقَادَهُ خَيْرُ دَلِيلٍ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْإِقْبَالُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَالرِّضَاءُ بِهِ وَعَنْهُ وَامْتِلَاءُ الْقَلْبِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَاللَّهَجُ بِذِكْرِهِ وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ: ثَوَابٌ عَاجِلٌ وَجَنَّةٌ وَعَيْشٌ لَا نِسْبَةَ لِعَيْشِ الْمُلُوكِ إِلَيْهِ أَلْبَتَّةَ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَا يَدْخُلُ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَقَالَ لِي مَرَّةً: مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي؟ أَنَا جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي أَنَّىٰ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي لَا تُفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خَلْوَةٌ، وَقَتْلِي شَهَادَةٌ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ.

وَعَلِمَ اللهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ مِنْ ضِيقِ الْعَيْشِ وَخِلَافِ الرَّفَاهِيَةِ وَالنَّعِيمِ بَلْ ضِدِّهَا، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْإِرْهَاقِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا وَأَسَرِّهِمْ نَفْسًا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الْخَوْفُ وَسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ وَنَسْمَعُ كَلَامَهُ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَيَنْقَلِبُ انْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً فَسُبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ فَآتَاهُمْ مِنْ رُوحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا مَا اسْتَفْرَغَ قُوَاهُمْ لِطَلَبِهَا وَالْمُسَابَقَةِ إِلَيْهَا.

وَكَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ. وَقَالَ آخَرُ: مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا! خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا! قِيلَ: مَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللهِ وَمَعْرِفَتُهُ وَذِكْرُهُ.

فَمَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ وَمَعْرِفَتُهُ وَدَوَامُ ذِكْرِهِ وَالسُّكُونُ إِلَيْهِ وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَيْهِ، وَإِفْرَادُهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْمُعَامَلَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَوْلِي عَلَىٰ هُمُومِ الْعَبْدِ وَعَزَمَاتِهِ وَإِرَادَتِهِ: هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَالنَّعِيمُ الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ نَعِيمٌ، وَهُوَ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُحِبِّينَ وَحَيَاةُ الْعَارِفِينَ»(١).

«وَحَضَرْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ مَرَّةً صَلَّىٰ الْفَجْرَ ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ قَرِيبٍ مِنَ انْتِصَافِ النَّهَارِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ: هَذِهِ غَدْوَتِي وَلَوْ لَمْ أَتَغَدَّ الْغَدَاءَ سَقَطَتْ قُوَّتِي، أَوْ كَلَامًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا، وَقَالَ لِي مَرَّةً: لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بِنِيَّةِ إِجْمَامِ نَفْسِي وَإِرَاحَتِهَا لِأَسْتَعِدَّ بِتِلْكَ الرَّاحَةِ لِذِكْرٍ آخَرَ أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ»(٢).

«وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ النُّحَاسُ وَالْفِضَّةُ وَغَيْرُهُمَا، وَجَلَاؤُهُ بِالذِّكْرِ فَإِنَّهُ يَجْلُوهُ حَتَّىٰ يَدَعَهُ كَالْمِرْآةِ الْبَيْضَاءِ، فَإِذَا تُرِكَ صَدِئَ فَإِذَا جَلَاهُ.

وَصَدَأُ الْقَلْبِ بِأَمْرَيْنِ: بِالْغَفْلَةِ وَالذَّنْبِ، **وَجَلَاؤُهُ بِشَيْئَيْنِ**: بِالِاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ،

---

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص٤٤).

(٢) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص٣٩).

فَمَنْ كَانَتِ الْغَفْلَةُ أَغْلَبَ أَوْقَاتِهِ كَانَ الصَّدَأُ مُتَرَاكِبًا عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَصَدَأُهُ بِحَسَبِ غَفْلَتِهِ، وَإِذَا صَدِئَ الْقَلْبُ لَمْ تَنْطَبِعْ فِيهِ صُوَرُ الْمَعْلُومَاتِ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَيَرَىٰ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ فِي صُورَةِ الْبَاطِلِ لِأَنَّهُ لَمَّا تَرَاكَمَ عَلَيْهِ الصَّدَأُ أَظْلَمَ فَلَمْ تَظْهَرْ فِيهِ صُورَةُ الْحَقَائِقِ كَمَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِذَا تَرَاكَمَ عَلَيْهِ الصَّدَأُ وَاسْوَدَّ وَرَكِبَهُ الرَّانُ، فَسَدَ تَصَوُّرُهُ وَإِدْرَاكُهُ فَلَا يَقْبَلُ حَقًّا وَلَا يُنْكِرُ بَاطِلًا، وَهَذَا أَعْظَمُ عُقُوبَاتِ الْقَلْبِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْغَفْلَةِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ نُورَ الْقَلْبِ وَيُعْمِيَانِ بَصَرَهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِرَجُلٍ فَلْيَنْظُرْ: هَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ أَوْ مِنَ الْغَافِلِينَ؟ وَهَلِ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ الْهَوَىٰ أَوِ الْوَحْيُ؟ فَإِنْ كَانَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ هُوَ الْهَوَىٰ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَمَعْنَىٰ الْفُرُطِ قَدْ فُسِّرَ بِالتَّضْيِيعِ، أَيْ: أَمْرُهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَلْزَمَهُ وَيَقُومَ بِهِ، وَبِهِ رُشْدُهُ وَفَلَاحُهُ ضَائِعٌ قَدْ فَرَّطَ فِيهِ وَفُسِّرَ بِالْإِسْرَافِ أَيْ: قَدْ أَفْرَطَ، وَفُسِّرَ بِالْإِهْلَاكِ، وَفُسِّرَ بِالْخِلَافِ لِلْحَقِّ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَهَىٰ عَنْ طَاعَةِ مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَيَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْظُرَ فِي شَيْخِهِ وَقُدْوَتِهِ وَمَتْبُوعِهِ فَإِنْ وَجَدَهُ كَذَلِكَ فَلْيَبْعُدْ عَنْهُ، وَإِنْ وَجَدَهُ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ عَزَّ وَجَلَّ وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ وَأَمْرُهُ غَيْرُ مَفْرُوطٍ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ حَازِمٌ فِي أَمْرِهِ، فَلْيَسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ

الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ إِلَّا بِالذِّكْرِ، فَمَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(١).

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «رُبَّمَا طَالَعْتُ عَلَىٰ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ نَحْوَ مِائَةِ تَفْسِيرٍ ثُمَّ أَسْأَلُ اللهَ الْفَهْمَ وَأَقُولُ: يَا مُعَلِّمَ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي، وَكُنْتُ أَذْهَبُ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ الْمَهْجُورَةِ وَنَحْوِهَا، وَأُمَرِّغُ وَجْهِي فِي التُّرَابِ وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ وَأَقُولُ: يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي»(٢).

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**».

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي هَذَا التَّمْثِيلِ مَنْقَبَةٌ لِلذَّاكِرِ جَلِيلَةٌ وَفَضِيلَةٌ لَهُ نَبِيلَةٌ، وَأَنَّهُ بِمَا يَقَعُ مِنْهُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَيَاةٍ ذَاتِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ لِمَا يَغْشَاهُ مِنَ الْأَنْوَارِ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُجُورِ، كَمَا أَنَّ التَّارِكَ لِلذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ فِي حَيَاةٍ ذَاتِيَّةٍ فَلَيْسَ لَهَا اعْتِبَارٌ، بَلْ هُوَ شَبِيهٌ بِالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ لَا يَفِيضُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِمَّا

---

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص٣٧).

(٢) «مُقَدِّمَةُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ» (ص١٥).

يَفِيضُ عَلَىٰ الْأَحْيَاءِ الْمَشْغُولِينَ بِالطَّاعَةِ للهِ ﷻ، وَمِثْلُ مَا فِي هَذَا الحَدِيثِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَالْمعْنَىٰ تَشْبِيهُ الْكَافِرِ بِالْمَيْتِ، وَتَشْبِيهُ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ بِالْحَيَاةِ»(١).

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» بَابٌ: فَضْلُ ذِكْرِ اللهِ ﷻ، ذَكَرَ فِيهِ حَدِيثَ أَبِي مُوسَىٰ الْمُتَقَدِّمَ وَحَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي. قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا، وَاللهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا،**

---

(١) «تُحْفَةُ الذَّاكِرِينَ» (ص١٥).

وَاللهِ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ؛ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: «قَوْلُهُ: (بَابُ ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ هُنَا: الْإِتْيَانُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي وَرَدَ التَّرْغِيبُ فِي قَوْلِهَا وَالْإِكْثَارِ مِنْهَا، مِثْلُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَهِيَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»، وَمَا يَلْتَحِقُ بِهَا مِنَ الْحَوْقَلَةِ[١]، وَالْبَسْمَلَةِ وَالْحَسْبَلَةِ[٢]، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالدُّعَاءِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَيُطْلَقُ ذِكْرُ اللهِ أَيْضًا وَيُرَادُ بِهِ الْمُوَاظَبَةُ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ أَوْ نَدَبَ إِلَيْهِ؛ كَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَةِ الْحَدِيثِ، وَمُدَارَسَةِ الْعِلْمِ، وَالتَّنَفُّلِ بِالصَّلَاةِ.

ثُمَّ الذِّكْرُ يَقَعُ تَارَةً بِاللِّسَانِ وَيُؤْجَرُ عَلَيْهِ النَّاطِقُ، وَلَا يُشْتَرَطُ اسْتِحْضَارُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ أَلَّا يَقْصِدَ بِهِ غَيْرَ مَعْنَاهُ، وَإِنِ انْضَافَ إِلَىٰ النُّطْقِ الذِّكْرُ بِالْقَلْبِ فَهُوَ أَكْمَلُ، فَإِنِ انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ اسْتِحْضَارُ مَعْنَىٰ الذِّكْرِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ ازْدَادَ كَمَالًا، فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ مِمَّا

---

(١) **هِيَ قَوْلُ**: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

(٢) **هِيَ قَوْلُ**: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فُرِضَ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ جِهَادٍ أَوْ غَيْرِهِمَا ازْدَادَ كَمَالًا، فَإِنْ صَحَّحَ التَّوَجُّهَ وَأَخْلَصَ للهِ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَبْلَغُ الْكَمَالِ»(١).

قُلْتُ: وَأَمَّا رِوَايَةُ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتُ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**». فَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «الَّذِي يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ حَقِيقَةً هُوَ السَّاكِنُ لَا السَّكَنُ، وَإِطْلَاقُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ فِي وَصْفِ الْبَيْتِ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ سَاكِنُ الْبَيْتِ، فَشَبَّهَ الذَّاكِرَ بِالْحَيِّ الَّذِي ظَاهِرُهُ مُتَزَيِّنٌ بِنُورِ الْحَيَاةِ وَبَاطِنُهُ بِنُورِ الْمَعْرِفَةِ، وَغَيْرَ الذَّاكِرِ بِالْبَيْتِ الَّذِي ظَاهِرُهُ عَاطِلٌ وَبَاطِنُهُ بَاطِلٌ، وَقِيلَ: مَوْقِعُ التَّشْبِيهِ بِالْحَيِّ وَالْمَيِّتِ لِمَا فِي الْحَيِّ مِنَ النَّفْعِ لِمَنْ يُوَالِيهِ وَالضُّرِّ لِمَنْ يُعَادِيهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْمَيِّتِ»(٢).

قُلْتُ: فَأَحَقُّ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ الذِّكْرِ الْوُثْقَىٰ أَهْلُ الْعِلْمِ وَطَلَبَتُهُ، وَإِنَّهُمْ لَيَسِيرُونَ بِهِ سَيْرًا حَثِيثًا مُوَفَّقًا، وَبِغَيْرِهِ تَتَعَثَّرُ الْأَقْدَامُ، وَتَصْدَأُ الْقُلُوبُ، وَتَتَشَابَهُ السُّبُلُ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحيَانًا فَنَنْتَكِسُ

●●●

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١١/ ٢١٢).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (١١/ ٢١٤).

٥- تَقْلِيلُ الطَّعَامِ وَالْمَنَامِ وَالْكَلَامِ، مَا أَمْكَنَ

تَقَدَّمَ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَطْعَمُهُ حَلَالًا يَسِيرًا، «وَطَرِيقُ الرِّيَاضَةِ فِي كَسْرِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ أَنَّ مَنْ تَعَوَّدَ اسْتِدَامَةَ الشِّبَعِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَلِّلَ مِنْ مَطْعَمِهِ يَسِيرًا مَعَ الزَّمَانِ إِلَىٰ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ حَدِّ التَّوَسُّطِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، فَالْأَوْلَىٰ تَنَاوُلُ مَا لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِبَقَاءِ الْقُوَّةِ، فَلَا يُحِسُّ الْمُتَنَاوِلُ بِجُوعٍ وَلَا شِبَعٍ فَحِينَئِذٍ يَصِحُّ الْبَدَنُ، وَتَجْتَمِعُ الْهِمَّةُ، وَيَصْفُو الْفِكْرُ، وَمَتَىٰ زَادَ فِي الْأَكْلِ أَوْرَثَهُ كَثْرَةَ النَّوْمِ، وَبَلَادَةَ الذِّهْنِ»[١].

وَأَمَّا كَوْنُ الطَّعَامِ حَلَالًا فَهُوَ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهُوَ فِي حَقِّ طَالِبِ الْعِلْمِ آكَدُ؛ إِذْ طَالِبُ الْعِلْمِ مَظِنَّةُ الْعِلْمِ بِمَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ، وَهُوَ مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ وَالتَّحْصِيلِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَهَذَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «مَا سُمِعَ أَنَّهُ طَلَبَ طَعَامًا قَطُّ، لَا عَشَاءً وَلَا غَدَاءً، وَلَوْ بَقِيَ مَهْمَا بَقِيَ لِشِدَّةِ اشْتِغَالِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، بَلْ كَانَ رُبَّمَا يُؤْتَىٰ بِالطَّعَامِ وَرُبَّمَا يُتْرَكُ عِنْدَهُ فَيَبْقَىٰ زَمَانًا حَتَّىٰ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَإِذَا أَكَلَ يَأْكُلُ شَيْئًا يَسِيرًا، وَمَا ذُكِرَ مِنْ مَلَاذِّ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا كَانَ يَخُوضُ فِي شَيْءٍ مِنْ

---

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٢١٢).

حَدِيثِهَا، وَلَا يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَعِيشَتِهَا، بَلْ جُلُّ هَمِّهِ وَحَدِيثِهِ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ»(١).

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ»(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، **الدَّقَلُ** -بِفَتْحِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَالْقَافِ-: رَدِيءُ التَّمْرِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ فَأَبَىٰ أَنْ يَأْكُلَ، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَمَصْلِيَّةٌ بِفَتْحِ الْمِيمِ، أَيْ: مَشْوِيَّةٌ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** «لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ خِوَانٍ حَتَّىٰ مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّىٰ مَاتَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «وَلَا رَأَىٰ شَاةً سَمِيطًا بِعَيْنَيْهِ قَطُّ».

الْخِوَانُ: الْمَائِدَةُ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا طَعَامٌ.

---

(١) «غَايَةُ الْأَمَانِيِّ» (٢/ ١٧٣).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٧٨).

مُرَقَّقًا: مُحْسَنًا مُلَيَّنًا، وَالتَّرْقِيقُ: التَّلْيِينُ.

السَّمِيطُ: هُوَ مَا أُزِيلَ شَعْرُهُ بِمَاءٍ سَاخِنٍ، وَشُوِيَ جِلْدُهُ، وَإِنَّمَا يُفْعَلُ ذَلِكَ بِصَغِيرِ السِّنِّ، وَهُوَ مِنْ فِعْلِ الْمُتْرَفِينَ.

وَأَمَّا الْمَنَامُ: «فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُقَلِّلَ مِنْهُ مَا لَمْ يَلْحَقْهُ ضَرَرٌ فِي بَدَنِهِ وَذِهْنِهِ، وَلَا يَزِيدُ فِي نَوْمِهِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَلَىٰ ثَمَانِي سَاعَاتٍ، وَهُوَ ثُلُثُ الزَّمَانِ، فَإِنِ احْتَمَلَ حَالُهُ أَقَلَّ مِنْهَا فَعَلَ»[١].

قَالَ الزَّرْنُوجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلَ الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ: فِي التَّفَقُّهِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَلَمْ يَبِتْ عَلَىٰ فِرَاشِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ دَفَاتِرَهُ، وَكَانَ إِذَا مَلَّ مِنْ نَوْعٍ يَنْظُرُ فِي نَوْعٍ آخَرَ، وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ كَأْسَ الْمَاءِ، وَيُزِيلُ نَوْمَهُ بِالْمَاءِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ النَّوْمَ مِنَ الْحَرَارَةِ، فَلَابُدَّ مِنْ دَفْعِهِ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ»[٢].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّىٰ أَصْبَحَ، مَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «**بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيهِ**»، أَوْ

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٧٧).
(٢) «تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِ طَرِيقَ التَّعَلُّمِ» (ص٢٣).

قَالَ: «فِي أُذُنِهِ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَدْ مَدَحَ اللهُ ﷻ الْمُتَّقِينَ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِحْسَانِ، وَبِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾: «أَيْ: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أَيْ: مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وَاخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ وَتَقْدِيرُهُ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كَابَدُوا قِيَامَ اللَّيْلِ فَلَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقَلَّهُ وَنَشِطُوا فَجَدُّوا إِلَىٰ السَّحَرِ حَتَّىٰ كَانَ الِاسْتِغْفَارُ بِسَحَرٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كَانُوا لَا يَنَامُونَ إِلَّا قَلِيلًا، ثُمَّ يَقُولُ: لَسْتُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾:

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٩٦)، وَمُسْلِمٌ (٧٧٤).

يَنَامُونَ»[١].

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَانُوا۟﴾ أَيِ: الْمُحْسِنُونَ ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أَيْ: كَانَ هُجُوعُهُمْ أَيْ: نَوْمُهُمْ بِاللَّيْلِ قَلِيلًا، وَأَمَّا أَكْثَرُ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُم قَانِتُونَ لِرَبِّهِمْ، مَا بَيْنَ صَلَاةٍ، وَقِرَاءَةٍ، وَذِكْرٍ، وَدُعَاءٍ، وَتَضَرُّعٍ.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ الَّتِي هِيَ قُبَيْلَ الْفَجْرِ ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ اللهَ تَعَالَىٰ، فَمَدُّوا صَلَاتَهُمْ إِلَىٰ السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا فِي خَاتِمَةِ قِيَامِهِمْ بِاللَّيْلِ، يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تَعَالَىٰ، اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِ لِذَنْبِهِ»[٢].

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَلَا هُمْ مِنْهَا بِسَبَبٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، بَلْ شَأْنُهُمُ الْجِدُّ وَالْحِرْصُ، وَلَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ حَتَّىٰ يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةَ.

وَأَمَّا تَقْلِيلُ الْكَلَامِ: فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٣] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: صَمَتَ يَصْمُتُ بِضَمِّ الْمِيمِ صَمْتًا

---

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٤/ ٢٣٣).
(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (٨/ ٢٣).
(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٧٢)، وَمُسْلِمٌ (٧٥).

وَصُمُوتًا وَصِمَاتًا، أَيْ: سَكَتَ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَإِنْ كَانَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ خَيْرًا مُحَقَّقًا يُثَابُ عَلَيْهِ، وَاجِبًا أَوْ مَنْدُوبًا، فَلْيَتَكَلَّمْ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ يُثَابُ عَلَيْهِ فَلْيُمْسِكْ عَنِ الْكَلَامِ، سَوَاءٌ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَكْرُوهٌ أَوْ مُبَاحٌ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ الْكَلَامُ الْمُبَاحُ مَأْمُورًا بِتَرْكِهِ، مَنْدُوبًا إِلَىٰ الْإِمْسَاكِ عَنْهُ؛ مَخَافَةً مِنَ انْجِرَارِهِ إِلَىٰ الْمُحَرَّمِ أَوِ الْمَكْرُوهِ، وَهَذَا يَقَعُ فِي الْعَادَةِ كَثِيرًا أَوْ غَالِبًا، وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَلْيُفَكِّر، فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ لَا ضَرَرَ عَلَيْهِ تَكَلَّمَ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ فِيهِ ضَرَرٌ أَوْ شَكَّ فِيهِ أَمْسَكَ»[1].

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» بِضَمِّ الْمِيمِ وَيَجُوزُ كَسْرُهَا، وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ لِأَنَّ الْقَوْلَ كُلَّهُ إِمَّا خَيْرٌ وَإِمَّا شَرٌّ وَإِمَّا آيِلٌ إِلَىٰ أَحَدِهِمَا؛ فَدَخَلَ فِي الْخَيْرِ كُلُّ مَطْلُوبٍ مِنَ الْأَقْوَالِ فَرْضِهَا وَنَدْبِهَا، فَأَذِنَ فِيهِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَدَخَلَ فِيهِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا هُوَ شَرٌّ أَوْ يَئُولُ إِلَىٰ الشَّرِّ فَأَمَرَ عِنْدَ إِرَادَةِ الْخَوْضِ فِيهِ بِالصَّمْتِ»[2].

---

(١) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢/ ١٨).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (١٠/ ٤٦١).

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الِاسْتِمَاعِ، وَفِي الِاسْتِمَاعِ سَلَامَةٌ وَزِيَادَةٌ فِي الْعِلْمِ، وَالْمُسْتَمِعُ شَرِيكُ الْمُتَكَلِّمِ، وَفِي الْكَلَامِ تَوهُّنٌ وَتَزَيُّنٌ وَزِيَادَةٌ وَنُقْصَانٌ، وَقَالَ: إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَيَنْتَظِرُ الْفِتْنَةَ، وَإِنَّ الْمُنْصِتَ لَيَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ.

وَقَالَ أَبُو الذَّيَّالِ: تَعَلَّمِ الصَّمْتَ كَمَا تَتَعَلَّمُ الْكَلَامَ، فَإِنْ يَكُنِ الْكَلَامُ يَهْدِيكَ فَإِنَّ الصَّمْتَ يَقِيكَ، وَلَكَ فِي الصَّمْتِ خَصْلَتَانِ، خَصْلَةٌ تَأْخُذُ بِهَا مِنْ عِلْمِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، وَخَصْلَةٌ تَدْفَعُ بِهَا جَهْلَ مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْكَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْكَلَامُ بِالْخَيْرِ غَنِيمَةٌ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ السُّكُوتِ؛ لِأَنَّ أَرْفَعَ مَا فِي السُّكُوتِ السَّلَامَةُ، وَالْكَلَامُ بِالْخَيْرِ غَنِيمَةٌ، وَقَدْ قَالُوا: مَنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ غَنِمَ، وَمَنْ سَكَتَ سَلِمَ، وَالْكَلَامُ فِي الْعِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَىٰ الذِّكْرِ وَالتِّلَاوَةِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ نَفْيُ الْجَهْلِ، وَوَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الْمَعَانِي»[1].

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَلَبَ رَجُلَانِ الْعِلْمَ، فَلَمَّا عَلِمَا صَمَتَ أَحَدُهُمَا وَتَكَلَّمَ الْآخَرُ، فَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُ إِلَىٰ الصَّامِتِ:

وَمَا شَيْءٌ أَرَدْتُ بِهِ اكْتِسَابًا ... بِأَجْمَعَ فِي الْمَعِيشَةِ مِنْ لِسَانِ

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ (١/ ١٣٧).

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الصَّامِتُ:

وَمَا شَيْءٌ أَرَدْتُ بِهِ كَمَالًا ... أَحَقُّ بِطُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانِ»[١].

«جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِاللهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: «لَا تَكَلَّم»، قَالَ: مَا يَسْتَطِيعُ مَنْ عَاشَ فِي النَّاسِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ. قَالَ: «فَإِنْ تَكَلَّمْتَ فَتَكَلَّمْ بِحَقٍّ أَوِ اسْكُتْ»، قَالَ: زِدْنِي. قَال: «لَا تَغْضَبْ»، قَالَ: أَمَرْتَنِي أَلَّا أَغْضَبَ، وَإِنَّهُ لَيَغْشَانِي مَا لَا أَمْلِكُ. قَالَ: «فَإِنْ غَضِبْتَ فَامْلِكْ لِسَانَكَ وَيَدَكَ»، قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: «لَا تُلَابِسِ النَّاسَ»، قَالَ: مَا يَسْتَطِيعُ مَنْ عَاشَ فِي النَّاسِ أَلَّا يُلَابِسَهُمْ. قَالَ: «فَإِنْ لَابَسْتَهُمْ فَاصْدُقِ الْحَدِيثَ وَأَدِّ الْأَمَانَةَ»[٢].

عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّيْمِيِّ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ أَحْفَظَ لِلِسَانِهِ مِنْهُ لِمَوْضِعِ قَدَمِهِ»[٣].

قُلْتُ: وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِخَطَرِ اللِّسَانِ وَكَثْرَةِ الْكَلَامِ عَلَىٰ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، إِذْ آفَاتُ اللِّسَانِ كَثِيرَةٌ وَمُهْلِكَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا لَكَافِيَةً لَاسْتِفْرَاغِ الْعُمُرِ فِي التَّوَقِّي مِنْهَا وَالْحَذَرِ، وَلَكِنَّ اللهَ يَبْتَلِي خَلْقَهُ حَتَّىٰ يَعْلَمَ الْمُصْلِحَ مِنَ الْمُفْسِدِ، وَالْأَمْرُ للهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

● ● ●

---

(١) «لُبَابُ الْآدَابِ» (ص٢٧٤).

(٢) «كِتَابُ الصَّمْتِ وَآدَابِ اللِّسَانِ» (ص٥٥٨).

(٣) «كِتَابُ الصَّمْتِ وَآدَابِ اللِّسَانِ» (ص٢٠٦).





آفَاتُ اللِّسَانِ

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «آفَاتُ اللِّسَانِ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَلَهَا فِي الْقَلْبِ حَلَاوَةٌ وَلَهَا بَوَاعِثُ مِنَ الطَّبْعِ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ خَطَرِهَا إِلَّا بِالصَّمْتِ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنْصِفْ أُذُنَيْكَ مِنْ فِيكَ، فَإِنَّمَا جُعِلَ لَكَ أُذُنَانِ وَفَمٌ وَاحِدٌ، لِتَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَكَلَّمُ بِهِ».

وَقَالَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «مَا تَكَلَّمْتُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً بِكَلِمَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَعْتَذِرَ مِنْهَا».

- وَأَمَّا آفَاتُ الْكَلَامِ فَهِيَ:

الْآفَةُ الْأُولَىٰ: الْكَلَامُ فِيمَا لَا يَعْنِي.

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ عَرَفَ قَدْرَ زَمَانِهِ، وَأَنَّهُ رَأْسُ مَالِهِ، لَمْ يُنْفِقْهُ إِلَّا فِي فَائِدَةٍ، وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ تُوجِبُ حَبْسَ اللِّسَانِ عَنِ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِي، لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ ذِكْرَ اللهِ وَاشْتَغَلَ فِيمَا لَا يَعْنِي كَانَ كَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ أَخْذِ جَوْهَرَةٍ، فَأَخَذَ عِوَضَهَا مَدَرَةً(١) وَهَذَا خُسْرَانُ الْعُمُرِ.

(١) هُوَ الطِّينُ اللَّزِجُ الْمُتَمَاسِكُ.

وَقِيلَ لِلقْمَانَ الْحَكِيمِ: مَا بَلَغَ مِنْ حِكْمَتِكَ؟ قَالَ: لَا أَسْأَلُ عَمَّا كُفِيتُهُ، وَلَا أَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِينِي.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ لُقْمَانَ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَسْرُدُ دِرْعًا -أَيْ: يَنْسُجُهَا- فَجَعَلَ يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَرَىٰ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ فَأَمْسَكَ، فَلَمَّا فَرَغَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَامَ وَلَبِسَ الدِّرْعَ ثُمَّ قَالَ: نِعْمَ الدِّرْعُ لِلْحَرْبِ. فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ.

الْآفَةُ الثَّانِيَةُ: الْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ.

وَهُوَ الْكَلَامُ فِي الْمَعَاصِي، كَذِكْرِ مَجَالِسِ الْخَمْرِ، وَمَقَامَاتِ الْفُسَّاقِ.

وَأَنْوَاعُ الْبَاطِلِ كَثِيرَةٌ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِدَالُ وَالْمِرَاءُ، وَهُوَ كَثْرَةُ الْمُلَاحَاةُ لِلشَّخْصِ لِبَيَانِ غَلَطِهِ وَإِفْحَامِهِ، وَالْبَاعِثُ عَلَىٰ ذَلِكَ التَّرَفُّعُ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنْكِرَ الْمُنْكَرَ مِنَ الْقَوْلِ، وَيُبَيِّنَ الصَّوَابَ فَإِنْ قُبِلَ مِنْهُ وَإِلَّا تَرَكَ الْمُمَارَاةَ، هَذَا إِذَا كَانَ مُعَلَّقًا بِالدِّينِ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَلَا وَجْهَ لِلْمُجَادَلَةِ فِيهِ وَعِلَاجُ هَذِهِ الْآفَةِ بِكَسْرِ الْكِبْرِ الْبَاعِثِ عَنْ إِظْهَارِ الْفَضْلِ، وَأَعْظَمُ مِنَ الْمِرَاءِ الْخُصُومَةُ، فَإِنَّهَا أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ الْمِرَاءِ، وَهَذِهِ الْخُصُومَةُ نَعْنِي بِهَا

الْخُصُومَةَ بِالْبَاطِلِ أَوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَأَمَّا مَنْ لَهُ حَقٌّ فَأَوْلَىٰ أَنْ يَصْدِفَ[١] عَنِ الْخُصُومَةِ مَهْمَا أَمْكَنَ لِأَنَّهَا تُوغِرُ الصَّدْرَ، وَتَهِيجُ الْغَضَبَ، وَتُورِثُ الْحِقْدَ، وَتُخْرِجُ إِلَىٰ تَنَاوُلِ الْعِرْضِ.

الْآفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّقَعُّرُ فِي الْكَلَامِ.

وَذَلِكَ يَكُونُ بِالتَّشَدُّقِ[٢]، وَتَكَلُّفِ السَّجْعِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي كَرَاهَةِ السَّجْعِ وَالتَّصَنُّعِ أَلْفَاظُ الْخَطِيبِ، وَالتَّذْكِيرِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ، وَلَا إِغْرَابٍ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ تَحْرِيكُ الْقُلُوبِ، وَتَشْوِيقُهَا، وَرَشَاقَةُ اللَّفْظِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

الْآفَةُ الرَّابِعَةُ: الْفُحْشُ وَالسَّبُّ وَالْبَذَاءُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْفُحْشَ وَالْبَذَاءَ هُوَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَحَةِ بِالْعِبَارَاتِ الصَّرِيحَةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْغِنَاءُ.

الْآفَةُ الْخَامِسَةُ: الْمُزَاحُ.

وَالْيَسِيرُ فَلَا يُنْهَىٰ عَنْهُ إِذَا كَانَ صِدْقًا، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْزَحُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا.

وَقَدِ اتَّفَقَ فِي مُزَاحِهِ ﷺ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ حَقًّا.

---

(١) **صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ**: أَعْرَضَ عَنْهُ.

(٢) هُوَ تَكَلُّفُ الْفَصَاحَةِ بِإِخْرَاجِ الْكَلَامِ مِنْ جَانِبِ الْفَمِ.

وَالثَّانِي: كَوْنُهُ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَمَنْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْدِيبِهِ مِنْ ضُعَفَاءِ الرِّجَالِ.

الثَّالِثُ: كَوْنُهُ نَادِرًا.

الْآفَةُ السَّادِسَةُ: السُّخْرِيَةُ وَالِاسْتِهْزَاءُ.

وَمَعْنَىٰ السُّخْرِيَةِ الِاحْتِقَارُ وَالِاسْتِهَانَةُ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَىٰ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ عَلَىٰ وَجْهٍ يُضْحَكُ مِنْهُ، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ بِالْمُحَاكَاةِ فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْإِشَارَةِ وَالْإِيمَاءِ، وَكُلُّهُ مَمْنُوعٌ فِي الشَّرْعِ.

الْآفَةُ السَّابِعَةُ: إِفْشَاءُ السِّرِّ وَإِخْلَافُ الْوَعْدِ وَالْكَذِبُ فِي الْقَوْلِ وَالْيَمِينِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، إِلَّا مَا رُخِّصَ فِيهِ مِنَ الْكَذِبِ لِزَوْجَتِهِ وَفِي الْحَرْبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُبَاحُ.

الْآفَةُ الثَّامِنَةُ: الْغِيبَةُ.

هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ الْغَائِبَ بِمَا يَكْرَهُهُ إِذَا بَلَغَهُ، سَوَاءٌ كَانَ نَقْصًا فِي بَدَنِهِ، كَالْعَمَشِ، وَالْعَوَرِ، وَالْحَوَلِ، وَالْقَرَعِ، وَالطُّولِ، وَالْقِصَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ فِي نَسَبِهِ، كَقَوْلِكَ أَبُوهُ نَبَطِيٌّ، أَوْ هِنْدِيٌّ، أَوْ فَاسِقٌ، أَوْ خَسِيسٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَوْ فِي خُلُقِهِ كَقَوْلِكَ: هُوَ سَيِّئُ الْخُلُقِ، بَخِيلٌ، مُتَكَبِّرٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَوْ فِي ثَوْبِهِ كَقَوْلِكَ: هُوَ طَوِيلُ الذَّيْلِ، وَاسِعُ الْكُمِّ، وَسِخُ الثِّيَابِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْغِيبَةِ، فَقَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِي أَخِيكَ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَقْصُودُ الذَّمِّ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْغِيبَةِ، سَوَاءٌ كَانَ بِكَلَامٍ أَوْ بِغَيْرِهِ، كَالْغَمْزِ، وَالْإِشَارَةِ وَالْكِتَابَةِ بِالْقَلَمِ، فَإِنَّ الْقَلَمَ أَحَدُ اللِّسَانَيْنِ.

وَأَقْبَحُ أَنْوَاعِ الْغِيبَةِ: غِيبَةُ الْمُتَزَهِّدِينَ الْمُرَائِينَ، مِثْلُ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُمْ إِنْسَانٌ فَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَبْتَلِنَا بِالدُّخُولِ عَلَىٰ السُّلْطَانِ، وَالتَّبَذُّلِ فِي طَلَبِ الْحُطَامِ، أَوْ يَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ، أَوْ نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ ذَمِّ الْمَذْكُورِ، وَمَدْحِ أَنْفُسِهِمْ، وَرُبَّمَا قَالَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ إِنْسَانٍ: ذَاكَ الْمِسْكِينُ قَدْ بُلِيَ بِآفَةٍ عَظِيمَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ، فَهُوَ يُظْهِرُ الدُّعَاءَ وَيُخْفِي قَصْدَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ لِلْغِيبَةِ شَرِيكٌ فِيهَا، وَلَا يَتَخَلَّصُ مِنْ إِثْمِ سَمَاعِهَا إِلَّا أَنْ يُنْكِرَ بِلِسَانِهِ، فَإِنْ خَافَ بِقَلْبِهِ، وَإِنْ قَدَرَ عَلَىٰ الْقِيَامِ أَوْ قَطْعِ الْكَلَامِ بِكَلَامٍ آخَرَ، لَزِمَهُ ذَلِكَ.

الْآفَةُ التَّاسِعَةُ: النَّمِيمَةُ.

فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّمِيمَةَ تُطْلَقُ فِي الْغَالِبِ عَلَىٰ قَوْلِ إِنْسَانٍ فِي إِنْسَانٍ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: قَالَ فِيكَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَتْ مَخْصُوصَةً بِهَذَا، بَلْ حَدُّهَا كَشْفُ مَا

يُكْرَهُ كَشْفُهُ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْأَقْوَالِ أَوِ الْأَعْمَالِ، حَتَّىٰ لَوْ رَآهُ يَدْفِنُ مَالًا لِنَفْسِهِ فَذَكَرَهُ، فَهُوَ نَمِيمَةٌ.

وَكُلُّ مَنْ نُقِلَتْ إِلَيْهِ النَّمِيمَةُ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: قَالَ فِيكَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، أَوْ فَعَلَ فِي حَقِّكَ كَذَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَعَلَيْهِ سِتَّةُ أَشْيَاءَ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا يُصِدِّقَ النَّاقِلَ؛ لِأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْصَحَهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُبْغِضَهُ فِي اللهِ؛ فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللهِ.

الرَّابِعُ: أَلَّا يَظُنَّ بِأَخِيهِ الْغَائِبِ السُّوءَ.

الْخَامِسُ: أَلَّا يَحْمِلَهُ مَا حُكِيَ لَهُ عَلَىٰ التَّجَسُّسِ وَالْبَحْثِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السَّادِسُ: أَلَّا يَرْضَىٰ لِنَفْسِهِ مَا نَهَىٰ النَّمَّامَ عَنْهُ، فَلَا يَحْكِي نَمِيمَتَهُ.

الْآفَةُ الْعَاشِرَةُ: كَلَامُ ذِي اللِّسَانَيْنِ.

الَّذِي يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ، وَيَنْقُلُ كَلَامَ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَىٰ الْآخَرِ، وَيُكَلِّمُ كُلَّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يُوَافِقُهُ، أَوْ يَعِدُهُ أَوْ يَنْصُرُهُ، أَوْ يُثْنِي عَلَىٰ الْوَاحِدِ فِي وَجْهِهِ وَيَذُمُّهُ عِنْدَ الْآخَرِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِنْ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ، الَّذِىٰ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْآفَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الْمَدْحُ.

وَلَهُ آفَاتٌ: مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَادِحِ، وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَمْدُوحِ:

فَأَمَّا آفَاتُ الْمَادِحِ، فَقَدْ يَقُولُ مَا لَا يَتَحَقَّقُهُ، وَلَا سَبِيلَ لِلِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ وَرِعٌ وَزَاهِدٌ، وَقَدْ يُفْرِطُ فِي الْمَدْحِ فَيَنْتَهِي إِلَىٰ الْكَذِبِ، وَقَدْ يَمْدَحُ مَنْ يَنْبَغِي أَن يُذَمَّ.

وَأَمَّا الْمَمْدُوحُ، فَإِنَّهُ يُحْدِثُ فِيهِ كِبْرًا أَوْ إِعْجَابًا، وَهُمَا مُهْلِكَانِ.

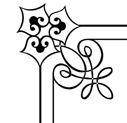
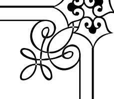
الْآفَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الْخَطَأُ فِي فَحْوَىٰ الْكَلَامِ فِيمَا يَرْتَبِطُ بِأُمُورِ الدِّينِ.

لَاسِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ[1].

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْزِنَ لِسَانَهُ، وَيَحْفَظَ زَمَانَهُ، وَأَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْحَقِّ؛ فَلَا تَضِيعُ أَوْقَاتُهُ هَبَاءً وَيَذْهَبُ عُمُرُهُ سُدًىٰ، وَالْمُوَفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ ﷻ.

●●●

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص١٦٦-١٧٩) بِاخْتِصَارٍ.

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٦- تَرْكُ الْعِشْرَةِ مَا أَمْكَنَ، وَاخْتِيَارُ الصَّاحِبِ وَالرَّفِيقِ

تَنَازَعَ النَّاسُ قَدِيمًا فِي مَسْأَلَةِ الْخُلْطَةِ وَالْعُزْلَةِ، فَاخْتَارَ قَوْمٌ جَانِبَ الْخُلْطَةِ مُطْلَقًا وَرَجَّحُوهُ، وَاخْتَارَ قَوْمٌ جَانِبَ الْعُزْلَةِ مُطْلَقًا وَرَجَّحُوهُ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا.

وَحَسَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ الْأَمْرَ وَفَصَلَ فِي النِّزَاعِ، فَقَالَ: «هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا، إِمَّا نِزَاعًا كُلِّيًّا وَإِمَّا حَالِيًّا، فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ «الْخُلْطَةَ» تَارَةً تَكُونُ وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِالْمُخَالَطَةِ تَارَةً، وَبِالِانْفِرَادِ تَارَةً.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنَّ «الْمُخَالَطَةَ» إِنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَهِيَ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، فَالِاخْتِلَاطُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي جِنْسِ الْعِبَادَاتِ، كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَصَلَاةِ الْكُسُوفِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَكَذَلِكَ الِاخْتِلَاطُ بِهِمْ فِي الْحَجِّ وَفِي غَزْوِ الْكُفَّارِ وَالْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ، وَإِنْ كَانَ أَئِمَّةُ ذَلِكَ فُجَّارًا، وَإِنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ فُجَّارٌ، وَكَذَلِكَ الِاجْتِمَاعُ الَّذِي يَزْدَادُ الْعَبْدُ بِهِ إِيمَانًا: إِمَّا لِانْتِفَاعِهِ بِهِ، وَإِمَّا لِنَفْعِهِ لَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَوْقَاتٍ يَنْفَرِدُ بِهَا بِنَفْسِهِ فِي دُعَائِهِ وَذِكْرِهِ وَصَلَاتِهِ وَتَفَكُّرِهِ وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِ قَلْبِهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، فَهَذِهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ انْفِرَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِمَّا فِي بَيْتِهِ كَمَا قَالَ طَاوُوسُ: «نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ وَلِسَانَهُ»، وَإِمَّا فِي غَيْرِ بَيْتِهِ.

فَاخْتِيَارُ الْمُخَالَطَةِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَاخْتِيَارُ الِانْفِرَادِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَأَمَّا مِقْدَارُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَمَا هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، فَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ نَظَرٍ خَاصٍّ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَالْأَفْضَلُ يَتَنَوَّعُ «تَارَةً» بِحَسَبِ أَجْنَاسِ الْعِبَادَاتِ كَمَا أَنَّ جِنْسَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الْقِرَاءَةِ، وَجِنْسَ الْقِرَاءَةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الذِّكْرِ، وَجِنْسَ الذِّكْرِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ كَمَا أَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ بَعْدَ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الصَّلَاةِ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ كَمَا أَنَّ الذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الْقِرَاءَةِ وَكَذَلِكَ الذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ فِي الطَّوَافِ مَشْرُوعٌ بِالِاتِّفَاقِ وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ فِي الطَّوَافِ فَفِيهَا نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ الْأَمْكِنَةِ: كَمَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَعِنْدَ الْجِمَارِ وَعِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ هُوَ الذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ دُونَ الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ

لِلْوَارِدِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ لِلْمُقِيمِينَ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ مَرْتَبَةِ جِنْسِ الْعِبَادَةِ: فَالْجِهَادُ لِلرِّجَالِ أَفْضَلُ مِنْ الْحَجِّ وَأَمَّا النِّسَاءُ فَجِهَادُهُنَّ الْحَجُّ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَزَوِّجَةُ طَاعَتُهَا لِزَوْجِهَا أَفْضَلُ مِنْ طَاعَتِهَا لِأَبَوَيْهَا؛ بِخِلَافِ الْأَيِّمِ[1] فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِطَاعَةِ أَبَوَيْهَا.

وَ«تَارَةً» يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَعَجْزِهِ: فَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ جِنْسُ الْمَعْجُوزِ عَنْهُ أَفْضَلَ وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ يَغْلُو فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَيَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَرَىٰ أَنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ أَفْضَلَ فِي حَقِّهِ لِمُنَاسَبَةٍ لَهُ وَلِكَوْنِهِ أَنْفَعَ لِقَلْبِهِ وَأَطْوَعَ لِرَبِّهِ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَفْضَلَ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَيَأْمُرُهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وَاللهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ وَهَدْيًا لَهُمْ يَأْمُرُ كُلَّ إنْسَانٍ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا لِلْمُسْلِمِينَ يَقْصِدُ لِكُلِّ إنْسَانٍ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ»[2].

وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ يُخَالِطُونَ النَّاسَ وَيُعَلِّمُونَهُمْ، وَهُمْ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ أَزْمَانِهِمْ أَنْ تَضِيعَ هَدَرًا أَوْ تَذْهَبَ سُدًىٰ، وَكَانَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: أَصْبَر

(١) **الْأَيِّمُ مِنَ النِّسَاءِ**: الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا بِكْرًا كَانَتْ أَوْ ثَيِّبًا، **وَمِنَ الرِّجَالِ**: الَّذِي لَا امْرَأَةَ لَهُ: وَالْجَمْعُ أَيَامَىٰ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

(٢) «مَجْمُوعُ فَتَاوَىٰ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ» (١٠/ ٤٢٥).

النَّاسِ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ مَعَ كَوْنِهِ إِمَامَ الدُّنْيَا فِي وَقْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَرَجَ أَبِي إِلَىٰ طَرَسُوسَ مَاشِيًا، وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مَاشِيًا، وَكَانَ أَصْبَرَ النَّاسِ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ، وَبِشْرٌ -هُوَ ابْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي الزَّاهِدُ الْمَشْهُورُ- فِيمَا كَانَ فِيهِ لَمْ يَكُنْ يَصْبِرُ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ، كَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ ذَا وَإِلَىٰ ذَا»(١).

فَالْعِشْرَةُ وَالْمُخَالَطَةُ لَا تَكُونُ لِمَيِّتِ الْقَلْبِ فَهُوَ قَاطِعُ الطَّرِيقِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ يَزِيدُ حَالُهُ فِي حَالِكَ وَعَمَلُهُ فِي عَمَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَيِّتُ الْقَلْبِ يُوحِشُكَ، فَاسْتَأْنِسْ بِغَيْبَتِهِ مَا أَمْكَنَكَ، فَإِنَّكَ لَا يُوحِشُكَ إِلَّا حُضُورُهُ عِنْدَكَ، فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِ فَأَعْطِهِ ظَاهِرَكَ، وَتَرَحَّلْ عَنْهُ بِقَلْبِكَ، وَفَارِقْهُ بِسِرِّكَ، وَلَا تُشْغَلَ بِهِ عَمَّا هُوَ أَوْلَىٰ بِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَسْرَةَ كُلَّ الْحَسْرَةِ الِاشْتِغَالُ بِمَنْ لَا يَجُرُّ عَلَيْكَ الِاشْتِغَالُ بِهِ إِلَّا فَوْتَ نَصِيبِكَ وَحَظِّكَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَانْقِطَاعَكَ عَنْهُ، وَضَيَاعَ وَقْتِكَ عَلَيْكَ، وَضَعْفَ عَزِيمَتِكَ، وَتَفَرُّقَ هَمِّكَ.

فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهَذَا -وَلَابُدَّ لَكَ مِنْهُ- فَعَامِلِ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهِ، وَاحْتَسِبْ عَلَيْهِ مَا أَمْكَنَكَ، وَتَقَرَّبْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَرْضَاتِكَ فِيهِ، وَاجْعَلِ اجْتِمَاعَكَ بِهِ مَتْجَرًا لَكَ لَا تَجْعَلْهُ خَسَارَةً، وَكُنْ مَعَهُ كَرَجُلٍ سَائِرٍ فِي طَرِيقِهِ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ وَقَفَهُ عَنْ سَيْرِهِ،

---

(١) «تَرْجَمَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» (ص١٨).

فَاجْتَهِدْ أَنْ تَأْخُذَهُ مَعَكَ وَتَسِيرَ بِهِ فَتَحْمِلَهُ وَلَا يَحْمِلَكَ، فَإِنْ أَبَىٰ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَيْرِهِ مَطْمَعٌ فَلَا تَقِفْ مَعَهُ وَدَعْهُ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ قَاطِعُ الطَّرِيقِ وَلَوْ كَانَ مَنْ كَانَ، فَانْجُ بِقَلْبِكَ، وَضِنَّ بِيَوْمِكَ وَلَيْلَتِكَ وَلَا تَغْرُبْ عَلَيْكَ الشَّمْسُ قَبْلَ وُصُولِ الْمَنْزِلَةِ فَتُؤْخَذَ»(١).

«فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتْرُكَ الْعِشْرَةَ فَإِنَّ تَرْكَهَا مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَلَاسِيَّمَا لِغَيْرِ الْجِنْسِ، وَخُصُوصًا لِمَنْ كَثُرَ لَعِبُهُ وَقَلَّتْ فِكْرَتُهُ، فَإِنَّ الطِّبَاعَ سَرَّاقَةٌ.

وَآفَةُ الْعِشْرَةِ ضَيَاعُ الْعُمُرِ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، وَذَهَابُ الْمَالِ وَالْعِرْضِ إِنْ كَانَتْ لِغَيْرِ أَهْلِهِ.

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يُخَالِطَ إِلَّا مَنْ يُفِيدُهُ أَوْ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَإِنْ تَعَرَّضَ لَصُحبَتِهِ مَنْ يَضِيعُ عُمُرُهُ مَعَهُ، وَلَا يُفِيدُهُ، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَلَا يُعِينُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ، فَلْيَتَلَطَّفْ فِي قَطْعِ عِشْرَتِهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ قَبْلَ تَمَكُّنِهَا، فَإِنَّ الْأُمُورَ إِذَا تَمَكَّنَتْ عَسُرَتْ إِزَالَتُهَا، وَمِنَ الْجَارِي عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْفُقَهَاءِ: الدَّفْعُ أَسْهَلُ مِنَ الرَّفْعِ.

فَإِنِ احْتَاجَ إِلَىٰ مَنْ يَصْحَبُهُ، فَلْيَكُنْ صَاحِبًا صَالِحًا دَيِّنًا تَقِيًّا وَرِعًا ذَكِيًّا كَثِيرَ الْخَيْرِ قَلِيلَ الشَّرِّ، حَسَنَ الْمُدَارَاةِ قَلِيلَ الْمُمَارَاةِ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ،

---

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٤٥).

وَإِنِ احْتَاجَ وَاسَاهُ، وَإِنْ ضَجِرَ صَبَّرَهُ»(١).

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلصُّحْبَةِ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَابُدَّ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمَصْحُوبُ بِصِفَاتٍ وَخِصَالٍ يُرْغَبُ بِسَبَبِهَا فِي صُحْبَتِهِ».

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيمَنْ تُؤْثَرُ صُحْبَتُه خَمْسُ خِصَالٍ:

أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، حَسَنَ الْخُلُقِ، غَيْرَ فَاسِقٍ، وَلَا مُبْتَدِعٍ، وَلَا حَرِيصٍ عَلَىٰ الدُّنْيَا.

أَمَّا الْعَقْلُ: فَهُوَ رَأْسُ الْمَالِ، وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ الْأَحْمَقِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَنَعْنِي بِالْعَاقِلِ الَّذِي يَفْهَمُ الْأُمُورَ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِمَّا بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ إِذَا أُفْهِمَ فَهِمَ.

وَأَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ: فَلَابُدَّ مِنْهُ، إِذْ رُبَّ عَاقِلٍ يَغْلِبُهُ غَضَبٌ أَوْ شَهْوَةٌ فَيُطِيعُ هَوَاهُ، فَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَتِهِ.

وَأَمَّا الْفَاسِقُ: فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ اللهَ، وَمَنْ لَا يَخَافُ اللهَ تَعَالَىٰ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُ، وَلَا يُوثَقُ بِهِ.

وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ: فَيُخَافُ مِنْ صُحْبَتِهِ بِسِرَايَةِ بِدْعَتِهِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ تَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ،

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٣).

فَإِنَّهُمْ زِينَةٌ فِي الرَّخَاءِ وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ، وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَىٰ أَحْسَنِهِ حَتَّىٰ يَجِيئَكَ مَا يَقْلِيكَ مِنْهُ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ، وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَىٰ سِرِّكَ، وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ.

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ: بِئْسَ الصَّدِيقُ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: اذْكُرْنِي فِي دُعَائِكَ، وَأَنْ تَعِيشَ مَعَهُ بِالْمُدَارَاةِ أَوْ تَحْتَاجَ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ لِأَصْحَابِهِ: أَيُدْخِلُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي كُمِّ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا يُرِيدُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَلَسْتُمْ بِإِخْوَانٍ كَمَا تَزْعُمُونَ.

وَلِلْأَخِ عَلَىٰ أَخِيهِ حُقُوقٌ بَيَانُهَا:

الْحَقُّ الْأَوَّلُ: قَضَاءُ الْحَاجَاتِ وَالْقِيَامُ بِهَا، وَذَلِكَ دَرَجَاتٌ:

أَدْنَاهَا: الْقِيَامُ بِالْحَاجَةِ عِنْدَ السُّؤَالِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَكِنْ مَعَ الْبَشَاشَةِ وَالِاسْتِبْشَارِ.

وَأَوْسَطُهَا: الْقِيَامُ بِالْحَوَائِجِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ.

وَأَعْلَاهَا: تَقْدِيمُ حَوَائِجِهِ عَلَىٰ حَوَائِجِ نَفْسِهِ.

الْحَقُّ الثَّانِي: عَلَىٰ اللِّسَانِ بِالسُّكُوتِ تَارَةً وَالْكَلَامِ أُخْرَىٰ.

أَمَّا السُّكُوتُ: فَهُوَ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ ذِكْرِ عُيُوبِهِ فِي حُضُورِهِ وَغَيْبَتِهِ، وَعَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِ، وَمُمَارَاتِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ، وَعَنِ السُّؤَالِ عَمَّا يَكْرَهُ ظُهُورُهُ مِنْ أَحْوَالِهِ.

وَلَا يَسْأَلُ إِذَا لَقِيَهُ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ فَرُبَّمَا لَا يُرِيدُ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ، وَأَنْ يَكْتُمَ سِرَّهُ وَلَوْ بَعْدَ الْقَطِيعَةِ، وَلَا يَقْدَحَ فِي أَحِبَّائِهِ وَأَهْلِهِ، وَلَا يُبْلِغُهُ قَدْحَ غَيْرِهِ فِيهِ.

الْحَقُّ الثَّالِثُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْكُتَ عَنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ، إِلَّا إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِ النُّطْقُ فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ وَلَمْ يَجِدْ رُخْصَةً فِي السُّكُوتِ، فَإِنَّ مُوَاجَهَتَهُ بِذَلِكَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ فِي الْمَعْنَىٰ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ طَلَبْتَ مُنَزَّهًا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ لَمْ تَجِدْ، وَمَنْ غَلَبَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَىٰ مَسَاوِئِهِ فَهُوَ الْغَايَةُ.

وَمَتَىٰ الْتَمَسْتَ مِنَ الْإِنْصَافِ مَا لَا تَسْمَحُ بِهِ دَخَلْتَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢- ٣].

وَاعْلَمْ أَنَّ أَشَدَّ الْأَسْبَابِ إِثَارَةً لِلْحِقْدِ وَالْحَسَدِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُمَارَاةُ، وَلَا يَبْعَثُ عَلَيْهَا إِلَّا إِظْهَارُ التَّمَيُّزِ بِزِيَادَةِ الْفَضْلِ وَالْعَقْلِ وَاحْتِقَارِ الْمَرْدُودِ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَارَىٰ أَخَاهُ، فَقَدْ نَسَبَهُ إِلَىٰ الْجَهْلِ وَالْحُمْقِ، أَوْ إِلَىٰ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ عَنْ فَهْمِ الشَّيْءِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ اسْتِحْقَارٌ، وَهُوَ يُوغِرُ الصَّدْرَ وَيُوجِبُ الْمُعَادَاةَ وَهُوَ ضِدُّ الْأُخُوَّةِ.

الْحَقُّ الرَّابِعُ: عَلَىٰ اللِّسَانِ بِالنُّطْقِ، فَإِنَّ الْأُخُوَّةَ كَمَا تَقْتَضِي السُّكُوتَ عَنِ الْمَكْرُوهِ، تَقْتَضِي النُّطْقَ بِالْمَحْبُوبِ، بَلْ هُوَ أَخَصُّ بِالْأُخُوَّةِ، لِأَنَّ مَنْ قَنَعَ بِالسُّكُوتِ صَحِبَ أَهْلَ الْقُبُورِ، وَإِنَّمَا يُرَادُ الْإِخْوَانُ لِيُسْتَفَادَ مِنْهُمْ لَا

لِيُتَخَلَّصَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ السُّكُوتَ مَعْنَاهُ كَفُّ الْأَذَىٰ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ بِلِسَانِهِ، وَيَتَفَقَّدَهُ فِي أَحْوَالِهِ، وَيَسْأَلَ عَمَّا عَرَضَ لَهُ، وَيُظْهِرَ شُغْلَ قَلْبِهِ بِسَبَبِهِ، وَيُبْدِيَ السُّرُورَ بِمَا يُسَرُّ بِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا يَعْرِفُهُ مِنْ مَحَاسِنِ أَحْوَالِهِ عِنْدَ مَنْ يُؤْثِرُ الثَّنَاءَ عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَتَّىٰ فِي خُلُقِهِ وَعَقْلِهِ وَهَيْئَتِهِ وَخَطِّهِ وَتَصْنِيفِهِ مَا يَفْرَحُ بِهِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا كَذِبٍ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تُبْلِغَهُ ثَنَاءَ مَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ مَعَ إِظْهَارِ الْفَرَحِ بِهِ، فَإِنَّ إِخْفَاءَ ذَلِكَ مَحْضُ الْحَسَدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمُ وَالنَّصِيحَةُ، فَلَيْسَتْ حَاجَةُ أَخِيكَ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِأَقَلَّ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَىٰ الْمَالِ، وَإِنْ كُنْتَ غَنِيًّا بِالْعِلْمِ فَوَاسِهِ وَأَرْشِدْهُ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْحُكَ إِيَّاهُ سِرًّا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَالنَّصِيحَةِ الْإِعْلَانُ وَالْإِسْرَارُ، كَمَا أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُدَارَاةِ وَالْمُدَاهَنَةِ بِالْغَرَضِ الْبَاعِثِ عَلَىٰ الْإِغْضَاءِ، فَإِنْ أَغْضَيْتَ لِسَلَامَةِ دِينِكَ وَلِمَا تَرَىٰ فِيهِ إِصْلَاحَ أَخِيكَ بِالْإِغْضَاءِ، فَأَنْتَ مُدَارٍ، وَإِنْ أَغْضَيْتَ لِحَظِّ نَفْسِكَ وَاجْتِلَابِ شَهَوَاتِكَ وَسَلَامَةِ جَاهِكَ فَأَنْتَ مُدَاهِنٌ.

الْحَقُّ الْخَامِسُ: الدُّعَاءُ لِلْأَخِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ بِكُلِّ مَا تَدْعُو بِهِ لِنَفْسِكَ، وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ**

الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ؛ عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ».

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَدْعُو لِخَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِهِ يُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ.

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ يَدْعُو فِي السَّحَرِ لِسِتَّةِ نَفَرٍ.

الْحَقُّ السَّادِسُ: الْوَفَاءُ وَالْإِخْلَاصُ.

وَمَعْنَى الْوَفَاءِ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحُبِّ إِلَى الْمَوْتِ، وَبَعْدَ مَوْتِ الْأَخِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَمِنَ الْوَفَاءِ أَلَّا يَتَغَيَّرَ عَلَى أَخِيهِ فِي التَّوَاضُعِ، وَإِنِ ارْتَفَعَ شَأْنُهُ وَاتَّسَعَتْ وِلَايَتُهُ، وَعَظُمَ جَاهُهُ.

وَمِنَ الْوَفَاءِ أَلَّا يَسْمَعَ بَلَاغَاتِ النَّاسِ عَلَى صَدِيقِهِ، وَلَا يُصَادِقُ عَدُوَّ صَدِيقِهِ.

الْحَقُّ السَّابِعِ: التَّخْفِيفُ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ.

وَذَلِكَ أَلَّا يُكَلِّفَ أَخَاهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ، بَلْ يُرَوِّحُ سره عَنْ مَهَمَّاتِهِ وَحَاجَاتِهِ، وَلَا يَسْتَمِدُّ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ، وَلَا يُكَلِّفُهُ التَّفَقُّدَ لِأَحْوَالِهِ وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِ وَالتَّوَاضُعَ لَهُ، بَلْ يَكُونُ قَصْدُهُ بِمَحَبَّتِهِ اللهَ وَحْدَهُ، وَتَمَامُ التَّخْفِيفِ طَيُّ بِسَاطِ الِاحْتِشَامِ حَتَّى لَا يَسْتَحِيي مِنْهُ فِيمَا لَا يَسْتَحِيي فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَثْقَلُ إِخْوَانِي عَلَيَّ مَنْ يَتَكَلَّفُ لِي وَأَتَحَفَّظُ مِنْهُ،

وَأَخَفُّهُمْ عَلَي قَلْبِي مَنْ أَكُونُ مَعَهُ كَمَا أَكُونُ وَحْدِي(١).

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ اجْتِنَابِ مَنْ لَا تَلْزَمُهُ خُلْطَتُهُ شَرْعًا، حَتَّىٰ يَحْفَظَ زَمَانَهُ، وَيَرْعَىٰ قَلْبَهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ الصَّاحِبَ الَّذِي يُعِينُهُ عَلَىٰ أَمْرِ دِينِهِ وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ قَالَ الْخَوَارِزْمِيُّ:

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... وَالْجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

◉ ◉ ◉

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص١٢٦-١٣٢) بِتَصَرُّفٍ.

٧- اخْتِيَارُ الْعِلْمِ وَالشَّيْخِ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَ شَرَفَ الْعِلْمِ تَابِعٌ لِشَرَفِ مَعْلُومِهِ، لِوُثُوقِ النَّفْسِ بِأَدِلَّةِ وُجُودِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وَلِشَدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَعِظَمِ النَّفْعِ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَجَلَّ مَعْلُومٍ وَأَعْظَمَهُ وَأَكْبَرَهُ فَهُو اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَقَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، الْمَوْصُوفُ بِالْكَمَالِ كُلِّهِ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وَعَنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَتَشْبِيهٍ فِي كَمَالِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ أَجَلُّ الْعُلُومِ وَأَفْضَلُهَا، وَنِسْبَتُهُ إِلَىٰ سَائِرِ الْعُلُومِ كَنِسْبَةِ مَعْلُومِهِ إِلَىٰ سَائِرِ الْمَعْلُومَاتِ، وَكَما أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ أَجَلُّ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُهَا فَهُوَ أَصْلُهَا كُلِّهَا، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فَهُوَ مُسْتَنِدٌ فِي وُجُودِهِ إِلَىٰ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ فِي تَحْقِيقِ ذَاتِهِ، وَكُلُّ عِلْمٍ فَهُوَ تَابِعٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مُفْتَقِرٌ فِي تَحْقِيقِ ذَاتِهِ إِلَيْهِ، فَالْعِلْمُ بِهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَمُوجِدُهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ كَمَالَ الْعِلْمِ بِالسَّبَبِ التَّامِّ، وَكَوْنَهُ تَامًّا يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمُسَبِّبِهِ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلَّةِ التَّامَّةِ وَمَعْرِفَةَ كَوْنِهَا عِلَّةً يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمَعْلُولِهِ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ فَهُوَ مُسْتَنِدٌ فِي وُجُودِهِ إِلَيْهِ اسْتِنَادَ الْمَصْنُوعِ

إِلَىٰ صَانِعِهِ، وَالْمَفْعُولِ إِلَىٰ فَاعِلِهِ.

فَالْعِلْمُ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمَا سِوَاهُ، فَهُوَ فِي ذَاتِهِ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ وَمَنْشَؤُهُ؛ فَمَنْ عَرَفَ اللهَ عَرَفَ مَا سِوَاهُ، وَمَنْ جَهِلَ رَبَّهُ فَهُوَ لِمَا سِوَاهُ أَجْهَلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْآيَةَ تَجِدْ تَحْتَهَا مَعْنًىٰ شَرِيفًا عَظِيمًا، وَهُوَ أَنَّ مَنْ نَسِيَ رَبَّهُ أَنْسَاهُ ذَاتَهُ وَنَفْسَهُ، فَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ وَلَا مَصَالِحَهُ، بَلْ نَسِيَ مَا بِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَصَارَ مُعَطَّلًا مُهْمَلًا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، بَلْ رُبَّما كَانَتِ الْأَنْعَامُ أَخْبرَ بِمَصَالِحِهَا مِنْهُ لِبَقَائِهَا عَلَىٰ هُدَاهَا التَّامِّ الَّذِي أَعْطَاهَا إِيَّاهُ خَالِقُهَا، وَأَمَّا هَذَا فَخَرَجَ عَنْ فِطْرَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَنَسِيَ رَبَّهُ، فَأَنْسَاهُ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ وَتَزْكُو بِهِ وَتَسْعَدُ بِهِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَانْفَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَقَلْبُهُ، فَلَا الْتِفَاتَ لَهُ إِلَىٰ مَصَالِحِهِ وَكَمَالِهِ وَمَا تَزْكُو بِهِ نَفْسُهُ وَقَلْبُهُ، بَلْ هُوَ مُشَتَّتُ الْقَلْبِ مُضَيَّعُهُ، مُنْفَرِطُ الْأَمْرِ حَيْرَانُ، لَا يَهْتَدِي سَبِيلًا.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعِلْمَ بِاللهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ، وَهُوَ أَصْلُ عِلْمِ الْعَبْدِ بِسَعَادَتِهِ وَكَمَالِهِ وَمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَالْجَهْلُ بِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْجَهْلِ بِنَفْسِهِ وَمَصَالِحِهَا وَكَمَالِهَا وَمَا تَزْكُو بِهِ وَتُفْلِحُ بِهِ، فَالْعِلْمُ بِهِ سَعَادَةُ الْعَبْدِ، وَالْجَهْلُ بِهِ أَصْلُ شَقَاوَتِهِ.

وَلَا شَيْءَ أَطْيَبُ لِلْعَبْدِ وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَهْنَأُ وَلَا أَنْعَمُ لِقَلْبِهِ وَعَيْشِهِ مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِيهِ وَدَوَامِ ذِكْرِهِ، وَالسَّعْيِ فِي مَرْضَاتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي لَا كَمَالَ لِلْعَبْدِ بِدُونِهِ، وَلَهُ خُلِقَ الْخَلْقُ، وَلِأَجْلِهِ نَزَلَ الْوَحْيُ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَقَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَوُجِدَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَلِأَجْلِهِ شُرِعَتِ الشَّرَائِعُ، وَوُضِعَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَوَجَبَ حَجُّهُ عَلَىٰ النَّاسِ إِقَامَةً لِذِكْرِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَلِأَجْلِ هَذَا أُمِرَ بِالْجِهَادِ، وَضُرِبَتْ أَعْنَاقُ مَنْ أَبَاهُ وَآثَرَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ، وَجُعِلَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَارُ الْهَوَانِ خَالِدًا مُخَلَّدًا.

وَعَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ، وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَهُوَ قُطْبُ رَحَىٰ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، الَّذِي مَدَارُهُمَا عَلَيْهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الدُّخُولِ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَابِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنِ الشُّعُورِ بِهِ، وَأَعْرَفُ الْخَلْقِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ حُبًّا لَهُ، فَكُلُّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا زَهِدَ فِيهِمْ، فَالْعِلْمُ يَفْتَحُ هَذَا الْبَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ سِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ»[١].

قُلْتُ: فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْتَارَ الْبَدْءَ بِالَّذِي هُوَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَآجِلِهِ، -أَعْنِي: الْعِلْمَ بِاللهِ ﷻ؛ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ- فَإِذَا انْضَبَطَ لَهُ هَذَا الْمِقْدَارُ مِنْ عِلْمٍ بِاللهِ ﷻ، كَانَ عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِعِلْمَيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ نَهْجِ صَدْرِ الْأُمَّةِ الْأَوَّلِ رضي الله عنهم، حَتَّىٰ يَصِحَّ لَهُ التَّلَقِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٣١١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كَانَ التَّلَقِّي عَنْهُ ﷺ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: نَوْعٍ بِوَسَاطَةٍ وَنَوْعٍ بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ، وَكَانَ التَّلَقِّي بِلَا وَسَاطَةٍ حَظَّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَازُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَىٰ الْأَمَدِ، فَلَا طَمَعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي اللَّحَاقِ، وَلَكِنَّ الْمُبرِّزَ مَنِ اتَّبَعَ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، وَاقْتَفَىٰ مِنْهَاجَهُمُ الْقَوِيمَ، وَالْمُتَخَلِّفَ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَذَلِكَ الْمُنْقَطِعُ التَّائِهُ فِي بَيْدَاءِ الْمَهَالِكِ وَالضَّلَالِ فَأَيُّ خَصْلَةِ خَيْرٍ لَمْ يَسْبِقُوا إِلَيْهَا؟! وَأَيُّ خُطَّةِ رُشْدٍ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا؟!

تَاللهِ لَقَدْ وَرَدُوا رَأْسَ الْمَاءِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ عَذْبًا صَافِيًا زُلَالًا، وَأَيَّدُوا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَدَعُوا لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقَالًا، فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِعَدْلِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، وَالْقُرَىٰ بِالْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَأَلْقَوْا إِلَىٰ التَّابِعِينَ مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ خَالِصًا صَافِيًا، وَكَانَ سَنَدُهُمْ فِيهِ عَنْ نَبِيِّهِمْ ﷺ عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَنَدًا صَحِيحًا عَالِيًا، وَقَالُوا: هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إِلَيْنَا وَقَدْ عَهِدْنَا إِلَيْكُمْ، وَهَذِهِ وَصِيَّةُ رَبِّنَا وَفَرْضُهُ عَلَيْنَا وَهِيَ وَصِيَّتُهُ وَفَرْضُهُ عَلَيْكُمْ.

فَجَرَىٰ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمُ الْقَوِيمِ، وَاقْتَفَوْا عَلَىٰ آثَارِهِمْ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ سَلَكَ تَابِعُو التَّابِعِينَ هَذَا الْمَسْلَكَ الرَّشِيدَ، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، وَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ قَبْلَهُمْ كَمَا قَالَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣- ١٤].

ثُمَّ جَاءَتِ الْأَئِمَّةُ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمُفَضَّلِ فِي إِحْدَىٰ الرِّوَايَتَيْنِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَسَلَكُوا عَلَىٰ آثَارِهِمُ اقْتِصَاصًا، وَاقْتَبَسُوا هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مِشْكَاتِهِمُ اقْتِبَاسًا، وَكَانَ دِينُ اللهِ سُبْحَانَهُ أَجَلَّ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهِ رَأْيًا مَعْقُولًا أَوْ تَقْلِيدًا أَوْ قِيَاسًا، فَطَارَ لَهُمُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، ثُمَّ سَارَ عَلَىٰ آثَارِهِمُ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَدَرَجَ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمُ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ، زَاهِدِينَ فِي التَّعَقُّبِ لِلرِّجَالِ، وَاقِفِينَ مَعَ الْحُجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، يَسِيرُونَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَ سَارَتْ رَكَائِبُهُ، وَيَسْتَقِلُّونَ مَعَ الصَّوَابِ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهُ، إِذَا بَدَا لَهُمُ الدَّلِيلُ بِأُخْذَتِهِ[1] طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا[2]، وَإِذَا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ إِلَىٰ أَمْرٍ انْتَدَبُوا إِلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا قَالَ بُرْهَانًا[3]،

---

(١) **الْأُخْذَةُ**: رُقْيَةٌ كَالسِّحْرِ، وَهِيَ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الدَّلِيلَ لَهُ عِنْدَهُمْ فِعْلٌ، كَفِعْلِ السِّحْرِ، فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا.

(٢) **زَرَافَاتٌ**: جَمَاعَاتٌ. وُحْدَانًا: جَمْعُ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَىٰ: ذَهَبُوا إِلَىٰ الدَّلِيلِ جَمِيعًا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ:

قَـوْمٌ إِذَا الشَّـرُّ أَبْـدَىٰ نَاجِذَيْـهِ لَهُـمْ ... طَـارُوا إِلَيْـهِ زَرَافَـاتٍ وَوُحْـدَانَا

(٣) مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ صَاحِبِ الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ:

لَا يَسْـأَلُونَ أَخَـاهُمْ حِـينَ يَنْـدُبُهُمْ ... فِـي النَّائِبَـاتِ عَلَـىٰ مَـا قَـالَ بُرْهَانَـا

=

وَنُصُوصُهُ أَجَلُّ فِي صُدُورِهِمْ وَأَعْظَمُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهَا قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ يُعَارِضُوهَا بِرَأْيٍ أَوْ قِيَاسٍ»[١].

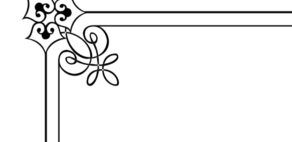
◉ ◉ ◉

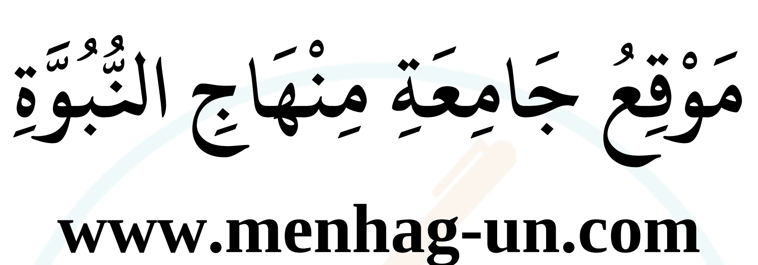
=

انْظُرْ: «شَرْحَ الْمَرْزُوقِيِّ عَلَىٰ دِيوَانِ الْحَمَاسَةِ» (١/ ٢٧).

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (١/ ٥).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الأَدَبِ السَّابِعِ: اخْتِيَارُ الْعِلْمِ وَالشَّيْخِ

وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ: فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُصَرِّفَ هَمَّهُ، وَيُوَجِّهَ هِمَّتَهُ إِلَىٰ عُلُومِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَالْعِلْمُ بِهِمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَقُّ، وَالْجَهْلُ بِغَيْرِهِمَا جَهْلٌ لَا يَضُرُّ، وَهَذِهِ نَصِيحَةُ مُشْفِقٍ رَفِيقٍ يَبْعَثُهَا إِلَيْكَ فِي ظِلَالِ الشَّوْقِ، وَفِي غُلَالَةٍ مِنَ الْوَشْيِ، وَفِي أَنَاقَةِ لَفْظٍ، وَأُخْذَةِ سَحَرٍ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ نَاصِحًا:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُرِيدُ نَجَاتَهُ ... اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ
كُنْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَمَسِّكًا ... بِالْوَحْيِ لَا بِزَخَارِفِ الْهَذَيَانِ
وَانْصُرْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ
وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ... ضَرْبَ الْمُجَاهِدِ فَوْقَ كُلِّ بَنَانِ
وَاحْمِلْ بِعَزْمِ الصِّدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ ... مُتَجَرِّدٍ لِلَّهِ غَيْرِ جَبَانِ
وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْهُدَىٰ ... فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ
وَاجْعَلْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي ... ثَبَتَتْ سِلَاحَكَ ثُمَّ صِحْ بِجَنَانِ
مَنْ ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نَفْسَهُ ... أَوْ مَنْ يُسَابِقُ يَبْدُ فِي الْمَيْدَانِ
وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ وَلَا تَخَفْ ... مِنْ قِلَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ

فَـــاللهُ نَاصِـــرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ وَاللهُ كَـــافٍ عَبْـــدَهُ بِأَمَـــانِ

وَتعَـرَّ مِـنْ ثَـوْبَيْنِ مَـنْ يَلْبَسْـهُمَا يَلْقَـىٰ الـرَّدَىٰ بِمَذَمَّـةٍ وَهَـوَانِ

ثَـوْبٌ مِـنَ الْجَهْـلِ الْمُرَكَّـبِ فَوْقَـهُ ثَـوْبُ التَّعَصُّـبِ بِئْسَـتِ الثَّوْبَـانِ

وَتَحَـلَّ بِالْإِنْصَـافِ أَفْخَـرِ حُلَّـةٍ زِينَـتْ بِهَـا الْأَعْطَـافُ وَالْكَتِفَـانِ

وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ نُصْـحِ الرَّسُـولِ فَحَبَّـذَا الْأَمْـرَانِ

وَتَمَسَّـــكَنَّ بِحَبْلِـــهِ وَبِوَحْيِـــهِ وَتَـــوَكَّلَنَّ حَقِيقَـــةَ الـــتُّكْلَانِ

وَرَحِمَ اللهُ الشَّافِعِيَّ الْإِمَامَ إِذْ يَقُولُ:

كُـلُّ الْعُلُـومِ سِـوَىٰ الْقُـرْآنِ مشْـغَلَةٌ إِلَّا الْحَـدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْـهَ فِـي الـدِّينِ

الْعِلْـمُ مَـا كَـانَ فِيـهِ قَـالَ حَـدَّثَنَا وَمَـا سِـوَىٰ ذَاكَ وَسْـوَاسُ الشَّـيَاطِينِ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

الْعِلْـــمُ قَـــالَ اللهُ قَـــالَ رَسُـــولُهُ قَـالَ الصَّـحَابَةُ هُـمْ أُولُـو الْعِرفَـانِ

مَـا الْعِلْـمُ نَصْـبَكَ لِلْخِلَافِ سَـفَاهَةً بَـيْنَ الرَّسُـولِ وَبَـيْنَ رَأْيِ فُـلَانِ

فَمَنْ رَامَ الْعِلْمَ بَعِيدًا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَدْ رَامَ الْمُسْتَحِيلَ، وَمَنْ أَخَذَ بِغَيْرِهِمَا اسْتِغْنَاءً عَنْهُمَا فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ، فَهُمَا الْبُرْءُ مِنَ الْجَهْلِ وَدَوَاؤُهُ، وَهُمَا الْعَافِيَةُ مِنَ الْعِيِّ وَشِفَاؤُهُ.

وَرَحِمَ اللهُ الْعَلَّامَةَ ابْنَ الْقَيِّمِ إِذْ يَقُولُ:

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الْإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
وَالْكُلُّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ
وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الْهَذَيَانِ

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ
تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلًا ... كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الْأُصُولِ؟!

فَأَصْلُ الْعِلْمِ وَمَعْدِنُهُ كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَمَا جَاءَ فِي الْوَحْيِ الثَّانِي وَهِيَ سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ إِلَيْهِمَا، وَالْحِرْصَ الْحِرْصَ عَلَيْهِمَا، فَهُمَا وَاحَةُ الْأَمْنِ وَمَلَاذُ الرَّاحَةِ، وَهُمَا الظِّلُّ الظَّلِيلُ، وَالْفَوْزُ الْجَمِيلُ.

وَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي اخْتِيَارُ الشَّيْخِ «فَيَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ الْأَعْلَمَ وَالْأَوْرَعَ وَالْأَسَنَّ كَمَا اخْتَارَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَّادَ بْنَ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَعْدَ التَّأَمُّلِ

وَالتَّفَكُّرِ، وَقَالَ: وَجَدْتُهُ شَيْخًا وَقُورًا حَلِيمًا صَبُورًا، وَقَالَ: ثَبَتُّ عِنْدَ حَمَّادِ بْنِ سُلَيْمَانَ فَنَبَتُّ»(١).

وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي مُقَدِّمَةِ «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»(٢).

وَقَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «يَنْبَغِي لِلطَّالِبِ أَنْ يُقَدِّمَ النَّظَرَ، وَيَسْتَخِيرَ اللهَ فِيمَنْ يَأْخُذُ الْعِلْمَ عَنْهُ، وَيَكْتَسِبُ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ مِنْهُ، وَلْيَكُنْ إِنْ أَمْكَنَ مِمَّنْ كَمُلَتْ أَهْلِيَّتُهُ، وَتَحَقَّقَتْ شَفَقَتُهُ، وَظَهَرَتْ مُرُوءَتُهُ، وَعُرِفَتْ عِفَّتُهُ، وَاشْتَهَرَتْ صِيَانَتُهُ، وَكَانَ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا وَأَجْوَدَ تَفْهِيمًا، وَلَا يَرْغَبُ الطَّالِبُ فِي زِيَادَةِ الْعِلْمِ مَعَ نَقْصٍ فِي وَرَعٍ أَوْ دِينٍ أَوْ عَدَمِ خُلُقٍ جَمِيلٍ.

فَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ.

وَلْيَحْذَرْ مِنَ التَّقَيُّدِ بِالْمَشْهُورِينَ، وَتَرْكِ الْأَخْذِ عَنِ الْخَامِلِينَ، فَقَدْ عَدَّ الْغَزَالِيُّ وَغَيْرُهُ ذَلِكَ مِنَ الْكِبْرِ عَلَى الْعِلْمِ، وَجَعَلَهُ عَيْنَ الْحَمَاقَةِ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَلْتَقِطُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا، وَيَغْتَنِمُهَا حَيْثُ ظَفَرَ بِهَا، وَيَتَقَلَّدُ الْمِنَّةَ لِمَنْ سَاقَهَا إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَهْرُبُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْجَهْلِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الْأَسَدِ، وَالْهَارِبُ مِنَ الْأَسَدِ لَا يَأْنَفُ مِنْ دَلَالَةِ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى الْخَلَاصِ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

---

(١) «تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِ» (ص١٢).

(٢) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ» (١/ ٨٤).

فَإِذَا كَانَ الْخَامِلُ مِمَّنْ تُرْجَىٰ بَرَكَةُ عِلْمِهِ كَانَ النَّفْعُ بِهَا أَعَمَّ وَالتَّحْصِيلُ مِنْ جِهَتِهِ أَتَمَّ، وَإِذَا سَبَرْتَ أَحْوَالَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لَمْ تَجِدِ النَّفْعَ يَحْصُلُ غَالِبًا، وَالْفَلَاحَ يُدْرَكُ طَالِبًا إِلَّا إِذَا كَانَ لِلشَّيْخِ مِنَ التَّقْوَىٰ نَصِيبٌ وَافِرٌ، وَعَلَىٰ شَفَقَتِهِ، وَنُصْحِهِ لِلطَّلَبَةِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا اعْتَبَرْتَ الْمُصَنَّفَاتِ وَجَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِتَصْنِيفِ الْأَتْقَىٰ الْأَزْهَدِ أَوْفَرَ، وَالْفَلَاحَ بِالِاشْتِغَالِ بِهِ أَكْثَرَ.

وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَهُ عَلَىٰ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ تَمَامُ الِاطِّلَاعِ، وَلَهُ مَعَ مَنْ يُوثَقُ بِهِ مِنْ مَشَايِخِ عَصْرِهِ كَثْرَةُ بَحْثٍ وَطُولُ اجْتِمَاعٍ، لَا مِمَّنْ أَخَذَ مِنْ بُطُونِ الْأَوْرَاقِ، وَلَمْ يُعْرَفْ بِصُحْبَةِ الْمَشَايِخِ الْحُذَّاقِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ تَفَقَّهَ مِنْ بُطُونِ الْكُتُبِ ضَيَّعَ الْأَحْكَامَ. وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: مِنْ أَعْظَمِ الْبَلِيَّةِ تَشَيُّخُ الصَّحِيفَةِ؛ أَيِ: الَّذِينَ تَعَلَّمُوا مِنَ الصُّحُفِ»[١].

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **بِسَنَدِهِ:** عَنْ مُغِيرَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا إِذَا أَتَوُا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ، نَظَرُوا إِلَىٰ سَمْتِهِ[٢]، وَإِلَىٰ صَلَاتِهِ، وَإِلَىٰ حَالِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ.

وَعَنِ الثَّوْرِيِّ قَالَ: مَنْ سَمِعَ مِنْ مُبْتَدِعٍ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِمَا سَمِعَ، وَمَنْ صَافَحَهُ

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٥).

(٢) **السَّمْتُ:** هَيْئَةُ الصَّلَاحِ، وَتُطْلَقُ عَلَىٰ الزِّيِّ الْحَسَنِ، وَالْهَيْئَةِ الْمُثْلَىٰ فِي الْمَلْبَسِ وَغَيْرِهِ.

فَقَدْ نَقَضَ عُرَىٰ الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ، وَيُؤْخَذُ مِمَّنْ سِوَىٰ ذَلِكَ: لَا تَأْخُذْ مِنْ سَفِيهٍ مُعْلِنٍ بِالسَّفَهِ وَإِنْ كَانَ أَرْوَىٰ النَّاسِ، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ كَذَّابٍ يَكْذِبُ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِذَا جُرِّبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُتَّهَمُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا مِنْ صَاحِبِ هَوًىٰ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ هَوَاهُ، وَلَا مِنْ شَيْخٍ لَهُ فَضْلٌ وَعِبَادَةٌ، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يَحْدُثُ»[1].

قُلْتُ: قَدْ تَبَيَّنَ مِمَّا سَلَفَ أَنَّ اخْتِيَارَ الْعِلْمِ، وَتَقْدِيمَ الْأَهَمِّ، مِمَّا لَا مَدْخَلَ لِلْعِلْمِ مِنْ سِوَاهُ، فَعَلَىٰ طَالِبِهِ تَحْرِيرُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ اخْتِيَارُ الشَّيْخِ، فَإِنَّمَا هُوَ قُدْوَةُ السَّالِكِ، وَحَادِي الطَّالِبِ، وَنَجْمُهُ الْمُنِيرُ الْمُتَّبَعُ، فَلْيَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ عَلَىٰ حَذَرٍ، وَاللهُ الْهَادِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٣٩).

٨- الْتِزَامُ الْأَدَبِ التَّامِّ مَعَ شَيْخِهِ وَقُدوَتِهِ

إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ -وَهُوَ رَبُّ الْقُلُوبِ وَعَلَّامُ الْغُيُوبِ- أَنَّ الذِّكْرَىٰ لَا تُجْدِي عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ- وَلَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ كُلَّ مَنْ سَمِعَهَا، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ شُرُوطٍ وَقُيُودٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

إِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضَرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ وَإِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وَذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التَّأْثِيرِ لَمَّا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ: مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، وَمَحَلٍّ قَابِلٍ، وَشَرْطٍ لِحُصُولِ الْأَثَرِ، وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ، تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ بَيَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ وَأَدَلِّهِ عَلَىٰ الْمُرَادِ فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَىٰ هَاهُنَا، وَهَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَحَلُّ الْقَابِلُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْقَلْبُ الْحَيُّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩- ٧٠] أَيْ: حَيَّ الْقَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أَيْ وَجَّهَ سَمْعَهُ، وَأَصْغَىٰ حَاسَّةَ سَمْعِهِ إِلَىٰ مَا يُقَالُ لَهُ: وَهَذَا شَرْطُ التَّأَثُّرِ بِالْكَلَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَيْ: شَاهِدُ الْقَلْبِ حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «اسْتَمَعَ كِتَابَ اللهِ، وَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمِ، لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْمَانِعِ مِنْ حُصُولِ التَّأْثِيرِ، وَهُوَ سَهْوُ الْقَلْبِ وَغَيْبَتُهُ عَنْ تَعَقُّلِ مَا يُقَالُ لَهُ، وَالنَّظَرِ فِيهِ وَتَأَمُّلِهِ.

فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ، وَوُجِدَ الشَّرْطُ وَهُوَ الْإِصْغَاءُ، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ، حَصَلَ الْأَثَرُ وَهُوَ الِانْتِفَاعُ وَالتَّذَكُّرُ»[1].

فَلَا يُنَالُ الْعِلْمُ إِلَّا بِإِلْقَاءِ السَّمْعِ مَعَ التَّوَاضُعِ، فَعَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «صَلَّىٰ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَىٰ جَنَازَةٍ ثُمَّ قُرِّبَتْ لَهُ بَغْلَةٌ لِيَرْكَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْهُ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَكَذَا يُفْعَلُ بِالْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُعَظِّمُونَ مَنْ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمْ تَعْظِيمًا شَدِيدًا، وَآثَارُهُمْ

---

(١) «الْفَوَائِدُ» (ص٥).

فِي ذَلِكَ شَاهِدَةٌ عَلَىٰ آدَابِهِم فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ، وَعَلَىٰ تَوْقِيرِهِمْ لِمُعَلِّمِيهِمْ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ: فِي «الْجَامِعِ» كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الْآثَارِ.

فَسَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْ مُغِيرَةَ قَالَ: كُنَّا نَهَابُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ كَمَا يُهَابُ الْأَمِيرُ.

وَعَنْ أَيُّوبَ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَجلِسُ إِلَىٰ الْحَسَنِ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَلَا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ هَيْبَةً لَهُ.

وَعَنْ إِسْحَاقَ الشُّهَيْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَرَىٰ يَحْيَىٰ الْقَطَّانَ يُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَسْتَنِدُ إِلَىٰ أَصْلِ مَنَارَةِ الْمَسْجَدِ، فَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ: عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَالشَّاذَكُونِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيَحْيَىٰ بْنُ مَعِينٍ، وَغَيْرُهُمْ، يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْحَدِيثِ وَهُمْ قِيَامٌ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ، إِلَىٰ أَنْ تَحِينَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ، لَا يَقُولُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: اجْلِسْ، وَلَا يَجْلِسُونَ هَيْبَةً لَهُ وَإِعْظَامًا.

وَعَنِ ابْنِ الْغَلَابِيِّ قَالَ: ابْنُ الْخَيَّاطِ يَمْدَحُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ:

يَدَعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ

نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَىٰ فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَرْمَلَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: مَا كَانَ إِنْسَانٌ يَجْتَرِئُ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ، حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنَهُ كَمَا يُسْتَأْذَنُ الْأَمِيرُ»[١].

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٨٤).

وَيُقَالُ إِنَّ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عُوتِبَ عَلَىٰ تَوَاضُعِهِ لِلْعُلَمَاءِ، فَقَالَ:

أُهِينُ لَهُمْ نَفْسِي فَهُمْ يُكْرِمُونَهَا ... وَلَنْ تُكْرَمَ النَّفْسُ الَّتِي لَا تُهِينُهَا

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **لِخَلَفٍ الْأَحْمَرِ** رَحِمَهُ اللهُ: «لَا أَقْعُدُ إِلَّا بَيْنَ يَدَيْكَ، أُمِرْنَا أَنْ نَتَوَاضَعَ لِمَنْ نَتَعَلَّمُ مِنْهُ»(١).

«فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَنْقَادَ لِشَيْخِهِ فِي أُمُورِهِ، وَلَا يَخْرُجَ عَنْ رَأْيِهِ وَتَدْبِيرِهِ، بَلْ يَكُونُ مَعَهُ كَالْمَرِيضِ مَعَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ، فَيُشَاوِرُهُ فِيمَا يَقْصِدُهُ وَيَتَحَرَّىٰ رِضَاهُ فِيمَا يَتَعَمَّدُهُ، وَيُبَالِغُ فِي حُرْمَتِهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِخِدْمَتِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ ذُلَّهُ لِشَيْخِهِ عِزٌّ، وَخُضُوعَهُ لَهُ فَخْرٌ، وَتَوَاضُعَهُ لَهُ رِفْعَةٌ.

وَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَنْظُرَ شَيْخَهُ بِعَيْنِ الْإِجْلَالِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَىٰ نَفْعِهِ بِهِ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا ذَهَبَ إِلَىٰ شَيْخِهِ تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي، وَلَا تُذْهِبْ بَرَكَةَ عِلْمِهِ مِنِّي»(٢).

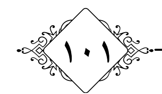
وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كُنْتُ أَصْفَحُ الْوَرَقَةَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ صَفْحًا رَقِيقًا هَيْبَةً لَهُ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ وَقْعَهَا.

وَقَالَ حِمْدَانُ الْأَصْفَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: كُنْتُ عِنْدَ شَرِيكٍ رَحِمَهُ اللهُ، فَأَتَاهُ بَعْضُ أَوْلَادِ الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَنَدَ إِلَىٰ الْحَائِطِ وَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٧).

(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٧).



عَلَيْنَا، ثُمَّ عَادَ، فَعَادَ لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَخِفُّ بِأَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ؟!

فَقَالَ شَرِيكٌ: لَا، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ أَجَلُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ أُضَيِّعَهُ؛ فَجَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ شَرِيكٌ: هَكَذَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ»(١).

«وَيَنْبَغِي أَلَّا يُخَاطِبَ شَيْخَهُ بِتَاءِ الْخِطَابِ وَكَافِهِ، وَلَا يُنَادِيهِ مِنْ بُعْدٍ.

وَقَالَ الْخَطِيبُ: «يَقُولُ: أَيُّهَا الْعَالِمُ، وَأَيُّهَا الْحَافِظُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَمَا تَقُولُونَ فِي كَذَا؟ وَمَا رَأْيُكُمْ فِي كَذَا؟ وَشِبْهَ ذَلِكَ، وَلَا يُسَمِّيهِ فِي غَيْبَتِهِ أَيْضًا بِاسْمِهِ، إِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُشْعِرُ بِتَعْظِيمِهِ كَقَوْلِهِ: قَالَ الشَّيْخُ، أَوِ الْأُسْتَاذُ، أَوْ: قَالَ شَيْخُنَا كَذَا.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ لِلشَّيْخِ حَقَّهُ، وَلَا يَنْسَىٰ فَضْلَهُ، وَأَنْ يُعَظِّمَ حُرْمَتَهُ، وَيَرُدَّ غِيبَتَهُ، وَيَغْضَبَ لَهَا، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ قَامَ وَفَارَقَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَ لِلشَّيْخِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَيَرْعَىٰ ذُرِّيَّتَهُ وَأَقَارِبَهُ وَأَوِدَّاءَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَيَتَعَمَّدَ زِيَارَةَ قَبْرِهِ وَالِاسْتِغْفَارَ لَهُ، وَالصَّدَقَةَ عَنْهُ، وَيَسْلُكَ فِي السَّمْتِ وَالْهَدْيِ مَسْلَكَهُ، وَيُرَاعِيَ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ عَادَتَهُ، وَيَقْتَدِيَ بِحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ فِي عَادَاتِهِ وَعِبَادَاتِهِ، وَيَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ، وَلَا يَدَعَ الِاقْتِدَاءَ بِهِ»(٢).

«وَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ جَفَاءِ شَيْخِهِ، وَأَنْ يَتَرَفَّقَ بِهِ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَكَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ،

---

(١) «الْمَجْمُوعُ» لِلنَّوَوِيِّ (١/ ٣٦).

(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٩).

تَغْضَبُ عَلَيْهِمْ، يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبُوا وَيَتْرُكُوكَ، فَقَالَ لِلْقَائِلِ: هُمْ حَمْقَىٰ إِذَنْ مِثْلُكَ إِنْ تَرَكُوا مَا يَنْفَعُهُمْ لِسُوءِ خُلُقِي»[١].

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ جَفْوَةٍ تَصْدُرُ مِنْ شَيْخِهِ أَوْ سُوءِ خُلُقٍ وَلَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ مُلَازَمَتِهِ، وَيَتَأَوَّلَ أَفْعَالَهُ الَّتِي يَظْهَرُ أَنَّ الصَّوَابَ خِلَافُهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ تَأْوِيلٍ، وَيَبْدَأُ هُوَ عِنْدَ جَفْوَةِ الشَّيْخِ بِالِاعْتِذَارِ، وَالتَّوْبَةِ مِمَّا وَقَعَ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَيَنْسُبَ الْمُوجِبَ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَ الْعَتْبَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْقَىٰ لِمَوَدَّةِ شَيْخِهِ وَأَحْفَظَ لِقَلْبِهِ، وَأَنْفَعَ لِلطَّالِبِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ ذُلِّ التَّعْلِيمِ بَقِيَ عُمُرَهُ فِي عَمَايَةِ الْجَهَالَةِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ آلَ أَمْرُهُ إِلَىٰ عِزِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ذَلَلْتُ طَالِبًا فَعَزَزْتُ مَطْلُوبًا.

وَقَالَ مُعَافَىٰ بْنُ عِمْرَانَ: مَثَلُ الَّذِي يَغْضَبُ عَلَىٰ الْعَالِمِ مَثَلُ الَّذِي يَغْضَبُ عَلَىٰ أَسَاطِينِ الْجَامِعِ»[٢].

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

اصْبِرْ عَلَىٰ مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ	**فَإِنَّ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ**
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً	**تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ**

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٩١)، «الْجَامِعُ» (ص٢٢٣).
(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٩١).

وَمَـنْ فَاتَـهُ التَّعْلِـيم وَقْـتَ شَـبَابِهِ فَكَبِّـــرْ عَلَيْـــهِ أَرْبَعًـــا لِوَفَاتِـــهِ

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ:** لَمْ أَسْتَخْرِجِ الَّذِي اسْتَخْرَجْتُ مِنْ عَطَاءٍ إِلَّا بِرِفْقِي بِهِ.

وَعَنِ ابْنِ طَاوُوسَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ الْعَالِمُ[١].

وَلْيَحْذَرْ طَالِبُ الْعِلْمِ أَشَدَّ الْحَذَرِ أَنْ يُمَارِيَ أُسْتَاذَهُ؛ فَإِنَّ الْمِرَاءَ شَرٌّ كُلُّهُ، وَهُوَ مَعَ شَيْخِهِ وَقُدْوَتِهِ أَقْبَحُ وَأَبْعَدُ مِنَ الْخَيْرِ، وَأَوْغَلُ فِي الشَّرِّ، وَهُوَ سَبَبٌ لِلْحِرْمَانِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْخَيْرِ.

«**فَعَنْ مَيْمُونَ بْنِ مِهْرَانَ: قَالَ:** «لَا تُمَارِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَإِذَا فَعَلْتَ خَزَنَ عَنْكَ عِلْمَهُ، وَلَمْ تَضُرَّهُ شَيْئًا».

وَعَنْهُ قَالَ: «لَا تُمَارِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَإِنَّكَ إِنْ مَارَيْتَهُ خَزَنَ عَنْكَ عِلْمَهُ، وَلَا يُبَالِي مَا صَنَعْتَ».

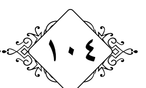
وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: قَالَ: «كَانَ سَلَمَةُ يُمَارِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَحُرِمَ بِذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا»[٢].

وَعَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ الشَّيْخَ عَلَىٰ تَوْقِيفِهِ عَلَىٰ مَا فِيهِ فَضِيلَةٌ، وَعَلَىٰ تَوْبِيخِهِ عَلَىٰ مَا

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (ص١٧١).

(٢) جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (ص١٧١).



فِيهِ نَقِيصَةٌ، أَوْ كَسَلٌ يَعْتَرِيهِ أَوْ قُصُورٍ يُعَانِيهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي إِيقَافِهِ عَلَيْهِ وَتَوْبِيخِهِ إِرْشَادُهُ وَصَلَاحُهُ، وَيَعُدَّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، بِاعْتِنَاءِ الشَّيْخِ بِهِ وَنَظَرِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْثَلُ إِلَىٰ قَلْبِ الشَّيْخِ وَأَبْعَثُ عَلَىٰ الِاعْتِنَاءِ بِمَصَالِحِهِ.

وَإِذَا وَقَفَهُ الشَّيْخُ عَلَىٰ دَقِيقَةٍ مِنْ أَدَبٍ، أَوْ نَقِيصَةٍ صَدَرَتْ مِنْهُ، وَكَانَ يَعْرِفُهَا مِنْ قَبْلُ، فَلَا يُظْهِرْ أَنَّهُ كَانَ عَارِفًا بِهَا وَغَفَلَ عَنْهَا، بَلْ يَشْكُرُ الشَّيْخَ عَلَىٰ إِفَادَتِهِ ذَلِكَ وَاعْتِنَائِهِ بِأَمْرِهِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ عُذْرٌ وَكَانَ إِعْلَامُ الشَّيْخِ بِهِ أَصلَحَ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَإِلَّا تَرَكَهُ، إِلَّا أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَىٰ تَرْكِ بَيَانِ الْعُذْرِ مَفْسَدَةٌ فَيَتَعَيَّنَ إِعْلَامُهُ بِهِ.

●●●



آدَابُ الِاسْتِئْذَانِ عَلَى الشَّيْخِ

إِذَا أَلْفَىٰ الطَّالِبُ الشَّيْخَ نَائِمًا فَلَا ينبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ، بَلْ يَجْلِسُ وَيَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُ، أَوْ يَنْصَرِفُ إِذَا شَاءَ.

«أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ، فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ، قَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! أَتَرَىٰ النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ؟! قَالَ: فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ أَنَا أَسْأَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنِ الْحَدِيثِ، فَإِنْ كَانَ لَيُبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ، وَهُوَ قَائِلٌ[١] فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَىٰ بَابِهِ، تَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ؛ فَيَخْرُجُ فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟! أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيكَ، فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، قَالَ: فَعَاشَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّىٰ رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي فَيَقُولُ: هَذَا الْفَتَىٰ كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: وَجَدْتُ عَامَّةَ عِلْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْحَيِّ

---

(١) **قَالَ يَقِيلُ**: نَامَ نَوْمَةَ نِصْفِ النَّهَارِ، وَهِيَ الْقَائِلَةُ وَالْقَيْلُولَةُ.

مِنَ الْأَنْصَارِ، إِنْ كُنْتُ لَأَقِيلُ بِبَابِ أَحَدِهِمْ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي عَلَيْهِ لأُذِنَ لِي عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَبْتَغِي بِذَلِكَ طِيبَ نَفْسِهِ.

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْتِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنِ الْحَدِيثِ فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ نَائِمٌ، فَيَضْطَجِعُ عَلَىٰ الْبَابِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَلَا نُوقِظُهُ؟ فَيَقُولُ: لَا.

وَعَنْ مَعْمَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ يَقُولُ: إِنْ كُنْتُ لَآتِي بَابَ عُرْوَةَ، فَأَجْلِسُ، ثُمَّ أَنْصَرِفُ فَلَا أَدْخُلُ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَدْخُلَ لَدَخَلْتُ إِعْظَامًا لَهُ»[١].

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ فِي غَيْرِ الْمَجْلِسِ الْعَامِّ إِلَّا بِاسْتِئْذَانٍ، سَوَاءٌ كَانَ الشَّيْخُ وَحْدَهُ أَمْ كَانَ مَعَهُ غَيْرُهُ، فَإِنِ اسْتَأْذَنَ بِحَيْثُ يَعْلَمُ الشَّيْخُ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ انْصَرَفَ، وَلَا يُكَرِّرُ الِاسْتِئْذَانَ، وَإِنْ شَكَّ فِي عِلْمِ الشَّيْخِ بِهِ، فَلَا يَزِيدُ فِي الِاسْتِئْذَانِ فَوْقَ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَوْ ثَلَاثِ طَرَقَاتٍ؛ بِالْبَابِ أَوِ الْحَلْقَةِ[٢] وَلْيَكُنْ طَرْقُ الْبَابِ خَفِيًّا بِأَدَبٍ، بِأَظْفَارِ الْأَصَابِعِ ثُمَّ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ بِالْحَلْقَةِ قَلِيلًا قَلِيلًا، فَإِنْ كَانَ الْمَوْضِعُ بَعِيدًا عَنِ الْبَابِ وَالْحَلْقَةِ، فَلَا بَأْسَ بِرَفْعِ ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا يُسْمِعُ لَا غَيْرَ، وَإِذَا أُذِنَ وَكَانُوا جَمَاعَةً، يُقَدَّمُ أَفْضَلُهُمْ وَأَسَنُّهُمْ بِالدُّخُولِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ الْأَفْضَلُ فَالْأَفْضَلُ»[٣].

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٥٨).
(٢) **قُلْتُ**: وَفِي مَعْنَىٰ الْحَلْقَةِ الْيَوْمَ مَا اسْتَحْدَثَ النَّاسُ مِنْ أَجْرَاسٍ كَهْرُبَائِيَّةٍ وَنَحْوِهَا.
(٣) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٩٣).

وَقَدْ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ أَبْوَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ تُقْرَعُ بِالْأَظَافِيرِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيُكْرَهُ لِلطَّالِبِ إِذَا اسْتَأْذَنَ فَقِيلَ: مَنْ ذَا؟ أَنْ يَقُولَ: أَنَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ.

وَإِذَا كَانَ الْبَابُ مَفْتُوحًا فَلَا يَسْتَقْبِلُ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ، ثُمَّ يُسَلِّمُ.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الِاسْتِئْذَانِ مِنْ «صَحِيحِهِ»: «**بَابٌ إِذَا قَالَ: مَنْ ذَا؟ فَقَالَ: أَنَا**». عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَىٰ أَبِي، فَدَقَقْتُ الْبَابَ؟ فَقَالَ: «**مَنْ ذَا**»؟ فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: «**أَنَا أَنَا**»، كَأَنَّهُ كَرِهَهَا».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي بَعْضِ حُجَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ إِلَيْهِ بِمِشْقَصٍ أَوْ بِمَشَاقِصَ وَجَعَلَ يَخْتِلُهُ لِيَطْعَنَهُ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرٍ»، الْأَوَّلُ: بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْمُهْمَلَةِ؛ وَهُوَ كُلُّ ثُقْبٍ مُسْتَدِيرٍ فِي أَرْضٍ أَوْ حَائِطٍ، وَأَصْلُهَا مَكَامِنُ الْوُحُوشِ، وَالثَّانِي: بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْجِيمِ جَمْعُ حُجْرَةٍ وَهِيَ نَاحِيَةُ الْبَيْتِ.

وَقَوْلُهُ: «مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ» وَفِي رِوَايَةٍ «بِهَا» وَالْمِدْرَىٰ تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ. قُلْتُ: وَالْمِدْرَىٰ هُوَ الْمُشْطُ.

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ: «بِمِشْقَصٍ أَوْ بِمَشَاقِصَ»، الْمِشْقَصُ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ وَفَتْحِ ثَالِثِهِ: نَصْلُ السَّهْمِ إِذَا كَانَ طَوِيلًا غَيْرَ عَرِيضٍ. وَقَوْلُهُ: «يَخْتِلُ»بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الْمُثَنَّاةِ أَيْ: يَطْعَنُهُ وَهُوَ غَافِلٌ».

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ كَامِلَ الْهَيْئَةِ مُتَطَهِّرَ الْبَدَنِ وَالثِّيَابِ نَظِيفَهُمَا، بَعْدَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَخْذِ ظُفُرٍ وَشَعَرٍ، وَقَطْعِ رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ، لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ يَقْصِدُ مَجْلِسَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ مَجْلِسُ ذِكْرٍ وَاجْتِمَاعٍ فِي عِبَادَةٍ.

وَمَتَىٰ دَخَلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ فِي غَيْرِ الْمَجْلِسِ الْعَامِّ وَعِنْدَهُ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ فَسَكَتُوا عَنِ الْحَدِيثِ، أَوْ دَخَلَ وَالشَّيْخُ وَحْدَهُ يُصَلِّي أَوْ يَذْكُرُ أَوْ يَكْتُبُ أَوْ يُطَالِعُ فَتَرَكَ ذَلِكَ، أَوْ سَكَتَ، أَوْ لَمْ يَبْدَأْهُ بِالْكَلَامِ أَوْ بَسْطِ الْحَدِيثِ، فَلْيُسَلِّمْ وَيَخْرُجْ مُسْرِعًا، إِلَّا أَنْ يَحُثَّهُ الشَّيْخُ عَلَىٰ الْمُكْثِ، وَإِذَا مَكَثَ فَلَا يُطِلْ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ بِذَلِكَ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ أَوْ يَجْلِسَ عِنْدَهُ، وَقَلْبُهُ فَارِغٌ مِنَ الشَّوَاغِلِ لَهُ، وَذِهْنُهُ صَافٍ، لَا فِي حَالِ نُعَاسٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ جُوعٍ شَدِيدٍ أَوْ عَطَشٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، لِيَنْشَرِحَ صَدْرُهُ لِمَا يُقَالُ وَيَعِي مَا يَسْمَعُهُ.

وَإِذَا حَضَرَ مَكَانَ الشَّيْخِ فَلَمْ يَجِدْهُ جَالِسًا انْتَظَرَهُ كَيْ لَا يُفَوِّتَ عَلَىٰ نَفْسِهِ دَرْسَهُ فَإِنَّ كُلَّ دَرْسٍ يَفُوتُ لَا يُعَوَّضُ، وَلَا يَطْرُقُ عَلَيْهِ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ نَائِمًا صَبَرَ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، أَوْ يَنْصَرِفَ ثُمَّ يَعُودُ، وَالصَّبْرُ خَيْرٌ لَهُ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَجْلِسُ عَلَىٰ بَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ،

حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَلَا نُوقِظُهُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَرُبَّمَا طَالَ مُقَامُهُ وَقَرَعَتْهُ الشَّمْسُ، وَكَذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ يَفْعَلُونَ.

وَلَا يَطْلُبُ مِنَ الشَّيْخِ إِقْرَاءَهُ فِي وَقْتٍ يَشُقُّ عَلَيْهِ فِيهِ، أَوْ لَمْ تَجْرِ عَادَتُهُ بِالْإِقْرَاءِ فِيهِ، وَلَا يَخْتَرِعُ عَلَيْهِ وَقْتًا خَاصًّا بِهِ دُونَ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ رَئِيسًا كَبِيرًا، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّرَفُّعِ وَالْحُمْقِ عَلَىٰ الشَّيْخِ وَالطَّلَبَةِ وَالْعِلْمِ، وَرُبَّمَا اسْتَحْيَا الشَّيْخُ مِنْهُ، فَتَرَكَ لِأَجْلِهِ مَا هُوَ أَهَمُّ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَلَا يُفْلِحُ الطَّالِبُ، فَإِنْ بَدَأَهُ الشَّيْخُ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ أَوْ خَاصٍّ، بِعُذْرٍ عَائِقٍ لَهُ عَنِ الْحُضُورِ مَعَ الْجَمَاعَةَ أَوْ لِمَصْلَحَةٍ رَآهَا الشَّيْخُ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ»[١].

وَإِذَا انْتَهَىٰ الطَّالِبُ إِلَىٰ حَلْقَةِ الشَّيْخِ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَمَّنْ أَخْبَرَهُ قَالَ: «كَانَ كَعْبٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَتَبَاعَدَ فِي مَجْلِسِهِ، فَأَنْكَرَ عُمَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ كَعْبٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ فِي حِكْمَةِ لُقْمَانَ وَوَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِذَا جَلَسْتَ إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ فَلْيَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَقْعَدُ رَجُلٍ، فَلَعَلَّهُ يَأْتِيهِ مَنْ هُوَ آثَرُ عِنْدَهُ مِنْكَ، فَتَنَحَّىٰ عَنْهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ نَقْصًا عَلَيْكَ»[٢].

«وَيَنْبَغِي عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِهِ بِتَوَاضُعٍ وَخُشُوعٍ

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٩٥).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٧٧).

وَسُكُونٍ، وَيُصْغِي إِلَىٰ الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ، وَيُقْبِلُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ، مُتَعَقِّلًا لِقَوْلِهِ، وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَىٰ يَمِينِهِ أَوْ شِمَالِهِ، أَوْ فَوْقَهُ، أَوْ قُدَّامَهُ، بِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَاسِيَّمَا عِنْدَ بَحْثِهِ أَوْ عِنْدَ كَلَامِهِ مَعَهُ.

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَنْظُرَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يَضْطَرِبَ لِضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا أَوْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا، وَلَاسِيَّمَا عِنْدَ بَحْثٍ لَهُ، وَلَا يَنْفُضَ كُمَّيْهِ، وَلَا يَحْسِرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، وَلَا يَعْبَثَ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ أَعْضَائِهِ، وَلَا يَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ أَوْ فَمِهِ أَوْ يَعْبَثَ بِهَا فِي أَنْفِهِ أَوْ يَسْتَخْرِجَ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَفْتَحُ فَاهُ، وَلَا يَقْرَعُ سِنَّهُ، وَلَا يَضْرِبَ الْأَرْضَ بِرَاحَتِهِ أَوْ يَخُطَّ عَلَيْهَا بِأَصَابِعِهِ، وَلَا يُشَبِّكَ بِيَدَيْهِ أَوْ يَعْبَثَ بِأَزْرَارِهِ.

وَلَا يَسْنُدُ بِحَضْرَةِ الشَّيْخِ إِلَىٰ حَائِطٍ أَوْ مِخَدَّةٍ، أَوْ يَجْعَلُ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَلَا يُعْطِي الشَّيْخَ جَنْبَهُ أَوْ ظَهْرَهُ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ يَدِهِ إِلَىٰ وَرَائِهِ أَوْ جَنْبِهِ، وَلَا يُكْثِرُ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا يَحْكِي مَا يُضْحَكُ مِنْهُ أَوْ مَا فِيهِ بَذَاءَةٌ أَوْ يَتَضَمَّنُ سُوءَ مُخَاطَبَةٍ أَوْ سُوءَ أَدَبٍ، وَلَا يَضْحَكُ لِغَيْرِ عَجَبٍ، وَلَا يَعْجَبُ دُونَ الشَّيْخِ، فَإِنْ غَلَبَهُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمًا بِغَيْرِ صَوْتٍ أَلْبَتَّةَ.

وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحْنُحَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا يَبْصُقُ وَلَا يَتَنَخَّعُ مَا أَمْكَنَهُ، وَلَا يَلْفِظُ النُّخَامَةَ مِنْ فِيهِ، بَلْ يَأْخُذُهَا مِنْ فِيهِ بِمِنْدِيلٍ أَوْ خِرقَةٍ أَوْ طَرَفِ ثَوْبٍ، وَيَتَعَاهَدُ تَغْطِيَةَ أَقْدَامِهِ وَإِرْخَاءَ ثِيَابِهِ وَسُكُونَ يَدَيْهِ عِنْدَ بَحْثِهِ أَوْ مُذَاكَرَتِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ جُهْدَهُ، وَسَتَرَ بِمِنْدِيلٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَإِذَا تَثَاءَبَ سَتَرَ

فَاهُ بَعْدَ رَدِّهِ بِجُهْدِهِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَىٰ الْقَوْمِ عَامَّةً وَتَخُصَّهُ بِالتَّحِيَّةِ، وَأَنْ تَجْلِسَ أَمَامَهُ، وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدَيْكَ، وَلَا تَغْمِزَ بِعَيْنِكَ غَيْرَهُ، وَلَا تَقُولَنَّ قَالَ فُلَانٌ خِلَافَ قَوْلِهِ، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَطْلُبَنَّ عَثْرَتَهُ، وَإِنْ زَلَّ قَبِلْتَ مَعْذِرَتَهُ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُوَقِّرَهُ للهِ تَعَالَىٰ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَبَقْتَ الْقَوْمَ إِلَىٰ خِدْمَتِهِ، وَلَا تُسَارَّ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسِلَ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْ طُولِ صُحْبَتِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ كَالنَّخْلَةِ تَنْتَظِرُ مَتَىٰ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ. وَلَقَدْ جَمَعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ»[(١)].

قُلْتُ: فَالسُّكُونُ وَالْوَقَارُ مِمَّا يَلْزَمُ الطَّالِبَ فِي مَجْلِسِ الْعِلْمِ، وَاسْتِعْمَالُ الْأَدَبِ حَتْمٌ لَازِمٌ لِكُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللهُ يُوَقِّرُونَ مَجَالِسَ الْعِلْمِ تَوْقِيرًا شَدِيدًا، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا وَكَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ: قَوْلُهُمْ: جُلَسَاءُ فُلَانٍ: كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ، فِي هَذَا قَوْلَانِ:

أَحَدِهِمَا: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ فَلَا يَتَحَرَّكُونَ، وَيَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ، وَالطَّيْرُ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَىٰ سَاكِنٍ، يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ حَلِيمًا وَقُورًا: إِنَّهُ لَسَاكِنُ الطَّيْرِ الطَّائِرِ، أَيْ كَأَنَّ عَلَىٰ رَأْسِهِ طَيْرًا لِسُكُونِهِ.

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٩٧).

وَالْقَوْلِ الثَّانِي: إِنَّ الْأَصْلَ فِي قَوْلِهِمْ: كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ، أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ كَانَ يَقُولُ لِلرِّيحِ: أَقِلِّينَا، وَلِلطَّيْرِ: أَظِلِّينَا، فَتُقِلُّهُ وَأَصْحَابَهُ الرِّيحُ، وَتُظِلُّهُمُ الطَّيْرُ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ هَيْبَةً لَهُ وَإِعْظَامًا، وَيَسْكُنُونَ فَلَا يَتَحَرَّكُونَ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْهُ فَيُجِيبُوا، فَقِيلَ لِلْقَوْمِ إِذَا سَكَنُوا: هُمْ عُلَمَاءُ وَقُرَّاءُ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ، تَشْبِيهًا بِأَصْحَابِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنَ سِنَانٍ الْقَطَّانِ، قَالَ: «كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ لَا يَتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا يَبْرِىٰ فِيهِ قَلَمٌ، وَلَا يَبْتَسِمُ أَحَدٌ، فَإِنْ تَحَدَّثَ أَوْ بَرَىٰ قَلَمًا، صَاحَ، وَلَبِسَ نَعْلَيْهِ، وَدَخَلَ.

وَكَانَ وَكِيعٌ أَيْضًا فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُمْ فِي صَلَاةٍ، فَإِنْ أَنْكَرَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا انْتَعَلَ وَدَخَلَ.

وَكَانَ ابْنُ نُمَيْرٍ يَغْضَبُ وَيَصِيحُ، وَكَانَ إِذَا رَأَىٰ مَنْ يَبْرِي قَلَمًا، تَغَيَّرَ وَجْهُهُ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: ضَحِكَ رَجُلٌ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ فَقَالَ: مَنْ ضَحِكَ؟ فَأَشَارُوا إِلَىٰ رَجُلٍ، فَقَالَ: تَطْلُبُ الْعِلْمَ وَأَنْتَ تَضْحَكُ؟! لَا حَدَّثْتُكُمْ شَهْرًا».

«وَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُحْسِنَ خِطَابَهُ مَعَ الشَّيْخِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَلَا يَقُولَ لَهُ: لِمَ؟ وَلَا: مَنْ نَقَلَ هَذَا؟ وَلَا: أَيْنَ مَوْضِعُهُ؟ وَشِبْهَ ذَلِكَ.

وَإِذَا ذَكَرَ الشَّيْخُ شَيْئًا فَلَا يَقُلْ: هَكَذَا قُلْتُ، أَوْ خَطَرَ لِي، أَوْ سَمِعْتُ، أَوْ هَكَذَا قَالَ فُلَانٌ: إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ إِيثَارَ الشَّيْخِ ذَلِكَ، وَلْيَتَحَفَّظْ مِنْ مُخَاطَبَةِ الشَّيْخِ بِمَا يَعْتَادُهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي كَلَامِهِ، وَلَا يَلِيقُ خِطَابُهُ بِهِ مِثْلُ: أَيْشٍ؟ وَفَهِمْتَ؟ وَسَمِعْتَ؟ وَتَدْرِي؟ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ لَا يَحْكِي لَهُ مَا خُوطِبَ بِهِ غَيْرُهُ مِمَّا لَا يَلِيقُ خِطَابُ الشَّيْخِ بِهِ وَإِنْ كَانَ حَاكِيًا، مِثْلَ: قَالَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ: أَنْتَ قَلِيلُ الْبِرِّ، وَمَا عِنْدَكَ خَيْرٌ، وَشِبْهُ ذَلِكَ، بَلْ يَقُولُ إِذَا أَرَادَ الْحِكَايَةَ مَا جَرَتِ الْعَادَةُ بِالْكِنَايَةِ بِهِ مِثْلَ: قَالَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ: الْأَبْعَدُ قَلِيلُ الْبِرِّ، وَمَا عِنْدَ الْبَعِيدِ خَيْرٌ، وَإِذَا سَمِعَ الشَّيْخَ يَذْكُرُ حُكْمًا فِي مَسْأَلَةٍ، أَوْ فَائِدَةً مُسْتَغْرَبَةً أَوْ يَحْكِي حِكَايَةً أَوْ يُنْشِدُ شِعْرًا وَهُوَ يَحْفَظُ ذَلِكَ، أَصْغَىٰ إِلَيْهِ إِصْغَاءَ مُسْتَفِيدٍ لَهُ فِي الْحَالِ، مُتَعَطِّشٍ إِلَيْهِ، فَرِحٍ بِهِ كَأَنَّه لَمْ يَسْمَعْهُ قَطُّ.

وَعَلَيْهِ أَلَّا يَسْبِقَ الشَّيْخَ إِلَىٰ شَرْحِ مَسْأَلَةٍ أَوْ جَوَابِ سُؤَالٍ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يُسَاوِقُهُ، وَلَا يُظْهِرُ مَعْرِفَتَهُ بِهِ، أَوْ إِدْرَاكَهُ لَهُ قَبْلَ الشَّيْخِ، وَيَنْبَغِي أَلَّا يَقْطَعَ عَلَىٰ الشَّيْخِ كَلَامَهُ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَتَحَدَّثُ مَعَ غَيْرِهِ، وَالشَّيْخُ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ أَوْ مَعَ جَمَاعَةَ الْمَجْلِسِ.

وَإِذَا نَاوَلَ الشَّيْخَ كِتَابًا نَاوَلَهُ إِيَّاهُ مُهَيَّأً لِفَتْحِهِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَىٰ إِدَارَتِهِ، فَإِنْ كَانَ النَّظَرُ فِي مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ فَلْيَكُنْ مَفْتُوحًا كَذَلِكَ، وَيُعِيِّنُ لَهُ الْمَكَانَ، وَلَا يَحْذِفُ إِلَيْهِ الشَّيْءَ حَذْفًا[١]؛ مِنْ كِتَابٍ أَوْ وَرَقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) أَيْ: لَا يُلْقِي إِلَيْهِ الشَّيْءَ إِلْقَاءً.

وَإِذَا مَشَىٰ مَعَ الشَّيْخِ فَلْيَكُنْ أَمَامَهُ بِاللَّيْلِ، وَخَلْفَهُ بِالنَّهَارِ، إِلَّا أَنْ يَقْتَضِيَ الْحَالُ خِلَافَ ذَلِكَ لِزَحْمَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَيَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَجْهُولَةِ الْحَالِ أَوِ الْخَطِرَةِ، وَيَحْتَرِزُ مِنْ تَرْشِيشِ ثِيَابِ الشَّيْخِ، وَإِذَا كَانَ فِي زَحْمَةٍ صَانَهُ عَنْهَا بِيَدَيْهِ، إِمَّا مِنْ قُدَّامِهِ أَوْ مِنْ وَرَائِهِ.

وَإِذَا مَشَىٰ أَمَامَهُ الْتَفَتَ إِلَيْهِ بَعْدَ كُلِّ قَلِيلٍ، فَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ وَالشَّيْخُ يُكَلِّمُهُ حَالَةَ الْمَشْيِ، وَهُمَا فِي الظِّلِّ فَلْيَكُنْ فِي يَمِينِهِ، وَقِيلَ عَنْ يَسَارِهِ مُتَقَدِّمًا عَلَيْهِ قَلِيلًا مُلْتَفِتًا إِلَيْهِ، وَيُعَرِّفِ الشَّيْخَ بِمَنْ قَرُبَ مِنْهُ أَوْ قَصَدَهُ مِنَ الْأَعْيَانِ إِنْ لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْخُ بِهِ.

وَلَا يَمْشِي لِجَانِبِ الشَّيْخِ إِلَّا لِحَاجَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ مِنْهُ، وَيَحْتَرِزُ مِنْ مُزَاحَمَتِهِ بِكَتِفِهِ أَوْ بِرِكَابِهِ، إِنْ كَانَا رَاكِبَيْنِ، وَمُلَاصَقَةِ ثِيَابِهِ، وَيُؤْثِرُهُ بِجِهَةِ الظِّلِّ فِي الصَّيْفِ وَبِجِهَةِ الشَّمْسِ فِي الشِّتَاءِ، وَبِالْجِهَةِ الَّتِي لَا تَقْرَعُ الشَّمْسُ فِيهَا وَجْهَهُ إِذَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ.

وَلَا يَمْشِي بَيْنَ الشَّيْخِ وَبَيْنَ مَنْ يُحَدِّثُهُ، وَيَتَأَخَّرُ عَنْهُمَا إِذَا تَحَدَّثَا أَوْ يَتَقَدَّمُ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُمَا وَلَا يَسْتَمِعُ وَلَا يَلْتَفِتُ، فَإِنْ أَدْخَلَهُ فِي الْحَدِيثِ فَلْيَأْتِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ وَلَا يَشُقُّ بَيْنَهُمَا.

وَإِذَا صَادَفَ الشَّيْخَ فِي طَرِيقِهِ بَدَأَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَقْصِدُهُ بِالسَّلَامِ مِنْهُ وَيَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُسَلِّمُ، وَلَا يُشِيرُ عَلَيْهِ ابْتِدَاءً بِالْأَخْذِ فِي طَرِيقٍ حَتَّىٰ يَسْتَشِيرَهُ، وَيَتَأَدَّبُ

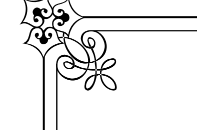
فِيمَا يَسْتَشِيرُهُ فِيهِ الشَّيْخُ بِالرَّدِّ إِلَىٰ رَأْيِهِ.

وَلَا يَقُولُ لِمَا رَآهُ الشَّيْخُ وَكَانَ خَطَأً: هَذَا خَطَأٌ، وَلَا: هَذَا لَيْسَ بِرَأْيٍ، بَلْ يُحْسِنُ خِطَابَهُ فِي الرَّدِّ إِلَىٰ الصَّوَابِ، كَقَوْلِهِ: يَظْهَرُ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي كَذَا، وَلَا يَقُولُ: الرَّأْيُ عِنْدِي كَذَا، وَشِبْهَ ذَلِكَ»[١].

⦿ ⦿ ⦿

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص١٠١-١١٢) بِتَصَرُّفٍ وَحَذْفٍ.


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٩- مُرَاعَاةُ الْآدَابِ مَعَ الْكُتُبِ

الْكُتُبُ هِيَ آلَةُ الْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رضي الله عنهم يُرَاعُونَ الْأَدَبَ مَعَ الْكُتُبِ مُرَاعَاةً تَامَّةً، وَيَجِدُونَ فِي تَحْصِيلِهَا مَا وَسِعَهُمُ الْجِدُّ.

«وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِتَحْصِيلِ الْكُتُبِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا مَا أَمْكَنَهُ شِرَاءً وَإِلَّا فَإِجَارَةً أَوْ عَارِيَةً؛ لِأَنَّها آلَةُ التَّحْصِيلِ، وَلَا يَجْعَلُ تَحْصِيلَهَا وَكَثْرَتَهَا حَظَّهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَجَمْعَهَا حَظَّهُ مِنَ الْفَهْمِ، كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ، وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا   فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ

وَيُسْتَحَبُّ إِعَارَةُ الْكُتُبِ لِمَنْ لَا ضَرَرَ عَلَيْهِ فِيهَا مِمَّنْ لَا ضَرَرَ مِنْهُ بِهَا، وَكَرِهَ قَوْمٌ عَارِيَتَهَا، وَالْأَوَّلُ أَوْلَىٰ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، مَعَ مَا فِي مَطْلَبِ الْعَارِيَةِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ.

وَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَعِيرِ أَنْ يَشْكُرَ لِلْمُعِيرِ وَيُجَزِّيَهُ خَيْرًا، وَلَا يُطِيلُ مُقَامَهُ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ بَلْ يَرُدُّهُ إِذَا قَضَىٰ حَاجَتَهُ، وَلَا يَحْبِسُهُ إِذَا طَلَبَهُ الْمَالِكُ أَوِ اسْتَغْنَىٰ عَنْهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصْلِحَهُ بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهِ، وَلَا يُحَشِّيهِ[١]، وَلَا يَكْتُبُ شَيْئًا فِي بَيَاضِ

(١) يُحَشِّيه: يَكْتُبُ فِي حَوَاشِيهِ.

فَوَاتِحِهِ أَوْ خَوَاتِمِهِ، إِلَّا إِذَا عَلِمَ رِضَا صَاحِبِهِ، وَلَا يُعِيرُهُ غَيْرَهُ، وَلَا يُودِعُهُ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَإِذَا نَسَخَ مِنْهُ بِإِذْنِ صَاحِبِهِ فَلَا يَكْتُبُ مِنْهُ وَالْقِرْطَاسُ فِي بَطْنِهِ أَوْ عَلَىٰ كِتَابَتِهِ، وَلَا يَضَعُ الْمِحْبَرَةَ عَلَيْهِ، وَلَا يَمُرُّ بِالْقَلَمِ الْمَمْدُودِ فَوْقَ كِتَابَتِهِ»[١].

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ وَكِيعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «أَوَّلُ بَرَكَةِ الْحَدِيثِ إِعَارَةُ الْكُتُبِ.

وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَنْ بَخِلَ بِعِلْمِهِ ابْتُلِيَ بِثَلَاثٍ، إِمَّا أَنْ يَنْسَاهُ وَلَا يَحْفَظُ، وَإِمَّا أَنْ يَمُوتَ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَذْهَبَ كُتُبُهُ».

وَيُكْرَهُ لِلْمُسْتَعِيرِ حَبْسُ الْكُتُبِ الْمُسْتَعَارَةِ عَنْ أَصْحَابِهَا، وَعَلَيْهِ أَنْ يُعَجِّلَ بِرَدِّهَا إِلَىٰ أَرْبَابِهَا.

أَخْرَجَ الْخَطِيبُ بِسَنَدِهِ عَنْ يُونُسَ عَنْ يَزِيدَ قَالَ: «قَالَ لِي الزُّهْرِيُّ: يَا يُونُسُ إِيَّاكَ وَغُلُولَ الْكُتُبِ قَالَ: قُلْتُ: وَمَا غُلُولُ الْكُتُبِ؟ قَالَ: حَبْسُهَا عَلَىٰ أَصْحَابِهَا.

وَعَنِ الْفَضُيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، يَقُولُ: لَيْسَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْوَرَعِ، وَلَا مِنْ فَعَالِ الْعُلَمَاءِ أَنْ تَأْخُذَ سَمَاعَ رَجُلٍ وَكِتَابَهُ فَتَحْبِسَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

وَقَالَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلِأَجْلِ حَبْسِ الْكُتُبِ امْتَنَعَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ إِعَارَتِهَا،

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص١٦٤-١٦٩).

فَعَنْ سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَا تُعِرْ أَحَدًا كِتَابًا.

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ الْبُوَيْطِيُّ: احْفَظْ كُتُبَكَ، فَإِنَّهُ إِنْ ذَهَبَ لَكَ كِتَابٌ لَمْ تَجِدْ بَدَلَهُ»(١).

وَإِذَا نَسَخَ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ طَالَعَهُ فَلَا يَضَعُهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ مَفْرُوشًا مَنْشُورًا، بَلْ يَجْعَلُهُ بَيْنَ كِتَابَيْنِ أَوْ شَيْئَيْنِ أَوْ كُرْسِيِّ الْكُتُبِ الْمَعْرُوفِ، كَيْ لَا يُسْرِعَ تَقْطِيعُ حَبْلِهِ، وَإِذَا وَضَعَهَا فِي مَكَانٍ مَصْفُوفَةً فَلْتَكُنْ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ أَوْ تَحْتِ خَشَبٍ أَوْ نَحْوِهِ، الْأَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ خِلْوٌّ، وَلَا يَضَعُهَا عَلَىٰ الْأَرْضِ كَيْ لَا تَتَنَدَّىٰ أَوْ تَبْلَىٰ.

وَإِذَا وَضَعَهَا عَلَىٰ خَشَبٍ وَنَحْوِهِ جَعَلَ فَوْقَهَا أَوْ تَحْتَهَا مَا يَمْنَعُ تَآكُلَ جُلُودِهَا بِهِ، وَكَذَلِكَ يَجْعَلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا يُصَادِفُهَا أَوْ يَسْنُدُهَا مِنْ حَائِطٍ أَوْ غَيْرِهِ.

وَيُرَاعِي الْأَدَبَ فِي وَضْعِ الْكُتُبِ بِاعْتِبَارِ عُلُومِهَا وَشَرَفِهَا وَمُصَنِّفِيهَا وَجَلَالَتِهِمْ؛ فَيَضَعُ الْأَشْرَفَ أَعْلَىٰ الْكُلِّ ثُمَّ يُرَاعِي التَّدْرِيجَ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا الْمُصْحَفُ الْكَرِيمُ جَعَلَهُ أَعْلَىٰ الْكُلِّ، وَالْأَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي خَرِيطَةٍ ذَاتِ عُرْوَةٍ فِي مِسْمَارٍ فِي حَائِطٍ طَاهِرٍ نَظِيفٍ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ، ثُمَّ كُتُبُ الْحَدِيثِ الصِّرْفِ؛ كَصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ، ثُمَّ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تَفْسِيرُ الْحَدِيثِ، ثُمَّ أُصُولُ الدِّينِ، ثُمَّ أُصُولُ الْفِقْهِ، ثُمَّ الْفِقْهُ، ثُمَّ النَّحْوُ وَالصَّرْفُ، ثُمَّ

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ٢٤٢).

أَشْعَارُ الْعَرَبِ ثُمَّ الْعَرُوضُ.

فَإِذَا اسْتَوَىٰ كِتَابَانِ فِي فَنٍّ أَعْلَىٰ أَكْثَرُهُمَا قُرْآنًا أَوْ حَدِيثًا، فَإِنِ اسْتَوَيَا فَبِجَلَالَةِ الْمُصَنِّفِ، فَإِنِ اسْتَوَيَا فَأَقْدَمُهُمَا كِتَابَةً وَأَكْثَرُهُمَا وُقُوعًا فِي أَيْدِي الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَإِنِ اسْتَوَيَا فَأَصَحُّهُمَا.

وَإِذَا اسْتَعَارَ كِتَابًا فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَفَقَّدَهُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ أَخْذَهُ وَرَدَّهُ، وَإِذَا اشْتَرَىٰ كِتَابًا تَعَهَّدَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَوَسَطَهُ وَتَرْتِيبَ أَبْوَابِهِ وَكَرَارِيسَهُ، وَيُصَفِّحُ أَوْرَاقَهُ، وَاعْتَبَرَ صِحَّتَهُ بِمَا يَغْلِبُ عَلَىٰ الظَّنِّ صِحَّتُهُ إِذَا ضَاقَ الزَّمَانُ عَنْ تَفْتِيشِهِ.

وَإِذَا نَسَخَ شَيْئًا بَدَأَهُ بِكِتَابَةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ مَبْدُوءًا فِيهِ بِخُطْبَةٍ تَتَضَمَّنُ حَمْدَ اللهِ تَعَالَىٰ وَالصَّلَاةَ عَلَىٰ رَسُولِهِ كَتَبَهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ، وَإِلَّا كَتَبَ هُوَ ذَلِكَ بَعْدَهَا، ثُمَّ كَتَبَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ فِي خَتْمِ الْكِتَابِ.

وَكُلَّمَا كَتَبَ اسْمَ اللهِ تَعَالَىٰ أَتْبَعَهُ بِالتَّعْظِيمِ مِثْلِ: تَعَالَىٰ، أَوْ سُبْحَانَهُ، أَوْ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ تَقَدَّسَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَكُلَّمَا كَتَبَ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ كَتَبَ بَعْدَهُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ، وَيُصَلِّي هُوَ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِ أَيْضًا.

وَجَرَتْ عَادَةُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ بِكِتَابَةِ ﷺ، وَلَا تُخْتَصَرُ الصَّلَاةُ فِي الْكِتَابِ وَلَوْ وَقَعَتْ فِي السَّطْرِ مِرَارًا كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْمُحَرِّرِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ؛ فَيَكْتُبُ

(صلع)، أَوْ (صلم) أَوْ(صلعم) وَكُلُّ ذَلِكَ غَيْرُ لَيِّقٍ بِحَقِّهِ ﷺ.

وَإِذَا مَرَّ بِذِكْرِ الصَّحَابِيِّ، وَلَاسِيَّمَا الْأَكَابِرُ مِنْهُمْ كَتَبَ: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلَا يَكْتُبُ: الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ إِلَّا تَبَعًا لَهُ.

وَكُلَّمَا مَرَّ بِذِكْرِ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ كَتَبَ: رَحِمَهُ اللهُ، وَلَاسِيَّمَا الْأَئِمَّةُ الْأَعْلَامُ وَهُدَاةُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

وَلَا بَأْسَ بِكِتَابَةِ الْحَوَاشِي وَالْفَوَائِدِ وَالتَّنْبِيهَاتِ الْمُهِمَّةِ عَلَىٰ حَوَاشِي كِتَابٍ يَمْلِكُهُ وَلَا يَكْتُبُ فِي آخِرِهِ صَحَّ فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّخْرِيجِ، وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُ عَلَيْهِ حَاشِيَةً أَوْ فَائِدَةً، وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُهُ فِي آخِرِهَا، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا الْفَوَائِدَ الْمُهِمَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِذَلِكَ الْكِتَابِ مِثْلَ تَنْبِيهٍ عَلَىٰ إِشْكَالٍ أَوِ احْتِرَازٍ أَوْ رَمْزٍ أَوْ خَطَأٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَا يُسَوِّدُ الْكِتَابَ بِنَقْلِ الْمَسَائِلِ وَالْفُرُوعِ الْغَرِيبَةِ وَلَا يُكْثِرُ الْحَوَاشِي كَثْرَةً تُظْلِمُ الْكِتَابَ أَوْ يَضِيعُ مَوَاضِعُهَا عَلَىٰ طَالِبِهَا.

وَلَا يَنْبَغِي الْكِتَابَةُ بَيْنَ الْأَسْطُرِ وَقَدْ فَعَلَهُ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْأَسْطُرِ الْمُفَرَّقَةِ بِالْحُمْرَةِ وَغَيْرِهَا وَتَرْكُ ذَلِكَ أَوْلَىٰ مُطْلَقًا»[١].



(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص١٧٠).

١٠- آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ عِنْدَ دَرْسِهِ

«وَعَلىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَكِّرَ بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَيُوَاظِبُونَ عَلَيْهِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: كُنْتُ رُبَّمَا أَرَدْتُ الْبُكُورَ إِلَىٰ الْحَدِيثِ، فَتَأْخُذُ أُمِّي ثِيَابِي وَتَقُولُ: حَتَّىٰ يُؤَذِّنَ النَّاسُ، وَحَتَّىٰ يُصْبِحُوا، وَكُنْتُ رُبَّمَا بَكَّرْتُ إِلَىٰ مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ وَغَيْرِهِ»(١).

«وَعَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي الدَّرْسِ بِكَامِلِ الْهِمَّةِ، فَارِغَ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ، فَيُسَلِّمَ عَلَىٰ الْحَاضِرِينَ كُلِّهِمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُهُمْ، وَيَخُصَّ الشَّيْخَ بِزِيَادَةِ إِكْرَامٍ.

ثُمَّ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَىٰ بِهِ الْمَجْلِسُ وَلَا يَتَخَطَّىٰ رِقَابَ أَصْحَابِهِ، إِلَّا أَنْ يُصَرِّحَ لَهُ الشَّيْخُ أَوِ الْحَاضِرُونَ بِالتَّقَدُّمِ أَوِ التَّخَطِّي، فَقَدْ رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَىٰ فُرْجَةً فِي

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (١/ ١٥١).

الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»**(١).

وَلَا يُقِيمُ أَحَدًا مِنْ مَجْلِسِهِ، فَإِنْ آثَرَهُ غَيْرُهُ بِمَجْلِسِهِ لَمْ يَأْخُذْهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْحَاضِرِينَ بِأَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ فَائِدَةٌ لَهُمْ.

وَلَا يَجْلِسُ وَسَطَ الْحَلْقَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ، وَلَا بَيْنَ صَاحِبَيْنِ إِلَّا بِرِضَاهُمَا، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ الْقُرْبِ مِنَ الشَّيْخِ بِدُونِ أَذَىٰ أَحَدٍ، لِيَفْهَمَ كَلَامَهُ فَهْمًا كَامِلًا.

وَيَتَأَدَّبُ مَعَ رُفْقَتِهِ وَحَاضِرِي الْمَجْلِسِ، فَإِنَّ تَأَدُّبَهُ مَعَهُمْ تَأَدُّبٌ مَعَ أُسْتَاذِهِ وَاحْتِرَامٌ لِمَجْلِسِهِ، فَلِمَجْلِسِ الدَّرْسِ حَرِيمٌ مُقَدَّسٌ لَا يَجُوزُ انْتِهَاكُهُ.

وَيَجْلِسُ بِأَدَبٍ وَتَوَاضُعٍ جُلُوسَ الْمُتَعَلِّمِينَ لَا جُلُوسَ الْمُعَلِّمِينَ، وَلَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ كَثِيرًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، بَلْ يُقْبِلُ عَلَىٰ أُسْتَاذِهِ مُسْتَمِعًا إِلَيْهِ، فَلَا يَسْبِقُهُ إِلَىٰ شَرْحِ مَسْأَلَةٍ أَوْ جَوَابِ سُؤَالٍ.

وَيَبْدَأُ دَرْسَهُ بِـ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ؛ ثُمَّ الدُّعَاءِ لِلْعُلَمَاءِ، وَمَشَايِخِهِ، وَوَالِدَيْهِ،

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ١٨٨).

وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ شَيْخِهِ، فَلَا يَقْرَأُ عِنْدَ اشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِشَيْءٍ، أَوْ عِنْدَ مَلَلِهِ وَغَمِّهِ وَنُعَاسِهِ، وَلَا يُلِحُّ فِي السُّؤَالِ بَلْ يَتَلَطَّفُ فِيهِ، وَلَا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحِيِي مِنَ الْأَسْئِلَةِ النَّافِعَةِ فِي أَوْقَاتِهَا.

وَإِذَا قَالَ لَهُ الشَّيْخُ: فَهِمْتَ؟ فَلَا يَقُلْ: نَعَمْ، إِلَّا وَهُوَ فَاهِمٌ، وَلَا يَسْتَحْيِي مِنْ قَوْلِهِ: لَا أَدْرِي، أَوْ لَا أَفْهَمُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ».

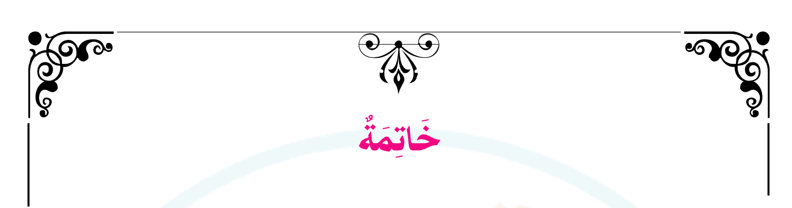
وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»(١).

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْزِلَةُ الْجَهْلِ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَالْأَنَفَةِ»(٢).

● ● ●

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٧٦).

(٢) «آدَابُ الْمُتَعَلِّمِ وَالْعَالِمِ» (ص٥٩).



خَاتِمَةٌ

وَبَعْدُ: فَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ بِهِ مِنَ بَيَانٍ لِآدَابِ طَالِبِ الْعِلْمِ، فَيَنْبَغِي لِطَالِبِهِ أَنْ يَجْعَلَهَا أَوَّلَ مَا يُعْقَدُ عَلَيْهِ الْخِنْصَرُ، وَأَنْ يَتَزَيَّنَ بِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَأَنْ يَجْعَلَ السَّعْيَ فِي اكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا هِجِّيرَاهُ وَدَيْدَنَهُ.

وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ مَسْأَلَةَ عَبْدٍ ذَلِيلٍ، وَشَّحَهُ الذَّنْبُ، وَلَفَّهُ التَّقْصِيرُ، وَأَعْيَتْهُ الْحِيلَةُ، أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الْآدَابَ حَظَّ كُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ أَخْلَصَ للهِ نِيَّتَهُ، وَنَقَّىٰ للهِ طَوِيَّتَهُ.

وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ بِجَلَالِهِ وَنُورِ وَجْهِهِ مَسْأَلَةَ مِسْكِينٍ خَائِفٍ ضَعِيفٍ، أَنْ يَهْدِيَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ أَخْذًا لَا يَدَعُ لِبِدْعَةٍ قِيَامًا وَلَا لِشِرْكٍ وُجُودًا، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

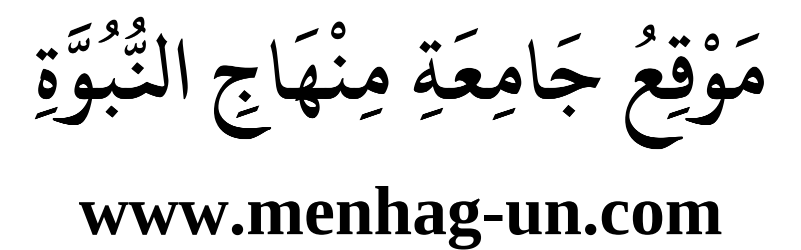
وَالْحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكَتَبَ

أَبُو عَبْدِ اللهِ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنُ رَسْلَانَ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ-



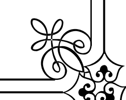
يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الْأُولَى





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كَوْنِهِ: أَنْ جَعَلَ دُونَ الشَّيْءِ النَّفِيسِ عَقَبَاتٍ تَتَحَطَّمُ دُونَهَا الْأَهْوَاءُ، فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ جَاهَدَ وَصَبَرَ.

وَالْجَنَّةُ أَكْبَرُ مَا تُؤَمِّلُهُ النَّفْسُ، وَأَعْظَمُ مَا تَهْفُو إِلَيْهِ الرُّوحُ، فَكَانَ حَتْمًا أَنْ تُحَفَّ بِالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْهَا وَتَقْطَعُ دُونَهَا، حَتَّىٰ إِذَا اقْتَحَمَتِ النَّفْسُ لُجَجَ الْحِرْمَانِ، وَامْتَطَتْ صَهْوَةَ الصَّبْرِ، وَتَشَبَّثَتْ بِقَوَائِمِ الثَّبَاتِ، وَتَمَسَّكَتْ بِعَزَائِمِ الْجِدِّ، كَانَ لَهَا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وُصُولٌ وَأَيُّ وُصُولٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت: ١- ٣].

وَمِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ،**

وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»(١).

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(٢).

«**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»: هَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «**حُفَّتْ**». وَوَقَعَ فِي الْبُخَارِيِّ: «**حُجِبَتْ**». وَوَقَعَ فِيهِ أَيْضًا: «**حُفَّتْ**». وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِي أُوتِيهَا ﷺ، مِنَ التَّمْثِيلِ الْحَسَنِ، وَمَعْنَاهُ: لَا يُوصِلُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ، وَلَا إِلَىٰ النَّارِ إِلَّا بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِهِمَا، فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَىٰ الْمَحْجُوبِ، فَهَتَكَ حِجَابَ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتَكَ حِجَابَ النَّارِ بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ(٣).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ وَبَدِيعِ بَلَاغَتِهِ فِي ذَمِّ الشَّهَوَاتِ وَإِنْ مَالَتْ إِلَيْهَا النُّفُوسُ، وَالْحَضِّ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ وَإِنْ كَرِهَتْهَا النُّفُوسُ وَشَقَّ عَلَيْهَا.

---

(١) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ»: نَشْرَةُ د. مُصْطَفَىٰ دِيب الْبغا (٦١٢٢).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٢٨٢٢).

(٣) تَعْلِيقُ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّد فُؤَاد عَبْد الْبَاقِي، عَلَىٰ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٧٤)].

وَقَدْ وَرَدَ إِيضَاحُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ فَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا**». قَالَ: «**فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ.**

قَالَ: اذْهَبْ إِلَىٰ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ»[١].

فَهَذَا يُفَسِّرُ رِوَايَةَ الْأَعْرَجِ[٢]، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَكَارِهِ هُنَا: مَا أُمِرَ الْمُكَلَّفُ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ فِيهِ فِعْلًا وَتَرْكًا كَالْإِتْيَانِ بِالْعِبَادَاتِ عَلَىٰ وَجْهِهَا، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَاجْتِنَابِ الْمَنْهِيَّاتِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦/ ٢٦٥، ٨٦٣٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٧٤٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١٦١)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٧٦٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ النَّسَائِيِّ» (٢/ ٧٩٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥٦٠)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ (سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ) (٤/ ٥٨٩).

(٢) يُرِيدُ رِوَايَةَ الْبُخَارِيِّ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَدِيثَ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَرْفَعُهُ «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» نَشْرَةُ د. مُصْطَفَىٰ الْبُغَا (٥/ ٢٣٧٩).

وَأَطْلَقَ عَلَيْهَا الْمَكَارِهَ؛ لِمَشَقَّتِهَا عَلَىٰ الْعَامِلِ وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِ، وَمَنْ جُمْلَتِهَا الصَّبْرُ عَلَىٰ الْمُصِيبَةِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللهِ فِيهَا.

وَالْمُرَادُ بِالشَّهَوَاتِ: مَا يُسْتَلَذُّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مِمَّا مَنَعَ الشَّرْعُ مِنْ تَعَاطِيهِ إِمَّا بِالْأَصَالَةِ وَإِمَّا لِكَوْنِ فِعْلِهِ يَسْتَلْزِمُ تَرْكَ شَيْءٍ مِنَ الْمَأْمُورَاتِ.

وَيُلْتَحَقُ بِذَلِكَ الشُّبُهَاتُ وَالْإِكْثَارُ مِمَّا أُبِيحَ خَشْيَةَ أَنْ يُوقِعَ فِي الْمُحَرَّمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَا يُوصَلُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَشَقَّاتِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْمَكْرُوهَاتِ، وَلَا إِلَىٰ النَّارِ إِلَّا بِتَعَاطِي الشَّهَوَاتِ، وَهُمَا مَحْجُوبَتَانِ فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ اقْتَحَمَ»[1].

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ مِنَ التَّمْثِيلِ الْحَسَنِ، وَمَعْنَاهُ: لَا يُوصَلُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ، وَلَا إِلَىٰ النَّارِ إِلَّا بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِهِمَا، فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَىٰ الْمَحْجُوبِ، فَهَتْكُ حِجَابِ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ، فَأَمَّا الْمَكَارِهُ فَيَدْخُلُ فِيهَا الِاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ عَلَىٰ مَشَاقِّهَا، وَكَظْمُ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوُ، وَالْحِلْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْمُسِيءِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ؛ كَالْخَمْرِ، وَالزِّنَا، وَالنَّظَرِ إِلَىٰ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالْغِيبَةِ، وَاسْتِعْمَالِ الْمَلَاهِي وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» لِابْنِ حَجَرٍ (١١/ ٣٢٧).

وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذِهِ، لَكِنْ يُكْرَهُ الْإِكْثَارُ مِنْهَا؛ مَخَافَةَ أَنْ يَجُرَّ إِلَىٰ الْمُحَرَّمَةِ، أَوْ يُقَسِّيَ الْقَلْبَ، أَوْ يَشْغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ يُحْوِجَ إِلَىٰ الِاعْتِنَاءِ بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا وَنَحْوِ ذَلِكَ»(١).

فَالْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ، وَمَا وَصَّلَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ مَحْفُوفٌ -أَيْضًا- بِمَا يُكْرَهُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَشَقَّتُهُ لَيْسَتْ فِيهِ هُوَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَإِنَّمَا فِي تَخْلِيصِهِ وَتَنْقِيَتِهِ مِمَّا يُفْسِدُهُ عَلَىٰ عَامِلِهِ وَمُبْتَغِيهِ، وَهَذَا أَشَقُّ مَا يَلْقَاهُ الْعَامِلُ فِي عَمَلِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ مَدَاخِلُ الشَّيْطَانِ فِي الْعَمَلِ تَتَفَاوَتُ عَلَىٰ مِقْدَارِ فَضْلِهِ وَقَدْرِ ثَمَرَتِهِ، كَانَتْ مَدَاخِلُ الشَّيْطَانِ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ، وَأَبْعَدُ مِنْ أَنْ تُسْتَقْصَىٰ؛ إِذِ الْعِلْمُ هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ قَاطِبَةً.

قَالَ الْغَزَالِيُّ -هُوَ أَبُو حَامِدٍ- رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ رُتْبَةً فِي حَقِّ الْآدَمِيِّ: السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ وَأَفْضَلُ الْأَشْيَاءِ مَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَلَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَيْهَا إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَلَا يُتَوَصَّلُ إِلَىٰ الْعَمَلِ إِلَّا بِالْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ، فَأَصْلُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُوَ الْعِلْمُ، فَهُوَ -إِذَنْ- أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ»(٢).

وَإِذَنْ؛ فَسَبِيلُ الْعِلْمِ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالْمَشَاقِّ، وَمَدَاخِلُ الشَّيْطَانِ فِيهِ لَا

---

(١) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١٧/ ١٦٥).

(٢) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» لِأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ (١/ ١٢).

يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، فَمِنْهَا مَا يُفْسِدُ الْعِلْمَ ذَاتَهُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَمِنْهَا مَا يُفْسِدُ الْقَصْدَ وَالْإِرَادَةَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَا يُفْسِدُ سَبِيلَ الطَّلَبِ، وَالنَّاجِي مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

لِذَلِكَ يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَىٰ دَرْسِ الْآفَاتِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْعِلْمِ فَتُفْسِدُهُ، أَوْ تُفْسِدُ سَبِيلَ الطَّلَبِ عَلَىٰ طَالِبِهِ، أَوْ تُفْسِدُ الْقَصْدَ وَالْإِرَادَةَ وَالنِّيَّةَ فِيهِ، حَتَّىٰ لَا يُلِمَّ شَيْءٌ مِنْهَا بِهِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ قَدْ نَفَّرَ الشَّرْعُ مِنْهُ، وَرَغَّبَ الدِّينُ عَنْهُ، عَلَىٰ إِطْلَاقٍ، وَإِنَّمَا ازْدَادَ تَنْفِيرُ الشَّرْعِ مِنْهُ، وَعَظُمَ تَرْغِيبُ الدِّينِ عَنْهُ -حَالَ تَعَلُّقِ شَيْءٍ مِنْهُ بِالْعِلْمِ- لِأَنَّ الْعِلْمَ هُوَ مَا هُوَ فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هُوَ عِصْمَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ، فَكَيْفَ إِذَا أَصْبَحَ عَيْنَ الدَّاءِ؟! وَهُوَ حَاجِزٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ، فَكَيْفَ إِذَا اتُّخِذَ مَطِيَّةً لِلْبَلَاءِ؟!

وَإِلَيْكَ أَسُوقُ -أَخِي- بَعْضَ تِلْكَ الْآفَاتِ وَبَعْضَ مَا وَرَدَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهَا، وَالتَّرْغِيبِ عَنْهَا، وَأَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ أَنْ يُطَهِّرَنِي وَإِيَّاكَ مِنْهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَمَظْهَرًا وَمَخْبَرًا؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

●●●

١- تَعَلُّمُ الْعِلْمِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى

ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ يَكِلُهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ، وَاللهُ ﷻ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ طَيِّبًا وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ الْكَرِيمُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: الْمَنْفَعَةَ الْعَاجِلَةَ أَوِ الدَّارَ الْعَاجِلَةَ، أَيْ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ أَوْ بِأَعْمَالِ الْآخِرَةِ ذَلِكَ.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي تِلْكَ الْعَاجِلَةِ.

﴿مَا نَشَآءُ﴾ نَحْنُ، لَا مَا يَشَاؤُهُ ذَلِكَ الْمُرِيدُ.

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، أَيْ: لِمَنْ نُرِيدُ التَّعْجِيلَ لَهُ مِنْهُمْ، فَلَا يُحَصِّلُ لِمَنْ أَرَادَ

الْعَاجِلَةَ مَا يَشَاؤُهُ إِلَّا إِذَا أَرَادَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ [فَكَمْ مِنْ عَامِلٍ لَهَا نَاصِبٍ يَمُوتُ بِحَسْرَتِهِ عَلَيْهَا].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾، بِسَبَبِ تَرْكِهِ لِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ.

﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أَيْ: يَدْخُلُهَا، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، أَيْ مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مُبْعَدًا عَنْهَا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، أَيْ: أَرَادَ بِأَعْمَالِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ.

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أَيِ: السَّعْيَ اللَّائِقَ بِطَالِبِهَا عَلَى الْقَانُونِ الشَّرْعِيِّ، دُونَ ابْتِدَاعٍ وَلَا هَوًى.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بِاللهِ إِيمَانًا صَحِيحًا.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، عِنْدَ اللهِ: أَيْ: مَقْبُولًا غَيْرَ مَرْدُودٍ»[1].

وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ: مَنْ كَانَ طَلَبُهُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ وَلَهَا يَعْمَلُ وَيَسْعَى، وَإِيَّاهَا يَبْتَغِي، لَا يُوقِنُ بِمَعَادٍ، وَلَا يَرْجُو ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا مِنْ رَبِّهِ عَلَى عَمَلِهِ.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أَيْ: مَا نَشَاؤُهُ مِنْ بَسْطِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ أَوْ تَقْتِيرِهَا لِمَنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ، أَوْ إِهْلَاكِهِ بِمَا يَشَاءُ تَعَالَى مِنْ عُقُوبَاتِهِ

---

(١) «زُبْدَةُ التَّفْسِيرِ مِنْ فَتْحِ الْقَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ. اخْتِصَارُ د/ مُحَمَّد سُلَيْمَان الْأَشْقَر (ص٣٦٦).

الْمُعَجَّلَةِ، ثُمَّ يَصْلَىٰ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ مَذْمُومًا عَلَىٰ قِلَّةِ شُكْرِهِ لِمَوْلَاهُ، وَسُوءِ صَنِيعِهِ فِيمَا سَلَفَ لَهُ، مَدْحُورًا مَطْرُودًا مِنَ الرَّحْمَةِ، مُبْعَدًا مُقْصَيًا فِي النَّارِ.

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ، وَإِيَّاهَا طَلَبَ، وَلَهَا عَمِلَ عَمَلَهَا الَّذِي هُوَ طَاعَةُ اللهِ وَمَا يُرْضِيهِ عَنْهُ، فَأُولَئِكَ كَانَ عَمَلُهُمْ مَشْكُورًا بِحُسْنِ الْجَزَاءِ»[1].

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ لَمْ يَقُلْ: عَجَّلْنَا لَهُ مَا يَشَاءُ!! بَلْ قَالَ: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، أَيْ: لَا مَا يَشَاءُ هُوَ، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، لَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ، فَقَيَّدَ الْمُعَجَّلَ وَالْمُعَجَّلَ لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فَقَدْ قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أَيْ: أَجْرَهَا وَثَوَابَهَا فَآمَنَ بِهَا وَصَدَّقَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بِأَنْ نُضَاعِفَ عَمَلَهُ وَجَزَاءَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. وَمَعَ ذَلِكَ، فَنَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ بِأَنْ: كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ مَقْصُودَهُ، وَغَايَةَ مَطْلُوبِهِ، فَلَمْ يُقَدِّمْ لِآخِرَتِهِ، وَلَا رَجَا ثَوَابَهَا، وَلَمْ يَخْشَ عِقَابَهَا.

---

(١) «مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ» لِلْقَاسِمِيِّ (٦/ ٤٥٢).

﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ نَصِيبهُ الَّذِي قُسِمَ لَهُ.

﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قَدْ حَرَّمَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا، وَاسْتَحَقَّ النَّارَ وَجَحِيمَهَا»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٨٢).

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهْ: «**فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٤٢٠٢)، وَقَالَ الْبُوصِيرِيُّ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٢/ ٤٠٩).

وَعَنْ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٤٢٠٣)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٢/ ٤١٠).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا**

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» لِلسَّعْدِيِّ (ص٧٠٢).

كُتِبَ لَهُ وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ (٤١٠٥)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٢/ ٣٩٣)، وَقَالَ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٩٥٠): هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، كَمَا قَالَ الْبُوصِيرِيُّ فِي «الزَّوَائِدِ».

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الرِّيَاءَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وَحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الرِّيَاءِ تَحْذِيرًا شَدِيدًا، يُنَفِّرُ مِنْهُ وَيَصْرِفُ عَنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**»[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَمَّعَ**

(١) «الْبُخَارِيُّ» (٦١٣٤)، وَ «مُسْلِمٌ» (٢٣٨٧).

وَ «سَمَّعَ» هُوَ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ، وَمَعْنَاهُ: مَنْ أَظْهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِيَاءً، أَظْهَرَ اللهُ نِيَّتَهُ الْفَاسِدَةَ فِي عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ.

النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ».

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» بِأَسَانِيدَ أَحَدُهَا صَحِيحٌ، وَالْبَيْهَقِيُّ.

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ: أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ أَيْضًا.

وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ الْحَدِيثَ فِي: «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ»(١).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«مَنْ قَامَ مَقَامَ رِيَاءٍ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ، وَمَنْ قَامَ مَقَامَ سُمْعَةٍ سَمَّعَ اللهُ بِهِ»**.

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ(٢).

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومُ فِي الدُّنْيَا مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ إِلَّا سَمَّعَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**.

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ(٣).

قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَنَّ الرِّيَاءَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَالسُّمْعَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّمَاعِ، وَإِنَّمَا الرِّيَاءُ أَصْلُهُ طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بِإِيرَائِهِمْ خِصَالَ الْخَيْرِ

---

(١) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١١٧)، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٦٥٠٩، ٦٩٨٦، ٧٠٨٥) طَبْعَةُ الشَّيْخِ شَاكِرٍ.

(٢) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١١٨).

(٣) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١١٨).

إِلَّا أَنَّ الْجَاهَ وَالْمَنْزِلَةَ تُطْلَبُ فِي الْقَلْبِ بِأَعْمَالٍ سِوَىٰ الْعِبَادَاتِ وَتُطْلَبُ بِالْعِبَادَاتِ.

وَاسْمُ الرِّيَاءِ مَخْصُوصٌ بِحُكْمِ الْعَادَةِ بِطَلَبِ الْمَنْزِلَةِ فِي الْقُلُوبِ بِالْعِبَادَاتِ وَإِظْهَارِهَا.

فَالْمُرَائِي هُوَ الْعَابِدُ، وَالْمُرَاءَىٰ هُوَ النَّاسُ الْمَطْلُوبُ رُؤْيَتُهُمْ؛ بِطَلَبِ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَالْمُرَاءَىٰ بِهِ هُوَ الْخِصَالُ الَّتِي قَصَدَ الْمُرَائِي إِظْهَارَهَا، وَالرِّيَاءُ هُوَ قَصْدُهُ إِظْهَارَ ذَلِكَ»(١).

وَقَالَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِمَنِ اتَّسَعَ وَقْتُهُ وَأَصَحَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ جِسْمَهُ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْخُرُوجَ مِنْ طَبَقَةِ الْجَاهِلِينَ، وَأَلْقَىٰ فِي قَلْبِهِ الْعَزِيمَةَ عَلَىٰ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، أَنْ يَغْتَنِمَ الْمُبَادَرَةَ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ خَوْفًا مِنْ حُدُوثِ أَمْرٍ يَقْطَعُهُ عَنْهُ، وَتَجَدُّدِ حَالٍ تَمْنَعُهُ مِنْهُ.

وَلْيَسْتَعْمِلِ الْجِدَّ فِي أَمْرِهِ وَإِخْلَاصَ النِّيَّةِ فِي قَصْدِهِ، وَالرَّغْبَةَ إِلَىٰ اللهِ فِي أَنْ يَرْزُقَهُ عِلْمًا يُوَفِّقُهُ فِيهِ، وَيُعِيذَهُ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ.

وَلْيَحْذَرْ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِيمَا يَطْلُبُ: الْمُجَادَلَةَ بِهِ، وَالْمُمَارَاةَ فِيهِ، وَصَرْفَ الْهِمَمِ إِلَيْهِ، وَأَخْذَ الْأَعْوَاضِ عَلَيْهِ»(٢).

---

(١) «تَهْذِيبُ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» لِلْأُسْتَاذِ عَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ (٢/ ١١٣).

(٢) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (٢/ ٨٧).

وَلَوْ أَنَّ الْأَمْرَ مَرَّ كِفَافًا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، لَكَانَ هَيِّنًا وَكَانَ مُحْتَمَلًا، وَلَكِنَّ الْعِقَابَ مُرٌّ أَلِيمٌ، وَالْعَذَابَ مَهِينٌ عَظِيمٌ.

وَهَاكَ صَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ يَتَحَدَّرُ إِلَىٰ الْأَسْمَاعِ فِي ظِلَالٍ وَنَدًىٰ، يُرْشِدُ وَيُحَذِّرُ، وَيُوَضِّحُ وَيُذَكِّرُ فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٠٥).

ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: الْغَازِيَ وَالْعَالِمَ وَالْجَوَادَ، الَّذِينَ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يَبْتَغُونَ بِهَا وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ: «قَوْلُهُ ﷺ فِي الْغَازِي وَالْعَالِمِ وَالْجَوَادِ، وَعِقَابُهُمْ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِدْخَالُهُمُ النَّارَ، دَلِيلٌ عَلَىٰ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الرِّيَاءِ وَشِدَّةِ عُقُوبَتِهِ، وَعَلَىٰ الْحَثِّ عَلَىٰ وُجُوبِ الْإِخْلَاصِ فِي الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وَفِيهِ: أَنَّ الْعُمُومَاتِ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ أَرَادَ اللهَ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ مُخْلِصًا، وَكَذَلِكَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَىٰ الْمُنْفِقِينَ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مُخْلِصًا»(١).

فَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ ابْتِغَاءً لِشَهْوَةٍ فَارِغَةٍ، وَطَلَبًا لِشَهْوَةٍ عَاجِلَةٍ، وَسَعْيًا وَرَاءَ تَقْدِيرٍ يَصِيرُ إِلَىٰ عَدَمٍ، وَعَدْوًا خَلْفَ فَرَحٍ يَئُولُ إِلَىٰ نَدَمٍ، كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الْوَعِيدِ، وَيُنْظَمُ فِي سِلْكِ التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ.

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٤)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢/ ٣٣٧)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «كِتَابِ الصَّمْتِ» (١٤١)، وَالْحَدِيثُ

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١٣/ ٥٠).

صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٦).

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَدْ يَكُونُ الْعِلْمُ هَلَاكًا عَلَىٰ صَاحِبِهِ إِذَا طَلَبَهُ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ، وَالْمَعْنَىٰ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النِّيَّةَ هِيَ رُكْنُ الْعَمَلِ أَوْ شَرْطُهُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا عُدِمَتْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا، فَإِذَا أُفْسِدَتْ فَسَدَ الْهَوَىٰ، وَيَكُونُ فَسَادُهُ عَلَىٰ قَدْرِ مُفْسِدِهِ.

فَإِذَا أَرَادَ مُجَارَاةَ الْعُلَمَاءِ دَخَلَ فِي بَابِ الْحَسَدِ لِلظُّهُورِ وَالْمُبَاهَاةِ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ فَقَلَبَ مَا لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَإِنْ أَرَادَ مُمَارَاةَ السُّفَهَاءِ فَهُوَ مِثْلُهُمْ، وَإِنْ أَرَادَ صَرْفَ وُجُوهِ النَّاسِ؛ لِيَكْتَسِبَ الْحُطَامَ فَقَدْ بَاعَ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَهُوَ عَاصٍ فَاسِقٌ تَحْتَ رَجَاءِ الْخَاتِمَةِ فِي الْمَوْتِ عَلَىٰ الشَّهَادَةِ، فَيَكُونُ فِي الْمَشِيئَةِ، أَوْ فِي تَزَعْزُعِ الْعَقِيدَةِ بِضَعْفِهَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَقُوَّةِ الْفِتْنَةِ، أَوْ ذَهَابِهَا فَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». يَعْنِي: رِيحَهَا.

رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٦٦٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٢/ ٤١٢)، وَابْنُ مَاجَهْ (٢٥٢)، وَصَحَّحَهُ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ»

(١) «عَارِضَةُ الْأَحْوَذِيِّ بِشَرْحِ صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» لِابْنِ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيِّ (١٠/ ١٢١).

(١/ ٤٨)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (٧٧)، وَالْحَاكِمُ (١/ ٨٥)، وَقَالَ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، سَنَدُهُ ثِقَاتٌ، رُوَاتُهُ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ». وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

قَالَ مُحَمَّدٌ فُؤَادُ عَبْدُ الْبَاقِي رَحِمَهُ اللَّهُ: « «عَرَضًا». أَيْ: مَتَاعًا.

وَ «**مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ**»: بَيَانٌ لِلْعِلْمِ الَّذِي يُطْلَبُ بِهِ رِضَا اللهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ الدِّينِيُّ، فَلَوْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعِلْمِ الْفَلْسَفَةِ وَنَحْوِهِ فَهُوَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي أَهْلِ هَذَا الْوَعِيدِ»[١].

قُلْتُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يُقَيَّدَ هَذَا الْكَلَامُ بِمَا إِذَا كَانَ الْعِلْمُ فِي ذَاتِهِ مَشْرُوعًا غَيْرَ مَمْنُوعٍ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْعِلْمُ الَّذِي تُبْتَغَىٰ بِهِ الدُّنْيَا مَحْظُورًا، فَالْوَعِيدُ مُحِيطٌ بِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ.

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ**».

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٥٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي: «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٨)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٦)، وَالْحَاكِمُ (١/ ٨٦)، وَذَكَرَهُ الْمُنْذِرِيُّ فِي «التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١٢٩)، وَقَالَ: «رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ، كُلُّهُمْ مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَىٰ بْنِ أَيُّوبَ الْغَافِقِيِّ عَنِ

---

(١) «سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ» تَحْقِيقُ وَتَعْلِيقُ مُحَمَّد فُؤَاد عَبْد الْبَاقِي (١/ ٩٣).

ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْهُ، وَيَحْيَىٰ هَذَا ثِقَةٌ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ مَنْ شَذَّ فِيهِ».

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧): «وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا (١/ ٨٦)، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ (١/ ١٨٧)، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ -أَيْضًا- الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ (١/ ٥٢)، وَهُوَ كَمَا قَالُوا إِنْ سَلِمَ مِنَ الِانْقِطَاعِ، فَإِنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ وَشَيْخَهُ أَبَا الزُّبَيْرِ مُدَلِّسَانِ مَعْرُوفَانِ بِذَلِكَ، وَقَدْ عَنْعَنَاهُ، غَيْرَ أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّ لَهُ شَوَاهِدَ فِي الْبَابِ يَتَقَوَّىٰ بِهَا، وَتَتَقَوَّىٰ بِهِ».

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَا تَعَلَّمُوا**»: أَيْ: لَا تَتَعَلَّمُوا، بِحَذْفِ إِحْدَىٰ التَّاءَيْنِ، وَ «**لَا تَخَيَّرُوا**»: أَيْ: لَا تَخْتَارُوا بِهِ خِيَارَ الْمَجَالِسِ وَصُدُورَهَا، «**فَالنَّارُ**»: أَيْ: فَلَهُ النَّارُ، أَوْ: فَيَسْتَحِقُّ النَّارَ، وَ «**النَّارُ**»: مَرْفُوعٌ عَلَىٰ الْأَوَّلِ، مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الثَّانِي[١].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**».

رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٥٣)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٨).

قَالَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدٌ فُؤَادٌ عَبْدُ الْبَاقِي رَحِمَهُ اللهُ فِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٩٣):

(١) «سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٩٣).

«فِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ؛ لِضَعْفِ حَمَّادٍ وَأَبِي كَرْبٍ». وَالْحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ»**.

رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٦٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٨)، وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧).

ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، عَنْ طَالُوتَ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ يَقُولُ: «مَا صَدَقَ اللهَ عَبْدٌ أَحَبَّ الشُّهْرَةَ».

قَالَ الذَّهَبِيُّ: «عَلَامَةُ الْمُخْلِصِ الَّذِي قَدْ يُحِبُّ الشُّهْرَةَ، وَلَا يَشْعُرُ بِهَا، أَنَّهُ إِذَا عُوتِبَ فِي ذَلِكَ، لَا يَحْرَدُ وَلَا يُبَرِّئُ نَفْسَهُ، بَلْ يَعْتَرِفُ، وَيَقُولُ: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إِلَيَّ عُيُوبِي، وَلَا يَكُونُ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ؛ لَا يَشْعُرُ بِعُيُوبِهَا، بَلْ لَا يَشْعُرُ أَنَّهُ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّ هَذَا دَاءٌ مُزْمِنٌ»[1].

وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١/ ٣٦٠) مَوْقُوفًا، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ الْحَنْظَلِيِّ[2] قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ فَقَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي: أَنْ

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧/ ٣٩٣).

(٢) قَالَ الشَّيْخُ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ الْأَعْظَمِيُّ: هُوَ عِنْدِي سَلِيمُ بَنِي قَيْسٍ الْعَامِرِيُّ، ذَكَرَهُ أَبُو حَاتِمٍ مَرَّةً مَنْسُوبًا إِلَىٰ أَبِيهِ، وَأُخْرَىٰ غَيْرَ مَنْسُوبٍ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ غَيْرَ مَنْسُوبٍ =

يُؤْخَذَ الرَّجُلُ مِنْكُمُ الْبَرِيءُ فَيُؤْشَرُ كَمَا يُؤْشَرُ الْجَزُورُ، وَيُشَاطُ لَحْمُهُ كَمَا يُشَاطُ لَحْمُهَا، وَيُقَالُ: عَاصٍ، وَلَيْسَ بِعَاصٍ، قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ وَهُوَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ: وَمَتَىٰ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! أَوْ بِمَ تَشْتَدُّ الْبَلِيَّةُ، وَتَظْهَرُ الْحَمِيَّةُ، وَتُسْبَىٰ الذُّرِّيَّةُ، وَتَدُقُّهُمُ الْفِتَنُ كَمَا تَدُقُّ الرَّحَا ثِفْلَهَا، وَكَمَا تَدُقُّ النَّارُ الْحَطَبَ؟ قَالَ: وَمَتَىٰ ذَلِكَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: إِذَا تُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ «الْمُصَنَّفِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٨).

* **غَرِيبُ الْحَدِيثِ:**

يُؤْشَرُ: يُنْشَرُ، يُقَالُ: أَشَرْتُ الْخَشَبَةَ أَشْرًا، وَوَشَرْتُهَا وَشْرًا، إِذَا شَقَقْتُهَا، مِثْلُ: نَشَرْتُهَا نَشْرًا.

الْجَزُورُ: النَّاقَةُ الْمَجْزُورَةُ، وَالْجَمْعُ: جَزَائِرُ وَجُزُرٌ، وَجَزَرَاتٌ جَمْعُ الْجَمْعِ، كَطُرُقٍ وَطُرُقَاتٍ، وَالْجَزُورُ يَقَعُ عَلَىٰ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَىٰ، وَهُوَ يُؤَنَّثُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَةَ مُؤَنَّثَةٌ، تَقُولُ: هَذِهِ الْجَزُورُ، وَإِنْ أَرَدْتَ ذَكَرًا.

يُشَاطُ: شَيَّطَ فُلَانٌ اللَّحْمَ إِذَا دَخَّنَهُ وَلَمْ يُنْضِجْهُ، وَالتَّشْيِيطُ: لَحْمٌ يُصْلَحُ لِلْقَوْمِ وَيُشْوَىٰ لَهُمْ.

=

إِلَىٰ أَبِيهِ وَنَسَبَهُ عَامِرِيًّا، وَقَدْ حَرَّفَ نَاشِرُو «الْمُسْتَدْرَكِ» فَأَثْبَتُوا: أَبَانَ بْنَ سَلِيمٍ «مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» (١١/ ٣٦٠).

الثِّفَالُ: بِالْكَسْرِ، الْجِلْدُ الَّذِي يُبْسَطُ تَحْتَ رَحَىٰ الْيَدِ؛ لِيَقِيَ الطَّحِينَ مِنَ التُّرَابِ.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهَا تَدُقُّهُمْ دَقَّ الرَّحَىٰ إِذَا كَانَتْ مُثْقَلَةً، وَلَا تُثْقَلُ إِلَّا عِنْدَ الطَّحْنِ.

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ خَلِيلُ هَرَّاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «إِذَا تُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ». أَيْ: إِذَا تَعَلَّمَ النَّاسُ الْفِقْهَ لَا مِنْ أَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْحُصُولِ عَلَىٰ مَنَاصِبِ الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالتَّزَلُّفِ إِلَىٰ الْأُمَرَاءِ»[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ، يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةً، فَإِنْ غُيِّرَتْ يَوْمًا قِيلَ: هَذَا مُنْكَرٌ. قِيلَ: وَمَتَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا قَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ (١/ ٧٥، ٧٦). وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ إِسْنَادَ الدَّارِمِيِّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٨)، وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١/ ٣٥٩) مَوْقُوفًا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بِإِسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ.

*** تَفْسِيرُ الْغَرِيبِ**[٢]:

«**لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ**». يَعْنِي: غَشِيَتْكُمْ وَأَحَاطَتْ بِكُمْ كَمَا يُحِيطُ الثَّوْبُ بِلَابِسِهِ.

---

(١) «التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ» لِلْمُنْذِرِيِّ. ط، د. مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ١٣١).

(٢) انْظُرْ: «التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهِيبَ» تَعْلِيقُ الشَّيْخِ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ١٣١).

«**يَرْبُو**»: يَزِيدُ وَيَنْمُو.

«**يَهْرَمُ**»: يُقَالُ: هَرِمَ يَهْرَمُ. مِنْ بَابِ تَعِبَ، إِذَا شَاخَ وَتَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ.

«**تُتَّخَذُ سُنَّةً**» أَيْ: طَرِيقَةً مُتَّبَعَةً وَمَنْهَجًا مَسْلُوكًا.

«**هَذَا مُنْكَرٌ**» أَيْ: مَعِيبٌ قَبِيحٌ.

«**فُقَهَاؤُكُمْ**» -جَمْعُ فَقِيهٍ-: وَهُوَ الْمُشْتَغِلُ بِفَهْمِ النُّصُوصِ.

«**قُرَّاؤُكُمْ**»: الَّذِينَ يُحْسِنُونَ الْقِرَاءَةَ تَجْوِيدًا وَأَدَاءً.

«**الْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ**» يَعْنِي: جُعِلَ الدِّينُ وَسِيلَةً إِلَىٰ تَحْصِيلِ الدُّنْيَا، وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: مَنِ السِّفْلَةُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ».

وَلِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَامِعِ» بَابٌ مَعْقُودٌ فِي بَيَانِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، قَالَ فِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجِبُ عَلَىٰ طَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يُخْلِصَ نِيَّتَهُ فِي طَلَبِهِ، وَيَكُونَ قَصْدُهُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَلْيَحْذَرْ أَنْ يَجْعَلَهُ سَبِيلًا إِلَىٰ نَيْلِ الْأَعْرَاضِ، وَطَرِيقًا إِلَىٰ أَخْذِ الْأَعْوَاضِ، فَقَدْ جَاءَ الْوَعِيدُ لِمَنِ ابْتَغَىٰ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ.

وَلْيَتَّقِ الْمُفَاخَرَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرِّئَاسَةِ، وَاتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ؛ فَإِنَّ الْآفَةَ الدَّاخِلَةَ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَلْيَجْعَلْ حِفْظَهُ لِلْحَدِيثِ حِفْظَ رِعَايَةٍ، لَا حِفْظَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعُلُومِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهَا قَلِيلٌ، وَرُبَّ حَاضِرٍ كَالْغَائِبِ وَعَالِمٍ كَالْجَاهِلِ، وَحَامِلٍ لِلْحَدِيثِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ، إِذْ كَانَ فِي اطِّرَاحِهِ لِحُكْمِهِ بِمَنْزِلَةِ الذَّاهِبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَائِلُهُ عَنْ عَمَلِهِ فِيمَ طَلَبَهُ، وَمُجَازِيهِ عَلَىٰ عَمَلِهِ بِهِ»[١].

قُلْتُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ عُقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا عَاجِلَةٌ، وَمَحْقٌ لِبَرَكَةِ الْعُمُرِ وَذَهَابٌ لِخَيْرِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَعِقَابٌ أَلِيمٌ.

قَالَ الْحَسَنُ: «عُقُوبَةُ الْعَالِمِ: مَوْتُ الْقَلْبِ. قِيلَ لَهُ: وَمَا مَوْتُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: طَلَبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ».

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَالِمَ مُحِبًّا لِدُنْيَاهُ فَاتَّهِمُوهُ عَلَىٰ دِينِكُمْ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحِبٍّ لِشَيْءٍ يَحُوطُ مَا أَحَبَّ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِيُتَّقَىٰ بِهِ اللهُ، وَإِنَّمَا فُضِّلَ الْعِلْمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ يُتَّقَىٰ اللهُ بِهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «زَيِّنُوا الْعِلْمَ وَلَا تَزَيَّنُوا بِهِ»[٢].

وَأَذْكُرُ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- مِثَالًا يَكُونُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- كَالتَّطْبِيقِ لِمَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ وُجُوبِ الْإِخْلَاصِ فِي الطَّلَبِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَفِيهِ مِنْ مُحَاسَبَةِ

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (١/ ٨١).

(٢) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ (١/ ١٩١).

النَّفْسِ وَتَدْقِيقِ التَّفْتِيشِ عَنْ بَوَاعِثِ الْعَمَلِ وَدَوَافِعِ الطَّلَبِ مَا يَجْمُلُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَأَمَّلَهُ حَتَّىٰ لَا يَلْحَقَهُ فِي طَلَبِهِ رِيَاءٌ وَلَا سُمْعَةٌ.

قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَرْجَمَةِ هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ: «هُوَ الْحَافِظُ، الْحُجَّةُ، الْإِمَامُ، الصَّادِقُ، أَبُو بَكْرٍ، هِشَامُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْبَصْرِيُّ الرَّبَعِيُّ، صَاحِبُ الثِّيَابِ الدَّسْتُوَائِيَّةِ، كَانَ يَتَّجِرُ فِي الْقُمَاشِ الَّذِي يُجْلَبُ مِنْ دَسْتُوَا، وَدَسْتُوَا بُلَيْدَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْأَهْوَازِ».

قَالَ عَوْنُ بْنُ عُمَارَةَ: «سَمِعْتُ هِشَامًا الدَّسْتُوَائِيَّ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ الذَّهَبِيُّ: وَاللهِ وَلَا أَنَا، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلَّهِ فَنَبُلُوا، وَصَارُوا أَئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بِهِمْ، وَطَلَبَهُ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَوَّلًا لَا لِلَّهِ، وَحَصَّلُوهُ، ثُمَّ اسْتَفَاقُوا، وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَرَّهُمُ الْعِلْمُ إِلَىٰ الْإِخْلَاصِ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ وَمَا لَنَا فِيهِ كَبِيرُ نِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللهُ النِّيَّةَ بَعْدُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، فَأَبَىٰ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ».

فَهَذَا أَيْضًا حَسَنٌ، ثُمَّ نَشَرُوهُ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ.

وَقَوْمٌ طَلَبُوهُ بِنِيَّةٍ فَاسِدَةٍ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلِيُثْنَىٰ عَلَيْهِمْ، فَلَهُمْ مَا نَوَوْا، وَتَرَىٰ هَذَا الضَّرْبَ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَا لَهُمْ وَقْعٌ فِي النُّفُوسِ، وَلَا لِعِلْمِهِمْ كَبِيرُ نَتِيجَةٍ مِنَ الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ.

وَقَوْمٌ نَالُوا الْعِلْمَ، وَوُلُّوا بِهِ الْمَنَاصِبَ، فَظَلَمُوا، وَتَرَكُوا التَّقَيُّدَ بِالْعِلْمِ، وَرَكِبُوا الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، فَتَبًّا لَهُمْ، فَمَا هَؤُلَاءِ بِعُلَمَاءَ.

وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَتَّقِ فِي عِلْمِهِ، بَلْ رَكِبَ الْحِيَلَ، وَأَفْتَىٰ بِالرُّخَصِ، وَرَوَىٰ الشَّاذَّ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَبَعْضُهُمُ اجْتَرَأَ عَلَىٰ اللهِ وَوَضَعَ الْأَحَادِيثَ، فَهَتَكَهُ اللهُ، وَذَهَبَ عِلْمُهُ، وَصَارَ زَادُهُ إِلَىٰ النَّارِ.

وَهَؤُلَاءِ الْأَقْسَامُ كُلُّهُمْ رَوَوْا مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا كَبِيرًا، وَتَضَلَّعُوا مِنْهُ فِي الْجُمْلَةِ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ بَانَ نَقْصُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَتَلَاهُمْ قَوْمٌ انْتَمَوْا إِلَىٰ الْعِلْمِ فِي الظَّاهِرِ، وَلَمْ يُتْقِنُوا مِنْهُ سِوَىٰ نَزْرٍ يَسِيرٍ، أَوْهَمُوا بِأَنَّهُمْ عُلَمَاءُ فُضَلَاءُ، وَلَمْ يَدُرْ فِي أَذْهَانِهِمْ قَطُّ أَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ مَا رَأَوْا شَيْخًا يُقْتَدَىٰ بِهِ فِي الْعِلْمِ، فَصَارُوا هَمَجًا رَعَاعًا، غَايَةُ الْمُدَرِّسِ مِنْهُمْ أَنْ يُحَصِّلَ كُتُبًا مُثَمَّنَةً يُخَزِّنُهَا وَيَنْظُرُ فِيهَا يَوْمًا مَا، فَيُصَحِّفُ مَا يُورِدُهُ وَلَا يُقَرِّرُهُ، فَنَسْأَلُ اللهَ النَّجَاةَ وَالْعَفْوَ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أَنَا عَالِمٌ وَلَا رَأَيْتُ عَالِمًا»[١].

وَالْعِلْمُ مِفْتَاحُ الْعَمَلِ وَرَائِدُهُ، وَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يُبْنَىٰ عَلَيْهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُخْلِصَ فِيهِ النِّيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، حَتَّىٰ يَزْكُوَ فَيُثْمِرَ عَمَلًا عَلَىٰ رَجَاءِ الْقَبُولِ وَعَلَىٰ رَجَاءِ الثَّوَابِ.

وَفِي الْحَثِّ عَلَىٰ الْإِخْلَاصِ، وَالتَّنْفِيرِ مِنَ الرِّيَاءِ، وَرَدَتْ جُمْلَةٌ وَافِرَةٌ مِنَ

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧/ ١٥٢).

الْأَحَادِيثِ، تُرَغِّبُ وَتُرَهِّبُ، وَتُبَاعِدُ وَتُقَرِّبُ.

وَمِنْهَا حَدِيثُهُ ﷺ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ وَفَرَائِدِ بَيَانِهِ ﷺ. قَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[(١)].

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَصِحَّتِهِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفِقْهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ رُبُعُ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَىٰ تَصْحِيحِ النِّيَّةِ، وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا عَنِ الْأَئِمَّةِ مُطْلَقًا، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ؛ فَابْتَدَءُوا بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ»[(٢)].

فَيَجِبُ الْإِخْلَاصُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، بِأَنْ يَنْوِيَ الطَّالِبُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يَنْوِيَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ رَفْعَ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ، وَأَنْ يَنْوِيَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ الدِّفَاعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ ضِدَّ هَجَمَاتِ التَّغْرِيبِ وَالتَّشْوِيهِ، وَحَمَلَاتِ الزَّيْفِ وَالتَّشْوِيشِ؛ لِأَنَّ الدِّفَاعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِرِجَالِهَا.

---

(١) «الْبُخَارِيُّ» (١)، وَمُسْلِمٌ (١٩٠٧).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١٣/ ٥٣).

ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّيَرِ»، فِي تَرْجَمَةِ الْإِمَامِ، الْعَلَّامَةِ، الْحَافِظِ، شَيْخِ الْحَرَمِ، عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ، وَسَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَابْنَ جُرَيْجٍ: لِمَنْ طَلَبْتُمُ الْعِلْمَ؟ كُلُّهُمْ يَقُولُ: لِنَفْسِي: غَيْرَ أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ فَإِنَّهُ قَالَ: طَلَبْتُهُ لِلنَّاسِ.

قُلْتُ: مَا أَحْسَنَ الصِّدْقَ! وَالْيَوْمَ تَسْأَلُ الْفَقِيهَ الْغَبِيَّ: لِمَنْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ؟ فَيُبَادِرُ وَيَقُولُ: طَلَبْتُهُ لِلَّهِ، وَيَكْذِبُ إِنَّمَا طَلَبَهُ لِلدُّنْيَا، وَيَا قِلَّةَ مَا عَرَفَ مِنْهُ»(١).

وَذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّيَرِ»، فِي تَرْجَمَةِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ، أَبِي بِسْطَامٍ، شُعْبَةَ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ الْوَرْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ أَبُو قَطَنٍ: سَمِعْتُ شُعْبَةَ بْنَ الْحَجَّاجِ يَقُولُ: مَا شَيْءٌ أَخْوَفَ عِنْدِي مِنْ أَنْ يُدْخِلَنِي النَّارَ مِنَ الْحَدِيثِ.

وَعَنْهُ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي وَقَّادُ حَمَّامٍ(٢)، وَأَنِّي لَمْ أَعْرِفِ الْحَدِيثَ.

قُلْتُ: كُلُّ مَنْ حَاقَقَ نَفْسَهُ فِي صِحَّةِ نِيَّتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ يَخَافُ مِنْ مِثْلِ هَذَا، وَيَوَدُّ أَنْ يَنْجُوَ كِفَافًا»(٣).

●●●

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٦/ ٣٢٨).

(٢) وَقَّادُ الْحَمَّامِ: هُوَ مَنْ يُشْعِلُ النَّارَ؛ لِتَسْخِينِ الْمَاءِ فِي الْحَمَّامِ الْعَامِّ.

(٣) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧/ ٢١٣).



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّامِنَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٢- كِتْمَانُ الْعِلْمِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ الَّذِي يَكْتُمُ مَا أَنْزَلَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مَلْعُونٌ.

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ، فَقِيلَ: أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَرُهْبَانُ النَّصَارَىٰ الَّذِينَ كَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ كَتَمَ الْيَهُودُ أَمْرَ الرَّجْمِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ كُلُّ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ، فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِنْ دِينِ اللهِ يُحْتَاجُ إِلَىٰ بَثِّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾. الْكِنَايَةُ فِي: ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾. تَرْجِعُ إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ، وَ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾. أَيْ: يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ وَيُبْعِدُهُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: عَلَيْكُمْ لَعْنَتِي، كَمَا قَالَ لِلَّعِينِ -أَيْ: إِبْلِيسَ- عَلَيْكَ لَعْنَتِي. وَأَصْلُ اللَّعْنِ فِي اللُّغَةِ: الإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾. قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: الْمُرَادُ بِـ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾: الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا وَاضِحٌ جَارٍ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْكَلَامِ»[١].

وَقَالَ فِي «**عُمْدَةِ التَّفْسِيرِ**»: «هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَىٰ الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْهُدَىٰ النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ.

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَلْعَنُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّىٰ الْحُوتُ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْعُلَمَاءِ فَيَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

وَجَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ يَلْعَنُهُ اللهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ، وَاللَّاعِنُونَ أَيْضًا، وَهُمْ كُلُّ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِيٍّ إِمَّا بِلِسَانِ الْمَقَالِ، أَوِ الْحَالِ، أَوْ لَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ، أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أَيْ: رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ، وَبَيَّنُوا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا كَتَمُوهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ بِعِنَايَةِ د. مُحَمَّد إِبْرَاهِيم الْحِفْنَاوِي، ود. مَحْمُود عُثْمَان. (٢/ ١٨٩).

أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَىٰ كُفْرٍ، أَوْ بِدْعَةٍ إِذَا تَابَ إِلَىٰ اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ لَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ تُقْبَلُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ شَرِيعَةِ نَبِيِّ التَّوْبَةِ وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ»(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَازِلَةً فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَا كَتَمُوا مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِكِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُظْهِرَاتِ لَهُ، ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ الْهِدَايَةُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَتَبَيَّنُ بِهِ طَرِيقُ أَهْلِ النَّعِيمِ، مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْجَحِيمِ، فَإِنَّ اللهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ، بِأَنْ يُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ مَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ وَلَا يَكْتُمُوهُ، فَمَنْ نَبَذَ ذَلِكَ وَجَمَعَ بَيْنَ الْمَفْسَدَتَيْنِ، كَتْمِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَالْغِشِّ لِعِبَادِ اللهِ، فَأُولَئِكَ ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: يُبْعِدُهُمْ وَيَطْرُدُهُمْ عَنْ قُرْبِهِ وَرَحْمَتِهِ.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وَهُمْ جَمِيعُ الْخَلِيقَةِ، فَتَقَعُ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ مِنْ جَمِيعِ الْخَلِيقَةِ، لِسَعْيِهِمْ فِي غِشِّ الْخَلْقِ وَفَسَادِ أَدْيَانِهِمْ، وَإِبْعَادِهِمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، كَمَا أَنَّ مُعَلِّمَ النَّاسِ الْخَيْرَ، يُصَلِّي اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ، حَتَّىٰ الْحُوتُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ؛ لِسَعْيِهِ فِي مَصْلَحَةِ الْخَلْقِ، وَإِصْلَاحِ أَدْيَانِهِمْ،

---

(١) «عُمْدَةُ التَّفْسِيرِ» وَهُوَ مُخْتَصَرُ «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ، اخْتِصَارُ الشَّيْخِ أَحْمَد شَاكِرٍ (١/ ٢٧٩).

وَقُرْبِهِمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَجُوزِيَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، فَالْكَاتِمُ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ، مُضَادٌّ لِأَمْرِ اللهِ، مُشَاقٌّ لِلَّهِ، يُبَيِّنُ اللهُ الْآيَاتِ لِلنَّاسِ وَيُوَضِّحُهَا، وَهَذَا يَسْعَىٰ فِي طَمْسِهَا وَإِخْفَائِهَا، فَهَذَا عَلَيْهِ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: أَيْ رَجَعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، نَدَمًا وَإِقْلَاعًا، وَعَزْمًا عَلَىٰ عَدَمِ الْمُعَاوَدَةِ، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ مَا فَسَدَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَلَا يَكْفِي تَرْكُ الْقَبِيحِ حَتَّىٰ يَحْصُلَ فِعْلُ الْحَسَنِ.

وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي الْكَاتِمِ أَيْضًا، حَتَّىٰ يُبَيِّنَ مَا كَتَمَهُ، وَيُبْدِيَ ضِدَّ مَا أَخْفَىٰ، فَهَذَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ تَوْبَةَ اللهِ غَيْرُ مَحْجُوبٍ عَنْهَا، فَمَنْ أَتَىٰ بِسَبَبِ التَّوْبَةِ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ أَيِ: الرَّجَّاعُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، بَعْدَ الذَّنْبِ إِذَا تَابُوا، وَبِالْإِحْسَانِ وَالنِّعَمِ بَعْدَ الْمَنْعِ، إِذَا رَجَعُوا، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الَّذِي اتَّصَفَ بِالرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٥].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْآيَةَ.

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» ص٥٩.

هَذِهِ الْآيَةُ -وَإِنْ كَانَتْ فِي الْأَحْبَارِ- فَإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ مُخْتَارًا لِذَلِكَ بِسَبَبِ دُنْيَا يُصِيبُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يَعْنِي: عُلَمَاءَ الْيَهُودِ، كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ. وَمَعْنَىٰ ﴿أَنزَلَ﴾: أُظْهِرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ أَيْ: سَأُظْهِرُ. وَقِيلَ: هُوَ عَلَىٰ بَابِهِ مِنَ النُّزُولِ، أَيْ مَا أَنْزَلَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ. ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ أَيْ بِالْمَكْتُومِ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي أَخْذَ الرِّشَاءِ. وَسَمَّاهُ قَلِيلًا؛ لِانْقِطَاعِ مُدَّتِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ، وَقِيلَ: لِأَنَّ مَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الرِّشَاءِ كَانَ قَلِيلًا»[1].

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ، فَمَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالْحُطَامِ الدُّنْيَوِيِّ، وَنَبَذَ أَمْرَ اللهِ، فَأُولَئِكَ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الثَّمَنَ الَّذِي اكْتَسَبُوهُ، إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِأَقْبَحِ الْمَكَاسِبِ، وَأَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بَلْ قَدْ سَخِطَ عَلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، فَهَذَا أَعْظَمُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أَيْ: لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَلَيْسَ لَهُمْ

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٢/ ٢٣٩).

أَعْمَالٌ تَصْلُحُ لِلْمَدْحِ وَالرِّضَا وَالْجَزَاءِ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا لَمْ يُزَكِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ فَعَلُوا أَسْبَابَ عَدَمِ التَّزْكِيَةِ الَّتِي أَعْظَمُ أَسْبَابِهَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ، وَالِاهْتِدَاءُ بِهِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، فَهَؤُلَاءِ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَاخْتَارُوا الضَّلَالَةَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَالْعَذَابَ عَلَىٰ الْمَغْفِرَةِ، فَهَؤُلَاءِ لَا يَصْلُحُ لَهُمْ إِلَّا النَّارُ، فَكَيْفَ يَصْبِرُونَ عَلَيْهَا، وَأَنَّىٰ لَهُمُ الْجَلَدُ عَلَيْهَا؟!»[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْ يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ فَيَكُونُوا عَلَىٰ أُهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللهُ تَابَعُوهُ فَكَتَمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وُعِدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالدُّونِ الطَّفِيفِ وَالْحَظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ، فَبِئْسَ الصَّفْقَةُ صَفْقَتُهُمْ، وَبِئْسَ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ.

وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ؛ فَيُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَيَسْلُكُ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ، فَعَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّالِّ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا»[2].

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» ص٦٥.

(٢) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (١/ ٤٣٦).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: هَذَا مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ الْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيَانِ أَمْرِهِ، فَكَتَمُوا نَعْتَهُ، فَالْآيَةُ تَوْبِيخٌ لَهُمْ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ هُوَ خَبَرٌ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ.

قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هِيَ فِي كُلِّ مَنْ أُوتِيَ عِلْمَ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ، فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَعْلَمْهُ، وَإِيَّاكُمْ وَكِتْمَانَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ هَلَكَةٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا يَحِلُّ لِعَالِمٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ عِلْمِهِ، وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ جَهْلِهِ»(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمِيثَاقُ: هُوَ الْعَهْدُ الثَّقِيلُ الْمُؤَكَّدُ، وَهَذَا الْمِيثَاقُ أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الْكُتُبَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ وَلَا يَكْتُمُهُمْ ذَلِكَ وَيَبْخَلَ عَلَيْهِمْ بِهِ، خُصُوصًا إِذَا سَأَلُوهُ، أَوْ وَقَعَ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ يَجِبُ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنْ يُبَيِّنَهُ، وَيُوَضِّحَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ.

فَأَمَّا الْمُوَفَّقُونَ، فَقَامُوا بِهَذَا أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَعَلَّمُوا النَّاسَ مِمَّا عَلَّمَهُمُ اللهُ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَىٰ الْخَلْقِ، وَخَوْفًا مِنْ إِثْمِ الْكِتْمَانِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَمَنْ شَابَهَهُمْ، فَنَبَذُوا هَذِهِ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، فَلَمْ يَعْبَئُوا بِهَا فَكَتَمُوا الْحَقَّ، وَأَظْهَرُوا الْبَاطِلَ،

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٤/ ٣١٣).

وَتَجَرَّءُوا عَلَىٰ مَحَارِمِ اللهِ، وَتَهَاوُنًا بِحُقُوقِ اللهِ، وَحُقُوقِ الْخَلْقِ، وَاشْتَرَوْا بِذَلِكَ الْكِتْمَانِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَهُوَ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ -إِنْ حَصَلَ- مِنْ بَعْضِ الرِّيَاسَاتِ، وَالْأَمْوَالِ الْحَقِيرَةِ، مِنْ سِفْلَتِهِمُ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ، الْمُقَدِّمِينَ شَهَوَاتِهِمْ عَلَىٰ الْحَقِّ، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لِأَنَّهُ أَخَسُّ الْعِوَضِ، وَالَّذِي رَغِبُوا عَنْهُ، وَهُوَ بَيَانُ الْحَقِّ، الَّذِي فِيهِ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَالْمَصَالِحُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، أَعْظَمُ الْمَطَالِبِ وَأَجَلُّهَا، فَلَمْ يَخْتَارُوا الدُّونَ الْخَسِيسَ وَيَتْرُكُوا الْعَالِيَ النَّفِيسَ، إِلَّا لِسُوءِ حَظِّهِمْ وَهَوَانِهِمْ، وَكَوْنِهِمْ لَا يَصْلُحُونَ لِغَيْرِ مَا خُلِقُوا لَهُ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ -مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ وَمُؤَدِّبًا لِأُمَّتِهِ ﷺ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْمَعْنَىٰ: بَلِّغْ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، فَإِنْ كَتَمْتَ شَيْئًا مِنْهُ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَهَذَا تَأْدِيبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَأْدِيبٌ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ لَا يَكْتُمُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ شَرِيعَتِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَمْرِ نَبِيِّهِ أَنَّهُ لَا يَكْتُمُ شَيْئًا مِنْ وَحْيِهِ»(٢).

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص١٢٧).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٢٣٠).

رَسُولَ اللهِ ﷺ كتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾»[1].

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، فَلَا تُصَدِّقْهُ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾»[2].

تِلْكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي التَّرْهِيبِ مِنْ كِتْمَانِ الْعِلْمِ وَفِي الْأَمْرِ بِتَبْلِيغِهِ، فَهِمَهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَىٰ وَجْهِهَا، وَأَعْطَوْهَا حَقَّهَا فَلَمْ يُفَرِّطُوا وَمَا كَانُوا مُتَخَاذِلِينَ، بَلْ عَمِلُوا عَلَىٰ وَفْقِ الَّذِي عَلِمُوا فَكَانُوا بِفَضْلِ اللهِ سَابِقِينَ.

وَمِنْ نَمَاذِجِ فَهْمِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَهُمَا يُحَدِّثَانِ بِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠]»[3].

---

(١) «مُسْلِمٌ» ١٧٧.

(٢) «الْبُخَارِيُّ» (٤٣٣٦).

(٣) «الْبُخَارِيُّ» (١١٨).

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «لَوْلَا آيَتَانِ». مَعْنَاهُ: وَمَعْنَاهُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ ذَمَّ الْكَاتِمِينَ لِلْعِلْمِ مَا حَدَّثَ أَصْلًا، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكِتْمَانُ حَرَامًا وَجَبَ الْإِظْهَارُ، فَلِهَذَا حَصَلَتِ الْكَثْرَةُ لِكَثْرَةِ مَا عِنْدَهُ»(١).

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ -تَعْلِيقًا مَجْزُومًا بِهِ- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَىٰ هَذِهِ -وَأَشَارَ إِلَىٰ قَفَاهُ- ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّىٰ أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا»(٢).

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: (وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ....) إِلَخْ هَذَا التَّعْلِيقُ رُوِّينَاهُ مَوْصُولًا فِي مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْزَاعِيِّ، حَدَّثَنِي أَبُو كَثِيرٍ -يَعْنِي مَالِكَ بْنَ مَرْثَدٍ- عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَىٰ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ يَسْتَفْتُونَهُ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تَنْهَ عَنِ الْفُتْيَا؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: أَرَقِيبٌ أَنْتَ عَلَيَّ؟ لَوْ وَضَعْتُمْ... فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وَرُوِّينَاهُ فِي «الْحِلْيَةِ» مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي خَاطَبَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَنَّ الَّذِي نَهَاهُ عَنِ الْفُتْيَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفَ مَعَ مُعَاوِيَةَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: نَزَلَتْ فِيهِمْ

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٥٩).

(٢)أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، فِي كِتَابِ الْعِلْمِ، بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (١/ ٣٨).

وَفِينَا، فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَىٰ عُثْمَانَ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ أَبِي ذَرٍّ، فَحَصَلَتْ مُنَازَعَةٌ أَدَّتْ إِلَىٰ انْتِقَالِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ الْمَدِينَةِ فَسَكَنَ الرَّبَذَةَ -بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْمُوَحَّدَةِ وَالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ- إِلَىٰ أَنْ مَاتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ كَانَ لَا يَرَىٰ بِطَاعَةِ الْإِمَامِ إِذَا نَهَاهُ عَنِ الْفُتْيَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَعَلَّهُ -أَيْضًا- سَمِعَ الْوَعِيدَ فِي حَقِّ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ.

«**وَالصَّمْصَامَةُ**»-**بِمُهْمَلَتَيْنِ الْأُولَىٰ مَفْتُوحَةٌ**-: هُوَ السَّيْفُ الصَّارِمُ الَّذِي لَا يَنْثَنِي، وَقِيلَ: الَّذِي لَهُ حَدٌّ وَاحِدٌ.

قَوْلُهُ: «هَذِهِ»، إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْقَفَا، وَهُوَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَ «أُنْفِذُ» أَيْ: أُمْضِي، وَ «تُجِيزُوا» -بِضَمِّ الْمُثَنَّاةِ وَكَسْرِ الْجِيمِ وَبَعْدَ الْيَاءِ زَايٌ- أَيْ: تُكْمِلُوا قَتْلِي، وَنَكَّرَ «كَلِمَةً»؛ لِيَشْمَلَ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ، وَالْمُرَادُ بِهِ يُبَلِّغُ مَا تَحَمَّلَهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَلَا يَنْتَهِي عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ أَشْرَفَ عَلَىٰ الْقَتْلِ.

وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَىٰ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ فِيهِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الْأَذَىٰ طَلَبًا لِلثَّوَابِ»[1].

وَقَدْ حَرَصَ الْأَئِمَّةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عَلَىٰ أَنْ يُذَكِّرُوا الطُّلَّابَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ ضَرُورَةَ التَّبْلِيغِ، وَيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ خَطَرِ الْكِتْمَانِ، يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ:

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ١٩٤).

«وَلْيُفِدْ -أَيْ: طَالِبُ الْعِلْمِ- غَيْرَهُ مِنَ الطَّلَبَةِ، وَلَا يَكْتُمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، فَقَدْ جَاءَ الزَّجْرُ عَنْ ذَلِكَ»(١).

وَمِمَّا جَاءَ فِي الزَّجْرِ عَنْ ذَلِكَ مَا سَلَفَ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٦٥٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٢/ ٤١١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٤٩)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢/ ٣٣٦)، وَابْنُ مَاجَهْ (٢٦٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ (٩٦)، وَالْحَاكِمُ (١/ ١٠٢)، وَقَالَ: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ الْمِصْرِيِّينَ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ». وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَىٰ «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ» (١/ ٢٥٧)، وَنَأْخُذُ عَلَيْهِمَا -أَيِ: الْحَاكِمِ وَالذَّهَبِيِّ- أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَيَّاشٍ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ، فَالْحَدِيثُ عَلَىٰ شَرْطِهِ وَحْدَهُ، وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْمُنْذِرِيُّ فِي «التَّرْغِيبِ» وَنَسَبَهُ لِابْنِ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ فَقَطْ، وَذَكَرَهُ

(١) «الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ» (ص١٣٣).

الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١/ ١٦٣)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَ «الْأَوْسَطِ»، وَرِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ، ثُمَّ لَا يُحَدِّثُ بِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الْكَنْزَ، فَلَا يُنْفِقُ مِنْهُ**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»[(١)]، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ»[(٢)]، وَفِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣٤٧٩).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمُمْسِكُ عَنِ الْكَلَامِ مُمَثَّلٌ بِمَنْ أَلْجَمَ نَفْسَهُ، كَمَا يُقَالُ: التَّقِيُّ مُلَجَّمٌ[(٣)]. وَكَقَوْلِ النَّاسِ: كَلَّمَ فُلَانٌ فُلَانًا فَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِحُجَّةٍ أَلْجَمَتْهُ، أَيْ: أَسْكَتَتْهُ.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْمُلَجَّمَ لِسَانُهُ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْعِلْمِ وَالْإِظْهَارِ لَهُ؛ يُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ.

وَخُرِّجَ هَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ مُشَاكَلَةِ الْعُقُوبَةِ لِلذَّنْبِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وَهَذَا فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَلْزَمُهُ تَعْلِيمُهُ إِيَّاهُ، وَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ فَرْضُهُ، كَمَنْ رَأَىٰ كَافِرًا

---

(١) «الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ» لِلطَّبَرَانِيِّ ط. دَارُ الْحَرَمَيْنِ (١/ ٢١٣) رَقْمُ (٦٨٩).

(٢) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١٦٠).

(٣) أَيْ: تُلْجِمُهُ تَقْوَاهُ، فَهِيَ لَهُ لِجَامٌ مُمْسِكٌ عَنِ الْبَاطِلِ وَاللَّغْوِ.

يُرِيدُ الْإِسْلَامَ، ويَقُولُ: عَلِّمُونِي مَا الْإِسْلَامُ؟ وَمَا الدِّينُ؟ وَكَمَنْ رَأَىٰ رَجُلًا حَدِيثَ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ لَا يُحْسِنُ الصَّلَاةَ، وَقَدْ حَضَرَ وَقْتُهَا، وَيَقُولُ: عَلِّمُونِي كَيْفَ أُصَلِّي؟ وَكَمَنْ جَاءَ مُسْتَفْتِيًا فِي حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، يَقُولُ: أَفْتُونِي، أَرْشِدُونِي، فَإِنَّهُ يَلْزَمُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ لَا يَمْنَعُوا الْجَوَابَ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ وَيَتَرَتَّبُ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ آثِمًا مُسْتَحِقًّا لِلْوَعِيدِ وَالْعُقُوبَةِ[١] وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي نَوَافِلِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا ضَرُورَةَ لِلنَّاسِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا».

وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**»[٢]. فَقَالَ: «كُلُّ عَمَلٍ كَانَ عَلَيْكَ فَرْضًا فَطَلَبُ عِلْمِهِ عَلَيْكَ فَرْضٌ، وَمَا لَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ بِهِ عَلَيْكَ فَرْضًا فَلَيْسَ طَلَبُ عِلْمِهِ عَلَيْكَ وَاجِبًا»[٣].

---

(١) قَالَ الشَّيْخُ حَامِد الْفِقِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَعْلِيقِهِ: «وكذلك إذا عمَّ الناس الجاهلية، وغلبت عليهم الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة، والعادات الخبيثة -كشأن الناس اليوم فقد غلبت عليهم تقاليد الفرنجة وعقائد الكفرة وعاداتهم ومبادئهم الهادمة للدين والخلق والكرامة- فإن من أوجب الواجب علىٰ أهل العلم الموروث عن النبي ﷺ أن يبذلوا أقصىٰ جهدهم في نشره وتعليمه أهليهم وإخوانهم وعشيرتهم وأممهم؛ لعل الله ينقذ الناس مما هم فيه من ضلال وغضب، والله المستعان وحده».

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٢٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٤).

(٣) «مُخْتَصَرُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَ «مَعَالِمُ السُّنَنِ» وَ «تَهْذِيبُ ابْنِ الْقَيِّمِ»، تَحْقِيقُ الشَّيْخِ أَحْمَد شَاكِر، وَالشَّيْخِ حَامِدِ الْفِقِي (٥/ ٢٥١).

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «كَانَ أَبُو أُمَامَةَ، يُحَدِّثُنَا فَيُكْثِرُ، ثُمَّ يَقُولُ: عَقَلْتُمْ؟ فَنقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: بَلِّغُوا عَنَّا فَقَدْ بَلَّغْنَاكُمْ.

وَعَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: كُنَّا إِذَا وَدَّعْنَا مَالِكًا يَقُولُ لَنَا: اتَّقُوا اللهَ، وَانْشُرُوا هَذَا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ وَلَا تَكْتُمُوهُ»[١].

وَلَكِنَّ تَبْلِيغَ الْعِلْمِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيَجُوزُ كِتْمَانُ الْعِلْمِ عَنْهُ.

قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَبْلِيغُ الْعِلْمِ وَاجِبٌ وَلَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، وَلَكِنَّهُمْ خَصَّصُوا ذَلِكَ بِأَهْلِهِ، وَأَجَازُوا كِتْمَانَهُ عَمَّنْ لَا يَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِأَخْذِهِ، وَعَمَّنْ يُصِرُّ عَلَىٰ الْخَطَإِ بَعْدَ إِخْبَارِهِ بِالصَّوَابِ.

سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَلَمْ يُجِبْ، فَقَالَ السَّائِلُ: أَمَا سَمِعْتَ الْحَدِيثَ: «**مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»؟! فَقَالَ: اتْرُكِ اللِّجَامَ وَاذْهَبْ، فَإِنْ جَاءَ مَنْ يَفْقَهُ وَكَتَمْتُهُ فَلْيُلْجِمْنِي بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَصَفَّحْ طُلَّابَ عِلْمِكَ، كَمَا تَتَصَفَّحُ طُلَّابَ حُرُمِكَ»[٢].

◉ ◉ ◉

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٢٣).

(٢) «الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ» (ص١٣٣).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة التَّاسِعَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٣- الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ

الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ هُوَ عَيْنُ الْكَذِبِ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ، وَلَمْ يُبِحِ اللهُ ﷻ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، حَتَّىٰ قَالَ عَنْ خَلِيلِهِ وَصَفِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَدْ عَصَمَهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أَيْ: مُحَمَّدٌ ﷺ لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا فَزَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَنَسَبَهُ إِلَيْنَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا قَالَ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ نِيَاطُ الْقَلْبِ، وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أَيْ: فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَىٰ أَنْ يَحْجُزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْمَعْنَىٰ فِي هَذَا بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ مُقَرِّرٌ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ، وَمُؤَيِّدٌ لَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ»(١).

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٤/ ٤١٥).

وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾. أَيْ: افْتَرَىٰ عَلَيْنَا. وَسَمَّىٰ الْكَذِبَ تَقَوُّلًا؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَكَلَّفٌ، كَمَا تُشْعِرُ بِهِ صِيغَةُ التَّفَعُّلِ. وَ﴿ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ إِمَّا جَمْعُ قَوْلٍ عَلَىٰ غَيْرِ الْقِيَاسِ، أَوْ جَمْعُ الْجَمْعِ كَالْأَنَاعِيمِ، جَمْعُ أَقْوَالٍ وَأَنْعَامٍ. قِيلَ: تَسْمِيَةُ الْأَقْوَالِ الْمُفْتَرَاةِ: أَقَاوِيلَ تَحْقِيرًا لَهَا، كَأَنَّهَا جَمْعُ أُفْعُولَةٍ مِنَ الْقَوْلِ، كَالْأَضَاحِيكِ.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْقُوَّةِ مِنَّا وَالْقُدْرَةِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ نِيَاطَ الْقَلْبِ؛ وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَا يُؤَخِّرُهُ بِهَا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَدِ الْيُمْنَىٰ مِنْ يَدَيْهِ. قَالَ: وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَقَوْلِ ذِي السُّلْطَانِ إِذَا أَرَادَ الِاسْتِخْفَافَ بِبَعْضِ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ لِبَعْضِ أَعْوَانِهِ: خُذْ بِيَدِهِ فَأَقِمْهُ، وَافْعَلْ بِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالُوا: وَكَذَلِكَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أَيْ: لَأَهَنَّاهُ، كَالَّذِي يَفْعَلُ بِالَّذِي وَصَفْنَا حَالَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾. أَيْ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْجُزُنَا عَنْهُ، وَيَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عُقُوبَتِهِ، لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا»(١).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «الْمَعْنَىٰ: لَوِ ادَّعَىٰ عَلَيْنَا شَيْئًا لَمْ نَقُلْهُ لَقَتَلْنَاهُ صَبْرًا، كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ بِمَنْ يَتَكَذَّبُ عَلَيْهِمْ، مُعَالَجَةً بِالسُّخْطِ وَالِانْتِقَامِ. فَصَوَّرَ قَتْلَ الصَّبْرِ

---

(١) «مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ» لِلْقَاسِمِيِّ (٤/ ٤١٥).

بِصُورَتِهِ لِيَكُونَ أَهْوَلَ، وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ بِيَدِهِ، وَتُضْرَبَ رَقَبَتُهُ؛ وَخَصَّ الْيَمِينَ عَنِ الْيَسَارِ؛ لِأَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوقِعَ الضَّرْبَ فِي قَفَاهُ أَخَذَ بِيَسَارِهِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُوقِعَهُ فِي جِيدِهِ، وَأَنْ يَكْفَحَهُ بِالسَّيْفِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَىٰ الْمَصْبُورِ، لِنَظَرِهِ إِلَىٰ السَّيْفِ، أَخَذَ بِيَمِينِهِ.

فَمَعْنَىٰ ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ لَقَطَعْنَا وَتِينَهُ، وَهَذَا بَيِّنٌ»(١).

قَالَ الْقَاسِمِيُّ: «وَمَا قَرَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ أَبْلَغُ فِي الْمُرَادِ، وَهُوَ بَيَانُ الْمُعَاقَبَةِ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ، إِذْ عَلَىٰ الْأَوَّلِ يَفُوتُ التَّصْوِيرُ وَالتَّفْصِيلُ وَالْإِجْمَالُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ بَعْدَ ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ﴾ بَيَانٌ بَعْدَ الْإِبْهَامِ، وَيَصِيرُ قَوْلُهُ: ﴿مِنۡهُ﴾ زَائِدًا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَيُرْتَكَبُ الْمَجَازُ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ أَيْضًا»(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

---

(١) الْقَتْلُ صَبْرًا: كَقَتْلِ الْأَسِيرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَنَحْوِهِ. «مُعْجَمُ لُغَةِ الْفُقَهَاءِ» لِلدُّكْتُور مُحَمَّد رَوَّاس، وَالدُّكْتُور حَامِد صَادِق. (ص٣٥٧).

(٢) «مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ» (٩/ ٣١٥).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ، ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أَيْ: اخْتَلَقَ، عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَيَّ﴾ فَزَعَمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ هَذَا النَّمَطِ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْفِقْهِ وَالسُّنَنِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ مِنَ السُّنَنِ فَيَقُولُ: وَقَعَ فِي خَاطِرِي كَذَا، أَوْ أَخْبَرَنِي قَلْبِي بِكَذَا، فَيَحْكُمُونَ بِمَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَوَاطِرِهِمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لِصَفَائِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ وَخُلُوِّهَا مِنَ الْأَغْيَارِ، فَتَتَجَلَّىٰ لَهُمُ الْعُلُومُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْحَقَائِقُ الرَّبَّانِيَّةُ، فَيَقِفُونَ عَلَىٰ أَسْرَارِ الْكُلِّيَّاتِ، وَيَعْلَمُونَ أَحْكَامَ الْجُزْئِيَّاتِ فَيَسْتَغْنُونَ بِهَا عَنْ أَحْكَامِ الشَّرَائِعِ الْكُلِّيَّاتِ، وَيَقُولُونَ: هَذِهِ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ الْعَامَّةُ، إِنَّمَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَىٰ الْأَغْبِيَاءِ وَالْعَامَّةِ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ وَأَهْلُ الْخُصُوصِ، فَلَا يَحْتَاجُونَ لِتِلْكَ النُّصُوصِ»(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ: لَا أَحَدَ أَعْظَمُ ظُلْمًا وَلَا أَكْبَرُ جُرْمًا مِمَّنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ بِأَنْ نَسَبَ إِلَىٰ اللهِ قَوْلًا أَوْ حُكْمًا وَهُوَ تَعَالَىٰ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا أَظْلَمَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ فِيهِ مِنَ الْكَذِبِ وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَا هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَفَاسِدِ»(٢).

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (٧/ ٤١).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» لِلسَّعْدِيِّ (ص٢٢٦).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٦-١١٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَهَىٰ تَعَالَىٰ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِي حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وَصَفُوهُ وَاصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِآرَائِهِمْ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَيْسَ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللهُ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللهُ بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ أَوْ تَشَهِّيهِ. ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»[1].

وَيَدْخُلُ فِي الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ: الْكَذِبُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وَإِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَكَأَنَّمَا كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَيْهِ ﷺ لَيْسَ كَالْكَذِبِ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ عَلَيْهِ ﷺ يَجْعَلُ دِينًا مَا لَيْسَ بِدِينٍ، وَيَنْفِي عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مِنْهُ، وَيُحِلُّ الْحَرَامَ، وَيُحَرِّمُ الْحَلَالَ، وَكَفَىٰ بِذَلِكَ إِثْمًا مُبِينًا، وَإِفْكًا عَظِيمًا.

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٢/ ٥٩٠).

قَالَ ﷺ -فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْهُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

«**لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ أَحَدٍ**»: لِأَنَّهُ كَذِبٌ فِي التَّشْرِيعِ، وَأَثَرُهُ عَامٌّ عَلَىٰ الْأُمَّةِ، فَإِثْمُهُ أَكْبَرُ، وَعِقَابُهُ أَشَدُّ، «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»: فَلْيَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مَسْكَنًا[(٢)].

وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثُ التَّحْذِيرِ مِنَ الْكَذِبِ عَلَيْهِ ﷺ مُتَوَاتِرًا عَنْهُ، وَفِي هَذَا إِقَامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يُسْنِدَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مَا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ، أَوْ يُقَوِّلَهُ مَا لَمْ يَقُلْهُ.

وَالْخَبَرُ الْمُتَوَاتِرُ هُوَ: مَا رَوَاهُ عَدَدٌ كَثِيرٌ تُحِيلُ الْعَادَةُ تَوَاطُؤَهُمْ وَاتِّفَاقَهُمْ عَلَىٰ الْكَذِبِ؛ أَيْ: هُوَ الْحَدِيثُ أَوِ الْخَبَرُ الَّذِي يَرْوِيهِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ سَنَدِهِ رُوَاةٌ كَثِيرُونَ يَحْكُمُ الْعَقْلُ عَادَةً بِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ أُولَئِكَ الرُّوَاةُ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَىٰ اخْتِلَاقِ هَذَا الْخَبَرِ.

وَالْمُتَوَاتِرُ يُفِيدُ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ، أَيْ: الْيَقِينِيَّ الَّذِي يَضْطَرُّ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ بِهِ تَصْدِيقًا جَازِمًا كَمَنْ يُشَاهِدُ الْأَمْرَ بِنَفْسِهِ، كَيْفَ يَتَرَدَّدُ فِي تَصْدِيقِهِ؟ فَكَذَلِكَ الْخَبَرُ الْمُتَوَاتِرُ؛ لِذَلِكَ كَانَ الْمُتَوَاتِرُ كُلُّهُ مَقْبُولًا، وَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْبَحْثِ عَنْ أَحْوَالِ رُوَاتِهِ[(٣)].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٢٩)، وَمُسْلِمٌ (٤).

(٢) انْظُرْ: تَعْلِيقَ د. مُصْطَفَىٰ الْبُغَا عَلَىٰ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (١/ ٤٣٤).

(٣) انْظُرْ: «تَيْسِيرَ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ» د. مَحْمُود الطَّحَّان (ص١٧).

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «**لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ**»: هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ كَاذِبٍ، مُطْلَقٌ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْكَذِبِ، وَمَعْنَاهُ: لَا تَنْسِبُوا الْكَذِبَ إِلَيَّ.

وَلَا مَفْهُومَ لِقَوْلِهِ: «**عَلَيَّ**»؛ لِأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُكْذَبَ لَهُ؛ لِنَهْيِهِ عَنْ مُطْلَقِ الْكَذِبِ.

وَقَدِ اغْتَرَّ قَوْمٌ مِنَ الْجَهَلَةِ فَوَضَعُوا أَحَادِيثَ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَقَالُوا: نَحْنُ لَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِ، بَلْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لِتَأْيِيدِ شَرِيعَتِهِ، وَمَا دَرَوْا أَنَّ تَقْوِيلَهُ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْهُ يَقْتَضِي الْكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُ إِثْبَاتُ حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْإِيجَابِ أَمْ فِي النَّدْبِ، وَكَذَا مُقَابِلُهُمَا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْمَكْرُوهُ.

وَلَا يُعْتَدُّ بِمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ مِنَ الْكَرَّامِيَّةِ؛ حَيْثُ جَوَّزُوا وَضْعَ الْكَذِبِ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فِي تَثْبِيتِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ كَذِبٌ لَهُ لَا عَلَيْهِ، وَهُوَ جَهْلٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: «**فَلْيَلِجِ النَّارَ**»: جَعَلَ الْأَمْرَ بِالْوُلُوجِ مُسَبَّبًا عَنِ الْكَذِبِ؛ لِأَنَّ لَازِمَ الْأَمْرِ الْإِلْزَامُ، وَالْإِلْزَامُ بِوُلُوجِ النَّارِ سَبَبُهُ الْكَذِبُ عَلَيْهِ، أَوْ هُوَ بِلَفْظِ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ، وَيُؤَيِّدُهُ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ غُنْدَرٍ عَنْ شُعْبَةَ بِلَفْظِ:

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٠٦)، وَمُسْلِمٌ (١).

«**مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ**»[(١)][(٢)].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٣)].

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ: «**فَلْيَتَبَوَّأْ**»: أَيْ: فَلْيَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا، يُقَالُ: تبَوَّأَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ إِذَا اتَّخَذَهُ سَكَنًا، وَهُوَ أَمْرٌ بِمَعْنَىٰ الْخَبَرِ، أَوْ بِمَعْنَىٰ التَّهْدِيدِ، أَوْ بِمَعْنَىٰ التَّهَكُّمِ، أَوْ دُعَاءٌ عَلَىٰ فَاعِلِ ذَلِكَ، أَيْ: بَوَّأَهُ اللهُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَأْمُرْ نَفْسَهُ بِالتَّبَوُّءِ، قَالَ -أَيِ: الْحَافِظُ- وَأَوَّلُهَا -أَيْ: أَوَّلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ- أُولَاهَا»[(٤)].

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ: فَلْيَنْزِلْ. وَقِيلَ: فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَصْلُهُ مِنْ مَبَاءَةِ الْإِبِلِ، وَهِيَ أَعْطَانُهَا، ثُمَّ قِيلَ: إِنَّهُ دُعَاءٌ بِلَفْظِ الْأَمْرِ، أَيْ: بَوَّأَهُ اللهُ ذَلِكَ، وَكَذَا «**فَلْيَلِجِ النَّارَ**»، وَقِيلَ: هُوَ خَبَرٌ بِلَفْظِ الْأَمْرِ، أَيْ مَعْنَاهُ: فَقَدِ اسْتَوْجَبَ ذَلِكَ، فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

---

(١) مُقَدِّمَةُ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١/ ٩).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٠٨)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ (١/ ١٠).

(٣) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٤٣).

(٤) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٤١).

وَمَعْنَىٰ الْحَدِيثِ: أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ، وَقَدْ يُجَازَىٰ بِهِ وَقَدْ يَعْفُو اللهُ الْكَرِيمُ عَنْهُ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ بِدُخُولِ النَّارِ، وَهَكَذَا سَبِيلُ كُلِّ مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ بِالنَّارِ لِأَصْحَابِ الْكَبَائِرِ، فَكُلُّهَا يُقَالُ فِيهَا: هَذَا جَزَاؤُهُ، وَقَدْ يُجَازَىٰ وَقَدْ يُعْفَىٰ عَنْهُ، ثُمَّ إِنْ جُوزِيَ وَأُدْخِلَ النَّارَ، فَلَا يُخَلَّدُ فِيهَا، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ خُرُوجِهِ مِنْهَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مَاتَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ»(١).

وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ ﷻ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ تَحْرِيمًا صَرِيحًا، فَقَالَ -بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ أَنْوَاعَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَبَعْضُهَا أَغْلَظُ مِنْ بَعْضٍ-: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، هُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ.

فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ:

- مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ.

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١/ ٦٨).

- وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا عَارِضًا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، ثُمَّ انتقل مِنهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾.

ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللهِ وَأَشَدُّهَا إِثْمًا، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ وَنِسْبَتَهُ إِلَىٰ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَالَ مَا حَقَّقَهُ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالَاهُ وَمُوَالَاةَ مَنْ عَادَاهُ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْهُ وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا وَهُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٌ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَحَذَّرُوا فِتْنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالِغُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ؛ إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدَعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ.

وَقَدْ أَنْكَرَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَنْ نَسَبَ إِلَىٰ دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ

لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦] الْآيَةَ.

فَكَيْفَ بِمَنْ نَسَبَ إِلَىٰ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟ أَوْ نَفَىٰ عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟!

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ لَمْ أُحِلَّ هَذَا وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا.

يَعْنِي التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ: هُوَ الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ فَإِنَّ الْمُشْرِكَ يَزْعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ.

فَكُلُّ مُشْرِكٍ قَائِلٌ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ دُونَ الْعَكْسِ؛ إِذِ الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ قَدْ يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِ اللهِ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُوجِبًا لِدُخُولِ النَّارِ وَاتِّخَاذِ مَنْزِلَةٍ مِنْهَا مُبَوَّءًا، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ لَا يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ؛ لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ كَصَرِيحِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَا انْضَافَ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَىٰ الْمُرْسِلِ وَالْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ صَرِيحُ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟!

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ.

وَأَتَىٰ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا وَيَحُضُّ عَلَيْهَا فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ وَكَثْرَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا وَلَا تَرَىٰ صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا»(١).

وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، بَلْ جَعَلَهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فَرَتَّبَ الْمُحَرَّمَاتِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ، وَبَدَأَ بِأَسْهَلِهَا وَهُوَ الْفَوَاحِشُ، ثُمَّ ثَنَّىٰ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ وَهُوَ الْإِثْمُ وَالظُّلْمُ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْهُمَا وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ رَبَّعَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَهَذَا يَعُمُّ الْقَوْلَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَفِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ تَحْقِيق: مُحَمَّد حَامِد الْفِقِي (١/ ٣٧٢).

﴿حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧].

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِالْوَعِيدِ عَلَىٰ الْكَذِبِ عَلَيْهِ فِي أَحْكَامِهِ، وَقَوْلِهِمْ لِمَا لَمْ يُحَرِّمْهُ: هَذَا حَرَامٌ، وَلِمَا لَمْ يُحِلَّهُ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا بَيَانٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ إِلَّا بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَلَّهُ وَحَرَّمَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ كَذَا، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، لَمْ أُحِلَّ كَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ كَذَا؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ وُرُودَ الْوَحْيِ الْمُبِينِ بِتَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ أَحَلَّهُ اللهُ وَحَرَّمَهُ اللهُ لِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ.

وَقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَمِيرَهُ بُرَيْدَةَ أَنْ يُنَزِّلَ عَدُوَّهُ إِذَا حَاصَرَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَقَالَ: «**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ وَحُكْمِ أَصْحَابِكَ**».

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ فَرَّقَ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ الْأَمِيرِ الْمُجْتَهِدِ، وَنَهَىٰ أَنْ يُسَمَّىٰ حُكْمُ الْمُجْتَهِدِينَ حُكْمَ اللهِ.

وَمِنْ هَذَا لَمَّا كَتَبَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حُكْمًا حَكَمَ بِهِ فَقَالَ: هَذَا مَا أَرَىٰ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ، فَقَالَ: لَا تَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: هَذَا مَا رَأَىٰ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ وَلَا مَنْ مَضَىٰ مِنْ سَلَفِنَا، وَلَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا أَقْتَدِي بِهِ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، وَمَا كَانُوا يَجْتَرِئُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: نَكْرَهُ كَذَا، وَنَرَىٰ هَذَا حَسَنًا؛ فَيَنْبَغِي هَذَا، وَلَا نَرَىٰ هَذَا، وَرَوَاهُ عَنْهُ عَتِيقُ بْنُ يَعْقُوبَ، وَزَادَ: وَلَا يَقُولُونَ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ الْحَلَالُ: مَا أَحَلَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[1].

وَقَالَ الشَّيْخُ حَامِدٌ الْفِقِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ نَفْسِهِ: «إِنَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ إِلَىٰ الشِّرْكِ: هِيَ الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَذَلِكَ بِزَعْمِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ سَدَّ بَابَ الْفِقْهِ فِي كَلَامِهِ وَرِسَالَةِ رُسُلِهِ عَلَىٰ الْعَامَّةِ، وَفَتَحَهُ لِطَائِفَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ لِقِلَّةٍ مِنَ النَّاسِ، زَعَمُوهُمْ رِجَالَ الدِّينِ الْمُحْتَكِرِينَ لَهُ صِنَاعَةً، وَأَنَّ فَرْضًا عَلَىٰ الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ هَؤُلَاءِ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ فِي الدِّينِ، فَلَمَّا زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ هَذَا، وَقَبِلُوهُ، أَثْمَرَ اتِّخَاذُ أَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَشَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَسَوَّوْهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي حَقِّ التَّشْرِيعِ لِمَا يُصْلِحُ النَّاسَ، وَيَهْدِيهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ إِلَىٰ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

وَمَا زَالُوا يَقُولُونَ فِي اللهِ وَعَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ؛ حَتَّىٰ اعْتَقَدُوا لِبَعْضِ الْبَشَرِ الْقَدَاسَةَ الذَّاتِيَّةَ، وَأَنَّ فِيهِمْ شَيْئًا مِنْ خَوَاصِّ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ، سَمَّاهُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ نُورًا.

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (١/ ٣٨)

فَأَثْمَرَ ذَلِكَ اتِّخَاذَ مَوْتَاهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ، يُقِيمُونَ عَلَىٰ قُبُورِهِمْ وَآثَارِهِمُ الْقِبَابَ وَالْأَصْنَامَ، وَالْأَوْثَانَ؛ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي شَرَعَهَا لَهُمْ أَرْبَابُهُمْ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ.

وَالطَّرِيقُ تَبْدَأُ مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَىٰ لِلْآبَاءِ وَالشُّيُوخِ، وَاسْتِحْسَانِ الرَّأْيِ وَالْهَوَىٰ، وَتَمْشِي حَتَّىٰ تَرُوجَ الْبِدْعَةُ، ثُمَّ الْقَوْلُ فِي اللهِ وَعَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ثُمَّ اتِّخَاذُ الْمَوْتَىٰ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ، وَأَبْنَائِهِ؛ لِأَنَّهُمْ نُورٌ انْبَثَقَ مِنْهُ، فَتُعْطِيهِمْ مِنَ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ مَا لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْقَوِيِّ الْعَزِيزِ»[1].

◉ ◉ ◉



(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (ج١) هَامِش (ص٣٧٣).

٤- الدَّعْوَى فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ

الْعِلْمُ مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِأَصْحَابِ الْقُلُوبِ النَّقِيَّةِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا.

وَهُوَ مِحْنَةٌ لِلَّذِينَ يَبْتَغُونَ بِأَعْمَالِهِمْ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ، وَيُرِيدُونَ بِسَعْيِهِمْ غَيْرَ مَقْصِدِهِ؛ لِذَلِكَ تَكْثُرُ مِنْهُمُ الدَّعَاوَىٰ وَيَتَأَتَّىٰ مِنْهُمُ الْفَخْرُ، وَلَوْ فَطِنُوا لَعَادُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَأَنَّ اللهَ أَخْرَجَ النَّاسَ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، ثُمَّ هُوَ عَلَّمَهُمْ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الْعِلْمِ، وَبِمَا رَزَقَهُمْ مِنْ مِنْحَةِ الْفَهْمِ، وَبِمَا مَنَّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ تَذْلِيلٍ لِلْعَوَائِقِ الْقَائِمَةِ فِي سَبِيلِ الطَّلَبِ، وَمِنْ صَرْفٍ لِلْمَوَانِعِ الشَّاغِلَةِ عَنِ التَّحْصِيلِ.

ذَكَرَ تَعَالَىٰ مِنَّتَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرْزُقُهُمُ السَّمْعَ الَّذِي يُدْرِكُونَ بِهِ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يَحُسُّونَ الْمَرْئِيَّاتِ، وَالْأَفْئِدَةَ وَهِيَ الْعُقُولُ، وَهَذِهِ الْقُوَىٰ، وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَىٰ التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا، كُلَّمَا كَبُرَ زِيدَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

وَإِنَّمَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ؛ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَىٰ، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَىٰ طَاعَةِ مَوْلَاهُ[1].

---

(١) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٢/ ٥).

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَزْدَادَ قُرْبًا مِنْ رَبِّهِ كُلَّمَا ازْدَادَ عِلْمًا، وَهَذَا مِنْ أَدَبِ الْعَالِمِ، وَحَقِيقٌ بِهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ؛ إِذِ الْعِلْمُ دَاعِيَةٌ إِلَىٰ الْخُضُوعِ لِلَّهِ، وَتَرْكِ الدَّعْوَىٰ، وَعَدَمِ ذَوْقِ طَعْمِ النَّفْسِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ مِنْ نِعَمِهِ أَنْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ أَطْفَالًا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِشَيْءٍ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. أَيِ: الَّتِي تَعْلَمُونَ بِهَا وَتُدْرِكُونَ»[1].

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ أَدَبِ الْعَالِمِ تَرْكُ الدَّعْوَىٰ لِمَا لَا يُحْسِنُهُ، وَتَرْكُ الْفَخْرِ بِمَا يُحْسِنُهُ، إِلَّا أَنْ يَضْطَرَّ إِلَىٰ ذَلِكَ كَمَا اضْطَرَّ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِحَضْرَتِهِ مَنْ يَعْرِفُ حَقَّهُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ فِيهِ وَيُعْطِيهِ بِقِسْطِهِ، وَرَأَىٰ هُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَقْعَدَ لَا يَقْعُدُهُ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ وَقْتِهِ إِلَّا قَصَّرَ عَمَّا يَجِبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ مِنْ حُقُوقِهِ فَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا السَّعْيُ فِي ظُهُورِ الْحَقِّ بِمَا أَمْكَنَهُ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَجَائِزٌ لِلْعَالِمِ حِينَئِذٍ الثَّنَاءُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَالتَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَوْضِعِهِ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ تَحَدَّثَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ عِنْدَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الشُّكْرِ لَهَا.

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٠/ ١٥٨).

وَأَفْضَحُ مَا يَكُونُ لِلْمَرْءِ دَعْوَاهُ بِمَا لَا يَقُومُ بِهِ، وَقَدْ عَابَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَقَالُوا فِيهِ نَظْمًا وَنَثْرًا»(١).

وَفِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَدَلَّتِ الْآيَةُ أَيْضًا عَلَىٰ جَوَازِ أَنْ يَخْطُبَ الْإِنْسَانُ عَمَلًا يَكُونُ لَهُ أَهْلًا؛ فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»(٢).

فَالْجَوَابُ:

أَوَّلًا: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا طَلَبَ الْوِلَايَةَ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ وَتَوْصِيلِ الْفُقَرَاءِ إِلَىٰ حُقُوقِهِمْ، فَرَأَىٰ أَنَّ ذَلِكَ فَرْضٌ مُتَعَيِّنٌ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُهُ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ الْيَوْمَ، لَوْ عَلِمَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَقُومُ بِالْحَقِّ فِي الْقَضَاءِ أَوِ الْحِسْبَةِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَصْلُحُ وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ لَتَعَيَّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَوَجَبَ أَنْ يَتَوَلَّاهَا وَيَسْأَلَ ذَلِكَ، وَيُخْبِرَ بِصِفَاتِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْكِفَايَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَمَّا لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٨)، ومسلم (١٦٥٢)، وَ«**وُكِلْتَ إِلَيْهَا**»: أُسْلِمْتَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَكَ إِعَانَةٌ.

يَقُومُ بِهَا وَيَصْلُحُ لَهَا وَعَلِمَ بِذَلِكَ فَالْأَوْلَىٰ أَلَّا يَطْلُبَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: «**لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ**».

وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي سُؤَالِهَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا مَعَ الْعِلْمِ بِكَثْرَةِ آفَاتِهَا وَصُعُوبَةِ التَّخَلُّصِ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَطْلُبُهَا لِنَفْسِهِ وَلِأَغْرَاضِهِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا يُوشِكُ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَيَهْلِكَ؛ وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «**وُكِلَ إِلَيْهَا**»، وَمَنْ أَبَاهَا لِعِلْمِهِ بِآفَاتِهَا، وَلِخَوْفِهِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِهَا فَرَّ مِنْهَا، ثُمَّ إِنِ ابْتُلِيَ بِهَا فَيُرْجَىٰ لَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «**أُعِينَ عَلَيْهَا**».

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنِّي حَسِيبٌ كَرِيمٌ، وَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ**»، وَلَا قَالَ: إِنِّي جَمِيلٌ مَلِيحٌ، إِنَّمَا قَالَ: ﴿**إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾، فَسَأَلَهَا بِالْحِفْظِ وَالْعِلْمِ، لَا بِالنَّسَبِ وَالْجَمَالِ.

الثَّالِثُ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ فَأَرَادَ تَعْرِيفَ نَفْسِهِ، وَصَارَ ذَلِكَ مُسْتَثْنًىٰ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

الرَّابِعُ: أَنَّهُ رَأَىٰ ذَلِكَ فَرْضًا مُتَعَيِّنًا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ -أَيْضًا- عَلَىٰ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِمَا فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَفَضْلٍ؛ قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَلَيْسَ هَذَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ فِي عُمُومِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنَّهُ

مَخْصُوصٌ فِيمَا اقْتَرَنَ بِوَصْلِهِ، أَوْ تَعَلَّقَ بِظَاهِرٍ مِنْ مَكْسَبٍ، وَمَمْنُوعٌ مِنْهُ فِيمَا سِوَاهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَزْكِيَةٍ وَمُرَاءَاةٍ»(١).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «قَوْلُهُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾: وَلِّنِي خَزَائِنَ أَرْضِكَ، ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أَمِينٌ أَحْفَظُ مَا تَسْتَحْفِظُنِيهِ، عَالِمٌ بِوُجُوهِ التَّصَرُّفِ؛ وَصْفًا لِنَفْسِهِ بِالْأَمَانَةِ وَالْكِفَايَةِ اللَّتَيْنِ هُمَا طُلْبَةُ الْمُلُوكِ مِمَّنْ يُوَلُّونَهُ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَىٰ إِمْضَاءِ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ، وَبَسْطِ الْعَدْلِ، وَالتَّمَكُّنِ مِمَّا لِأَجْلِهِ تُبْعَثُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَىٰ الْعِبَادِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ، فَطَلَبَ التَّوْلِيَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لَا لِحُبِّ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا»(٢).

فَيُوسُفُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ الْمُكْرَمِينَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-، يُرِيدُ أَنْ يُمْضِيَ حُكْمَ اللهِ، وَيُقِيمَ الْحَقَّ، وَيَبْسُطَ الْعَدْلَ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ، فَطَلَبَ التَّوْلِيَةَ لِذَلِكَ لَا لِحَظِّ نَفْسِهِ.

وَقَدْ أَدَّبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- نَبِيَّهُ وَكَلِيمَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ؛ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْأَدَبِ الْعَالِي الشَّرِيفِ، وَعَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ الْخَضِرِ مَا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ، وَبَيَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِبَيَانِهِ.

بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» بَابَ: «مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَىٰ اللهِ».

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (٩/ ٢٢١).

(٢) «الْكَشَّافُ» لِلزَّمَخْشَرِيِّ (٢/ ٣٢٨).

وَأَخْرَجَهُ بِسَنَدِهِ -وَكَذَا مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ- عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «قَامَ مُوسَىٰ النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.

فَانْطَلَقَ وَانطلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّىٰ كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا؛ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّىٰ جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ. قَالَ مُوسَىٰ: ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ -أَوْ قَالَ: تَسَجَّىٰ بِثَوْبِهِ- فَسَلَّمَ مُوسَىٰ، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. فَقَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. يَا مُوسَىٰ، إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ. قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ

الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ. فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ -فَكَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا- فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ. فَقَالَ مُوسَىٰ: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ. قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ. فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»[١].

* غَرِيبُ الْحَدِيثِ:

«أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ»: أَيْ: مِنْهُمْ، عَلَىٰ حَدِّ «اللهُ أَكْبَرُ»، أَيْ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

«أَنَا أَعْلَمُ»: أَيْ: فِي اعْتِقَادِهِ.

«فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ»: لَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ، وَأَصْلُ الْعَتْبِ: الْمُؤَاخَذَةُ.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ: (٧٨، ١٢٢، ٢١٤٧، ٢٥٧٨) وَغَيْرِهَا، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٠).

«**لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ**»: أَيْ: كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ: «اللهُ أَعْلَمُ».

«**بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ**»: مُلْتَقَىٰ الْبَحْرَيْنِ.

«**حُوتًا**»: الْحُوتُ: السَّمَكَةُ، وَكَانَتْ سَمَكَةً مَالِحَةً كَمَا صُرِّحَ بِهِ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ.

«**مِكْتَلٍ**»: وِعَاءٌ يُشْبِهُ الزِّنْبِيلَ، يَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا.

«**فَهُوَ ثَمَّ**»: أَيْ: فَالْعَبْدُ الْأَعْلَمُ مِنْكَ هُنَاكَ.

«**فَتَاهُ**»: صَاحِبُهُ.

«**فَانْسَلَّ**»: خَرَجَ بِرِفْقٍ وَخِفَّةٍ.

«**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ**»: طَرِيقَهُ.

«**سَرَبًا**»: مَسْلَكًا يَسْلُكُ فِيهِ.

«**نَصَبًا**»: تَعَبًا.

«**مَسًّا**»: أَثَرًا.

«**مُسَجًّىٰ**»: مُغَطًّىٰ كُلُّهُ.

«**وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟**»: أَيْ: مِنْ أَيْنَ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ فِيهَا السَّلَامُ؟!

«**رُشْدًا**»: أَيْ: عِلْمًا ذَا رُشْدٍ أُرْشَدُ بِهِ فِي دِينِي.

«**النَّوْلُ**»: الْأُجْرَةُ.

«**فَعَمِدَ**»: قَصَدَ.

«**إِمْرًا**»: عَظِيمًا.

«**زَكِيَّةً**»: طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ زَاكِيَةٍ.

«**بِغَيْرِ نَفْسٍ**»: بِغَيْرِ قَصَاصٍ لَكَ عَلَيْهَا.

«**نُكْرًا**»: مُنْكَرًا.

«**يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ**»: يَكَادُ يَسْقُطُ.

«**قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ**»: أَشَارَ بِهَا.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ**». أَيْ: كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ مَخْلُوقَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]»(١).

وَقَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «بَابُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ»: أَيْ: مِنْ غَيْرِهِ، وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: «**فَيَكِلَ**» تَفْسِيرِيَّةٌ بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ فِعْلَ الْمُضَارِعِ بِتَقْدِيرِ الْمَصْدَرِ، أَيْ: مَا يُسْتَحَبُّ عِنْدَ السُّؤَالِ هُوَ الْوُكُولُ، وَفِي رِوَايَةٍ «أَنْ يَكِلَ» وَهُوَ أَوْضَحُ.

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١٥/ ١٣٧).

قَوْلُهُ ﷺ: «**أَنَا أَعْلَمُ**»: فِي جَوَابِ «**أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟**»، قِيلَ: إِنَّهُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ فِي الرِّوَايَةِ السَّابِقَةِ فِي بَابِ الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ قَالَ: «**هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟**». وَعِنْدِي لَا مُخَالَفَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُنَا: «**أَنَا أَعْلَمُ**» أَيْ: فِيمَا أَعْلَمُ، فَيُطَابِقُ قَوْلُهُ «**لَا**» فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ لَهُ: «**هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟**» فِي إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَىٰ عِلْمِهِ لَا إِلَىٰ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ بِلَفْظِ: «**مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا أَوْ أَعْلَمَ مِنِّي**».

قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: ظَنَّ ابْنُ بَطَّالٍ أَنَّ تَرْكَ مُوسَىٰ الْجَوَابَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَانَ أَوْلَىٰ. قَالَ: وَعِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَعَيِّنٌ أَجَابَ أَوْ لَمْ يُجِبْ، فَلَوْ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ**» لَمْ تَحْصُلِ الْمُعَاتَبَةُ، وَإِنَّمَا عُوتِبَ عَلَىٰ اقْتِصَارِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَيْ: لِأَنَّ الْجَزْمَ يُوهِمُ أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ الْإِخْبَارُ بِمَا فِي عِلْمِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، وَالْعَتْبُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ لَا عَلَىٰ مَعْنَاهُ الْعُرْفِيِّ فِي الْآدَمِيِّينَ كَنَظَائِرِهِ.

وَتَعَقَّبَ ابْنُ الْمُنِيرِ عَلَىٰ ابْنِ بَطَّالٍ إِيرَادَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَثِيرًا مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الدَّعْوَىٰ فِي الْعِلْمِ، وَالْحَثَّ عَلَىٰ قَوْلِ الْعَالِمِ: لَا أَدْرِي، بِأَنَّ سِيَاقَ مِثْلِ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ غَيْرُ لَائِقٍ، وَهُوَ كَمَا قَالَ رَحِمَهُ اللهُ. قَالَ: وَلَيْسَ قَوْلُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَا أَعْلَمُ كَقَوْلِ آحَادِ النَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَا نَتِيجَةَ قَوْلِهِ كَنَتِيجَةِ

قَوْلِهِمْ؛ فَإِنَّ نَتِيجَةَ قَوْلِهِمْ الْعُجْبُ وَالْكِبْرُ، وَنَتِيجَةَ قَوْلِهِ الْمَزِيدُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَثُّ عَلَىٰ التَّوَاضُعِ وَالْحِرْصُ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ»(١).

قُلْتُ: وَمَا سُقْتُ حَدِيثَ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ فِي آفَةِ «الدَّعْوَىٰ فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ» مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَعَتْ مِنْهُ الدَّعْوَىٰ، حَاشَا وَكَلَّا، بَلْ هُوَ أَرْفَعُ مَقَامًا، وَأَرْسَخُ عِلْمًا، وَأَعْلَىٰ كَعْبًا، وَأَبَرُّ نَفْسًا، وَأَتْقَىٰ قَلْبًا مِنْ هَذَا، بَلْ هُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ. وَإِنَّمَا سُقْتُهُ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَتَبَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ ادِّعَاءٌ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَوَقَعَ مِنْهُ الِادِّعَاءُ؟!

وَقَدْ كَانَ عُلَمَاؤُنَا السَّابِقُونَ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أَبَرَّ النَّاسِ قُلُوبًا، وَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا، وَأَغْزَرَهُمْ عِلْمًا، وَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَسْتَحِي أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُهُ: لَا أَعْلَمُهُ، وَلَا لِمَا لَا يَدْرِيهِ: لَا أَدْرِيهِ. كَيْفَ وَالْمَلَائِكَةُ لَمْ تَسْتَحِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

أَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، جِئْتُكَ مِنْ مَسِيرَةِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، حَمَّلَنِي أَهْلُ بَلَدِي مَسْأَلَةً أَسْأَلُكَ عَنْهَا.

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٦٤).

قَالَ: سَلْ. فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَ: لَا أُحْسِنُهَا. قَالَ: فَبُهِتَ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَىٰ مَنْ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ لِأَهْلِ بَلَدِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْهِمْ؟ قَالَ: تَقُولُ لَهُمْ: قَالَ مَالِكٌ لَا أُحْسِنُهُ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا وَذَكَرَ قَوْلَ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ: لِأَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ جَاهِلًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَقَدْ خَصَّهُ اللهُ بِمَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ، يَقُولُ: لَا أَدْرِي.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَيِّدَ الْعَالَمِينَ، يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ فَلَا يُجِيبُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِذَا أَخْطَأَ الْعَالِمُ: «لَا أَدْرِي» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ»(١).

قُلْتُ: وَهَذَا مُنْقَطِعٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ؛ فَإِنَّ مَالِكًا لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَلَكِنَّهُ وَصَلَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ «لَا أَعْلَمُ» فَقَدْ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ، وَيَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ هُوَ الْأَنْصَارِيُّ رَوَىٰ عَنْهُ مَالِكٌ وَلَكِنَّ الرَّازِيَّ لَمْ يَذْكُرْ لَهُ رِوَايَةً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا [الْجَرْحُ وَالتَّعْدِيلُ (٩/ ١٤٩)].

فَهَذَا شَأْنُ الْعُلَمَاءِ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ فِي تَرْكِ الدَّعْوَىٰ لِمَا لَا يُحْسِنُونَهُ، وَفِي هَضْمِ النَّفْسِ وَبَذْلِ النُّصْحِ، حَتَّىٰ إِنَّ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا،

---

(١) جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (٢/ ٥٣).

فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُخْطِئَ، وَمَا فِي قَلْبِي مِنْ عِلْمٍ، إِلَّا وَدِدْتُ أَنَّهُ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَيَّ».

وَعَنِ الرَّبِيعِ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَذَكَرَ مَا وَضَعَ مِنْ كُتُبِهِ، فَقَالَ: «لَوَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ تَعَلَّمُهُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ أَبَدًا».

وَعَنْ حَرْمَلَةَ بْنِ يَحْيَىٰ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: «وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ، تَعَلَّمَهُ النَّاسُ: أُوجَرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْمَدُونِي»[١].

وَقَدْ تَوَعَّدَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ الدَّعْوَةِ فِي الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ فِي النَّارِ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ.

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبِحَارِ، وَحَتَّىٰ تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟**». ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ، مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**».

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَالْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ لَا بَأْسَ بِهِ، وَرَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَالطَّبَرَانِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَحَسَّنَ الْأَلْبَانِيُّ رِوَايَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَذَا رِوَايَةَ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٥٨).

---

(١) آدَابُ الشَّافِعِيِّ وَمَنَاقِبُهُ (ص٩١).

«**تَخْتَلِفُ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ**»: يَكْثُرُ ذَهَابُهُمْ وَمَجِيئُهُمْ فِيهِ لِلتِّجَارَةِ.

«**تَخُوضُ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» يَعْنِي: تَعْبُرُ لُجَّةَ الْمَاءِ غَازِيَةً فِي سَبِيلِ اللهِ.

«... **مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا**»؟ يُعْجَبُونَ بِتَفَوُّقِهِمْ فِي ذَلِكَ؛ حَتَّىٰ يُفْسِدَهُمُ الْعُجْبُ وَيُحْبِطَ عَمَلَهُمْ.

«**وَقُودُ النَّارِ**»: الْوَقُودُ -بِفَتْحِ الْوَاوِ-: مَا تُوقَدُ بِهِ النَّارُ مِنْ حَطَبٍ أَوْ حِجَارَةٍ، وَأَمَّا الْوُقُودُ -بِالضَّمِّ- فَمَصْدَرٌ(١).

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ؛ فَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ ﷺ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِعَالَمِ الْغَيْبِ مِمَّا أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَآتٍ لَا مَحَالَةَ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ لَيْلَةً بِمَكَّةَ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -وَكَانَ أَوَّاهًا- فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، وَحَرَّضْتَ، وَجَهَدْتَ، وَنَصَحْتَ. فَقَالَ: «**لَيَظْهَرَنَّ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يَرُدَّ الْكُفْرَ إِلَىٰ مَوَاطِنِهِ، وَلَتُخَاضَنَّ الْبِحَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ فَيُعَلِّمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا وَعَلَّمْنَا، فَمَنَ ذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ**

---

(١) انْظُرْ: تَعْلِيقَ د/ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ١٥٣).

فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**».

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ -أَيْضًا- فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ (١/ ٥٨).

«أَوَّاهًا» الْمُتَأَوِّهُ: الْمُتَضَرِّعُ. وَقِيلَ: هُوَ الْكَثِيرُ الْبُكَاءِ، وَقِيلَ: الْكَثِيرُ الدُّعَاءِ، كَمَا فِي النِّهَايَةِ.

وَالْقَوْلُ الْأَخِيرُ هُوَ أَحَدُ الْأَقْوَالِ الَّتِي قِيلَتْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]. وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ»[١].

«**اللَّهُمَّ نَعَمْ**» يَعْنِي: أَنَّ عُمَرَ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ وَصَدَّقَهُ، وَهِيَ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«**لَيَظْهَرَنَّ الْإِيمَانُ**»: مِنَ الظُّهُورِ بِمَعْنَىٰ الْعُلُوِّ وَالْغَلَبَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤]. أَيْ: غَالِبِينَ.

«**حَتَّىٰ يَرُدَّ الْكُفْرَ إِلَىٰ مَوَاطِنِهِ**» يَعْنِي: يَنْخَذِلُ أَمَامَ الْإِيمَانِ، وَيَتَقَهْقَرُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

«**وَلَتُخَاضَنَّ الْبِحَارُ بِالْإِسْلَامِ**» أَيْ: لَيَرْكَبَنَّ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ الْبِحَارَ غَازِينَ فَاتِحِينَ.

---

(١) انْظُرْ: «التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهِيبَ»، (١/ ٥٨).

«يَتَعَلَّمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ» يَعْنِي: تَرُوجُ سُوقُ الْعِلْمِ وَالْقِرَاءَةِ؛ بِسَبَبِ وَفْرَةِ الطُّمَأْنِينَةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ.

«فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟» يَعْنِي: أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ أَصْلًا، فَإِنَّ الْعُجْبَ قَدْ أَتَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ فَأَفْسَدَهُ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ[1].

قَالَ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَلِيِّ بْنِ نَصْرٍ الْمَالِكِيُّ:

مَتَىٰ يَصِلُ الْعِطَاشُ إِلَىٰ ارْتِوَاءٍ ... إِذَا اسْتَقَتِ الْبِحَارُ مِنَ الرَّكَايَا؟

وَمَنْ يُثْنِي الْأَصَاغِرَ عَنْ مُرَادٍ ... إِذَا جَلَسَ الْأَكَابِرُ فِي الزَّوَايَا

وَإِنْ تَرَفُّعَ الْوُضَعَاءِ يَوْمًا ... عَلَىٰ الرُّفَعَاءِ مِنْ إِحْدَىٰ الرَّزَايَا

إِذَا اسْتَوَتِ الْأَسَافِلُ وَالْأَعَالِي ... فَقَدْ طَابَتْ مُنَادَمَةُ الْمَنَايَا

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْفَالِيُّ:

لَمَّا تَبَدَّلَتِ الْمَجَالِسُ أَوْجُهًا ... غَيْرَ الَّذِي عَهِدَتْهُ مِنْ عُلَمَائِهَا

وَرَأَيْتُهَا مَحْفُوفَةً بِسِوَىٰ الْأُلَىٰ ... كَانُوا وُلَاةَ صُدُورِهَا وَفِنَائِهَا

أَنْشَدْتُ بَيْتًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا ... وَالْعَيْنُ قَدْ شَرِقَتْ بِجَارِي مَائِهَا

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَىٰ نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

---

(١) انْظُرْ: تَعْلِيقَ د/ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ١٥٤).

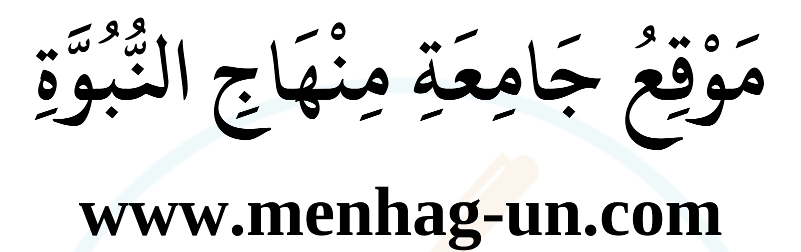
وَقَالَ الْفَالِيُّ أَيْضًا:

تَصَــدَّرَ لِلتَّــدْرِيسِ كُــلُّ مُهَــوِّسٍ ... بَلِيــدٍ تَسَــمَّىٰ بِالْفَقِيــهِ الْمُــدَرِّسِ

فَحُــقَّ لِأَهْــلِ الْعِلْــمِ أَنْ يَتَمَثَّلُــوا ... بِبَيْتٍ قَـدِيمٍ شَاعَ فِي كُـلِّ مَجْلِسِ

لَقَـدْ هَزُلَـتْ حَتَّـىٰ بَـدَا مِـنْ هُزَالِهَـا ... كُلَاهَـا وَحَتَّـىٰ سَـامَهَا كُـلُّ مُفْلِسِ

***



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْعَاشِرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٥- إِذْلَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ

لَقَدْ قَعَّدَ السَّلَفُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- قَاعِدَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الْجَامِعَةِ، فَقَالُوا: «الْعِلْمُ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا يَأْتِي إِلَىٰ أَحَدٍ».

لَمَّا قَدِمَ هَارُونُ الرَّشِيدُ -أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ- بَعَثَ إِلَىٰ مَالِكٍ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ: يَبْلُغُ أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنَّكَ بَعَثْتَ إِلَىٰ مَالِكٍ فَلَمْ يَأْتِكَ، ابْعَثْ إِلَيْهِ مَنْ يَأْتِيكَ بِهِ كَرْهًا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَتَاهُ مَالِكٌ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: يَا بْنَ أَبِي عَامِرٍ، أَبْعَثُ إِلَيْكَ فَتُخَالِفُنِي! فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]. وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرٌ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ مَا قَدْ عَلِمْتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا أَدْرِي**». وَقَلَمِي رَطْبٌ مَا جَفَّ، حَتَّىٰ وَقَعَ فَخِذُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[1]. يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَرْفٌ وَاحِدٌ بُعِثَ بِهِ جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسَةِ آلَافِ عَامٍ، أَلَا يَنْبَغِي أَنْ أُعِزَّهُ وَأُجِلَّهُ؟!

---

(١) الْبُخَارِيُّ (٢٦٧٧)، وَمُسْلِمٌ (١٨٩٨). وَتُرَضُّ: تُدَقُّ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَفَعَكَ وَجَعَلَكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِعِلْمِكَ، فَلَا تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَضَعُ عِزَّ الْعِلْمِ فَيَضَعُ اللهُ عِزَّكَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: تَأْتِينَا حَتَّىٰ نَتَعَلَّمَ عَلَيْكَ وَنَسْمَعَ مِنْكَ.

قَالَ: أَصْلَحَكَ اللهُ، **إِنَّ الْعِلْمَ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ وَلَا يَأْتِي**. قَالَ: نَأْتِي وَتَمْنَعُ النَّاسَ حَتَّىٰ نَنْصَرِفَ. قَالَ: **إِذَا مُنِعَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَامَّةِ لَمْ يَنْفَعِ اللهُ بِهِ الْخَاصَّةَ وَلَا الْعَامَّةَ**.

قَالَ لَهُ: فَتَقْرَأُ عَلَيَّ إِذَا أَتَيْتَ. قَالَ لَهُ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا، وَلَا أَقْرَأُ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالَ: فَتَجْعَلُ مَنْ يَقْرَأُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. قَالَ: ذَلِكَ لَكَ.

فَذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَىٰ مَنْزِلِ مَالِكٍ، وَأَجْلَسَ مَالِكًا عَلَىٰ الْمَنَصَّةِ الَّتِي يَجْلِسُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَسْمَعَ الْحَدِيثَ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَدْرَكْتُ أَهْلَ بَلَدِنَا إِلَّا وَهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لِلَّهِ، فَنَزَلَ الرَّشِيدُ عَنِ الْمَنَصَّةِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ؛ تَوَاضُعًا لِعِلْمِهِ وَانْقِيَادًا لِقَوْلِهِ.

وَهَكَذَا ذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَىٰ مَنْزِلِ مَالِكٍ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَسَمِعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْقَارِئُ مَعْنَ بْنَ عِيسَىٰ الْفَزَارِيَّ[1].

مَا كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ أَعَزَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، الْمُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَىٰ النَّاسِ، وَالْعُلَمَاءُ حُكَّامٌ عَلَىٰ الْمُلُوكِ، وَكَيْفَ لَا وَعِنْدَهُمْ مِيرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَسَبَبُهُمْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَثِيقٌ مَتِينٌ؟!

---

(١) انْظُرْ: «الْإِمَامُ مَالِكٌ» لِلدُّكْتُور مَحْمُود عَبْد الْمُتَجَلِّي خَلِيفَة (ص٥٠).

أَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «كَانَ خِيَارُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ وَالْمَنْظُورُ إِلَيْهِمْ فِي الدِّينِ، الَّذِينَ يَقُومُونَ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: وُلَاةَ أُمُورِهِمْ- فَيَأْمُرُونَهُمْ وَيَنْهَوْنَهُمْ، وَكَانَ آخَرُونَ يَلْزَمُونَ بُيُوتَهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ، وَكَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهِمْ وَلَا يُذْكَرُونَ، ثُمَّ بَقِينَا حَتَّىٰ صَارَ الَّذِينَ يَأْتُونَهُمْ فَيَأْمُرُونَهُمْ شِرَارَ النَّاسِ، وَالَّذِينَ لَزِمُوا بُيُوتَهُمْ وَلَمْ يَأْتُوهُمْ خِيَارَ النَّاسِ»[١].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ إِنَّمَا هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ، وَإِعْزَازُ الْعِلْمِ وَسَطٌ بَيْنَ إِذْلَالِهِ وَالتَّجَبُّرِ بِهِ.

وَقَدْ تَشْتَبِهُ الْمَهَانَةُ بِالتَّوَاضُعِ، وَالْمَذَلَّةُ بِالْخُشُوعِ، كَمَا قَدْ يَشْتَبِهُ التَّكَبُّرُ بِالصِّيَانَةِ وَالتَّجَبُّرُ بِالْإِبَاءِ، فَاحْتَاجَ الْأَمْرُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَوْضِيحٍ.

*** الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْمَهَانَةِ:**

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْمَهَانَةِ: أَنَّ التَّوَاضُعَ يَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ الْعِلْمِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ وَتَفَاصِيلِهَا وَعُيُوبِ عَمَلِهَا وَآفَاتِهَا، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ خُلُقٌ هُوَ التَّوَاضُعُ.

وَهُوَ: انْكِسَارُ الْقَلْبِ لِلَّهِ، وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، فَلَا يَرَىٰ لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ فَضْلًا، وَلَا يَرَىٰ لَهُ عِنْدَ أَحَدٍ حَقًّا، بَلْ يَرَىٰ الْفَضْلَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ، وَالْحُقُوقَ لَهُمْ قِبَلَهُ، وَهَذَا خُلُقٌ إِنَّمَا يُعْطِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُقَرِّبُهُ.

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٨٤).

وَأَمَّا الْمَهَانَةُ: فَهِيَ الدَّنَاءَةُ وَالْخِسَّةُ، وَبَذْلُ النَّفْسِ وَابْتِذَالُهَا فِي نَيْلِ حُظُوظِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَتَوَاضُعِ السُّفَّلِ فِي نَيْلِ شَهَوَاتِهِمْ، وَتَوَاضُعِ الْمَفْعُولِ بِهِ لِلْفَاعِلِ، وَتَوَاضُعِ طَالِبِ كُلِّ حَظٍّ لِمَنْ يَرْجُو نَيْلَ حَظِّهِ مِنْهُ، فَهَذَا كُلُّهُ ضَعَةٌ لَا تَوَاضُعٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ التَّوَاضُعَ وَيُبْغِضُ الضَّعَةَ وَالْمَهَانَةَ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ ﷺ: «**وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»(١).

*** وَالتَّوَاضُعُ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:**

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: تَوَاضُعُ الْعَبْدِ عِنْدَ أَمْرِ اللهِ امْتِثَالًا وَعِنْدَ نَهْيِهِ اجْتِنَابًا، فَإِنَّ النَّفْسَ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ تَتَلَكَّأُ فِي أَمْرِهِ، فَيَبْدُو مِنْهَا نَوْعُ إِبَاءٍ وَشِرَادٍ هَرَبًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَثْبُتُ عِنْدَ نَهْيِهِ طَلَبًا لِلظَّفَرِ بِمَا مَنَعَ مِنْهُ، فَإِذَا وَضَعَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَقَدْ تَوَاضَعَ لِلْعُبُودِيَّةِ

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: تَوَاضُعُهُ لِعَظَمَةِ الرَّبِّ وَجَلَالِهِ، وَخُضُوعُهُ لِعِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، فَكُلَّمَا شَمَخَتْ نَفْسُهُ ذَكَرَ عَظَمَةَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَتَفَرُّدَهُ بِذَلِكَ وَغَضَبَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ مَنْ نَازَعَهُ ذَلِكَ، فَتَوَاضَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَانْكَسَرَ لِعَظَمَةِ اللهِ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّ لِهَيْبَتِهِ، وَأَخْبَتَ لِسُلْطَانِهِ، فَهَذَا غَايَةُ التَّوَاضُعِ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَالْمُتَوَاضِعُ حَقِيقَةً مَنْ رُزِقَ الْأَمْرَيْنِ»(٢).

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٦٥).

(٢) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٣).

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ عِزِّ الْعِلْمِ وَنُفُورِ الْعُلَمَاءِ مِنْ إِذْلَالِهِ مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالُوا عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، حَتَّىٰ نَبَغَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ، فَقَالُوا فِي صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا قَالُوا، وَقِيلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ مَقَالَةٌ تَحْتَ سِتْرٍ مَا دَامَتْ دَوْلَةُ الرَّشِيدِ.

وَقَدْ كَانَ الرَّشِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ بِشْرَ بْنَ غِيَاثٍ يَقُولُ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، قَالَ: لِلَّهِ عَلَيَّ إِنْ أَظْفَرَنِي بِهِ أَقْتُلَنَّهُ، فَكَانَ بِشْرٌ مُتَوَارِيًا أَيَّامَ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا مَاتَ ظَهَرَ بِشْرٌ وَدَعَا إِلَىٰ الضَّلَالَةِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثُمَّ إِنَّ الْمَأْمُونَ نَظَرَ فِي الْكَلَامِ، وَبَاعَثَ الْمُعْتَزِلَةَ، وَبَقِيَ يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ فِي دُعَاءِ النَّاسِ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، إِلَىٰ أَنْ قَوِيَ عَزْمُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا.

قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: حُمِلَ أَبِي، وَمُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرْنَا مَعَهُمَا إِلَىٰ الْأَنْبَارِ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الْأَحْوَلُ أَبِي فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنْ عُرِضْتَ عَلَىٰ السَّيْفِ تُجِيبُ؟

قَالَ: لَا.

ثُمَّ سُيِّرَا، فَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: صِرْنَا إِلَىٰ الرَّحْبَةِ وَدَخَلْنَا فِيهَا، وَذَلِكَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَعَرَضَ لَنَا رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؟ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا.

فَقَالَ لِلْجَمَّالِ: عَلَىٰ رِسْلِكَ. ثُمَّ قَالَ: يَا هَذَا، مَا عَلَيْكَ أَنْ تُقْتَلَ هَاهُنَا وَتُدْخَلَ الْجَنَّةَ. ثُمَّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ، وَمَضَىٰ.

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: هَذَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ رَبِيعَةَ يَعْمَلُ الشِّعْرَ فِي الْبَادِيَةِ، يُقَالُ لَهُ جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ، يُذْكَرُ بِخَيْرٍ.

يَقُولُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا سَمِعْتُ كَلِمَةً مُنْذُ وَقَعْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَقْوَىٰ مِنْ كَلِمَةِ أَعْرَابِيٍّ كَلَّمَنِي بِهَا فِي رَحْبَةِ طَوْقٍ، قَالَ: يَا أَحْمَدُ، إِنْ يَقْتُلْكَ الْحَقُّ مِتَّ شَهِيدًا، وَإِنْ عِشْتَ، عِشْتَ حَمِيدًا فَقَوِيَ قَلْبِي.

وَثَبَتَ مُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ رَحِمَهُ اللهُ مَعَ أَحْمَدَ ثَبَاتًا عَظِيمًا، يَقُولُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَىٰ حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَقَدْرِ عِلْمِهِ أَقْوَمَ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ نُوحٍ. وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ. قَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اللهُ، اللهُ، إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَىٰ بِكَ، قَدْ مَدَّ الْخَلْقُ أَعْنَاقَهُمْ إِلَيْكَ لِمَا يَكُونُ مِنْكَ. فَاتَّقِ اللهَ وَاثْبُتْ لِأَمْرِ اللهِ. أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَمَاتَ وَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَدَفَنْتُهُ.

وَمَكَثَ أَحْمَدُ فِي السِّجْنِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، ثُمَّ دُعِيَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ، قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ: فَجَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَبِي كَالْمُغْضَبِ، قَالَ أَبِي: وَكَانَ هَذَا يَتَكَلَّمُ فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُ هَذَا فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْقَطَعَ الرَّجُلُ مِنْهُمُ اعْتَرَضَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ فَيَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ وَاللهِ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ! فَيَقُولُ: كَلِّمُوهُ، نَاظِرُوهُ. فَيُكَلِّمُنِي هَذَا فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيُكَلِّمُنِي هَذَا فَأَرُدُّ

عَلَيْهِ، فَإِذَا انْقَطَعُوا يَقُولُ لِيَ الْمُعْتَصِمُ: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، مَا تَقُولُ؟ فَأَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ أَقُولَ بِهِ.

وَيُقْبِلُ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ عَلَىٰ أَحْمَدَ وَيُكَلِّمُهُ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَقُولَ الْمُعْتَصِمُ: يَا أَحْمَدُ، أَلَا تُكَلِّمُ أَبَا عَبْدِ اللهِ -يَقْصِدُ ابْنَ أَبِي دُؤَادٍ-؟ فَيَقُولُ أَحْمَدُ: لَسْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَأُكَلِّمُهُ!

يَقُولُ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ لِلْمُعْتَصِمِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَجَابَكَ لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ.

فَيَعُدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعُدَّ.

فَقَالَ: لَئِنْ أَجَابَنِي لَأُطْلِقَنَّ عَنْهُ بِيَدِي، وَلَأَرْكَبَنَّ إِلَيْهِ بِجُنْدِي، وَلَأَطَأَنَّ عَقِبَهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ وَاللهِ إِنِّي عَلَيْكَ لَشَفِيقٌ، وَإِنِّي لَأُشْفِقُ عَلَيْكَ كَشَفَقَتِي عَلَىٰ ابْنِي هَارُونَ، مَا تَقُولُ؟ فَأَقُولُ: أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وَأَمَرَ الْمُعْتَصِمُ بِضَرْبِ الْإِمَامِ، فَقُدِّمَ فَضُرِبَ تِسْعَةَ عَشَرَ سَوْطًا، قَالَ أَحْمَدُ: فَلَمَّا ضُرِبْتُ تِسْعَةَ عَشَرَ سَوْطًا قَامَ إِلَيَّ -يَعْنِي الْمُعْتَصِمَ- وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، عَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ؟ إِنِّي وَاللهِ عَلَيْكَ لَشَفِيقٌ. قَالَ: فَجَعَلَ عَجِيفٌ يَنْخَسُنِي بِقَائِمَةِ سَيْفِهِ، وَقَالَ: أَتُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ؟ وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: وَيْلَكَ، الْخَلِيفَةُ عَلَىٰ رَأْسِكَ قَائِمٌ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، دَمُهُ فِي عُنُقِي، اقْتُلْهُ!

وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ صَائِمٌ، وَأَنْتَ فِي الشَّمْسِ قَائِمٌ! فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، أَجِبْنِي، فَجَعَلُوا يُقْبِلُونَ عَلَيَّ وَيَقُولُونَ: يَا أَحْمَدُ، إِمَامُكَ عَلَىٰ رَأْسِكَ قَائِمٌ! وَجَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: مَنْ صَنَعَ مِنْ أَصْحَابِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا تَصْنَعُ؟ وَجَعَلَ الْمُعْتَصِمُ يَقُولُ: وَيْحَكَ، أَجِبْنِي إِلَىٰ شَيْءٍ لَكَ فِيهِ أَدْنَىٰ فَرَجٍ، أُطْلِقُ عَنْكَ بِيَدِي.

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَقُولُ بِهِ، فَيَرْجِعُ، وَقَالَ لِلْجَلَّادِينَ: تَقَدَّمُوا. فَجَعَلَ الْجَلَّادُ يَتَقَدَّمُ وَيَضْرِبُنِي سَوْطَيْنِ وَيَتَنَحَّىٰ، وَهُوَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ يَقُولُ: شُدَّ، قَطَعَ اللهُ يَدَكَ. وَقَالَ أَحْمَدُ: فَذَهَبَ عَقْلِي، فَأَفَقْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِذَا الْأَقْيَادُ قَدْ أُطْلِقَتْ عَنِّي، فَقَالَ لِي رَجُلٌ مِمَّنْ حَضَرَ إِنَّا كَبَبْنَاكَ عَلَىٰ وَجْهِكَ، وَطَرَحْنَا عَلَىٰ ظَهْرِكَ بَارِيَّةً[1] وَدُسْنَاكَ! قَالَ أَحْمَدُ فَمَا شَعُرْتُ بِذَلِكَ.

حَدَّثَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْأَسَدِيُّ قَالَ: لَمَّا حُمِلَ أَحْمَدُ لِيُضْرَبَ، جَاءُوا إِلَىٰ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ، فَقَالُوا: قَدْ حُمِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَحُمِلَتِ السِّيَاطُ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: أَتُرِيدُونَ مِنِّي مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ؟! لَيْسَ ذَا عِنْدِي، حَفِظَ اللهُ أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.

قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ: صَارَ أَبِي إِلَىٰ الْمَنْزِلِ وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ مَنْ يُبْصِرُ الضَّرْبَ وَالْجِرَاحَاتِ وَيُعَالِجُ مِنْهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: أَنَا وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُرِبَ

---

(١) بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَفَتْحِ الْيَاءِ الْمُشَدَّدَةِ: الْحَصِيرُ الْمَنْسُوجُ، يُبْسَطُ وَيُجْلَسُ عَلَيْهِ، وَهِيَ فَارِسِيَّةُ الْأَصْلِ.

أَلْفَ سَوْطٍ، مَا رَأَيْتُ ضَرْبًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا. لَقَدْ جَرَّ عَلَيْهِ مَنْ خَلْفَهُ وَمَنْ قُدَّامَهُ. ثُمَّ أَدْخَلَ مِيلًا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِرَاحَاتِ وَقَالَ: لَمْ يَنْضَبْ. فَجَعَلَ يَأْتِيهِ وَيُعَالِجُهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ وَجْهَهُ غَيْرُ ضَرْبَةٍ، ثُمَّ مَكَثَ يُعَالِجُهُ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَاهُنَا شَيْئًا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَهُ. فَجَاءَ بِحَدِيدَةٍ، فَجَعَلَ يُعَلِّقُ اللَّحْمَ بِهَا وَيَقْطَعُهُ بِسِكِّينٍ، وَهُوَ صَابِرٌ بِحَمْدِ اللهِ، فَبَرَأَ. وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ. وَكَانَ أَثَرُ الضَّرْبِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِهِ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ»(١).

قُلْتُ: هَذِهِ أَطْرَافٌ مِنْ قِصَّةِ الْمِحْنَةِ كَمَا رَوَاهَا الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ، فِيهَا مِنْ ظِلَالِ الرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ مَا فِيهَا، وَكَأَنَّ الْمِحْنَةَ كَوْنٌ كَامِلٌ، وَعَالَمٌ شَامِلٌ، فِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَقَابَلَانِ وَلَا يَتَعَاقَبَانِ.

فِيهَا اللَّيْلُ بِظُلْمَتِهِ وَرَهْبَتِهِ وَسَتْرِهِ عَلَىٰ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ، فَذَلِكَ مَثَلُ أَعْدَاءِ أَحْمَدَ، وَفِيهَا الصُّبْحُ بِإِشْرَاقِهِ وَوَدَاعَتِهِ وَرِقَّةِ حَاشِيَتِهِ، وَذَلِكَ مَثَلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

لَقَدْ ثَبَتَ أَحْمَدُ حَتَّىٰ اسْتَحَقَّ الْإِمَامَةَ فَأَصْبَحَتْ عَلَمًا عَلَيْهِ، فَإِذَا ذُكِرَ الْإِمَامُ انْصَرَفَ اللَّفْظُ إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ أَحْمَدُ إِمَامًا بِإِذْلَالِهِ لِعِلْمِهِ أَمَامَ جَبَرُوتِ السُّلْطَةِ الْغَاشِمَةِ، وَإِنَّمَا بِإِعْزَازِ عِلْمِهِ وَإِعْزَازِ الْمَحَلِّ الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ فِيهِ، فَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

---

(١) «تَارِيخُ الْإِسْلَامِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧/ ١٢٦)، وَ «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (١١/ ١٧٧).

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: مِنْ عَجِيبِ مَا سَمِعتُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَحدَاثِ الجُهَّالِ أَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ: أَحْمَدُ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، لَكِنَّهُ مُحَدِّثٌ.

قَالَ: وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ؛ لِأَنَّ لَهُ اخْتِيَارَاتٍ بَنَاهَا عَلَىٰ الأَحَادِيْثِ بِنَاءً لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُهُمْ، وَرُبَّمَا زَادَ عَلَىٰ كِبَارِهِمْ.

قُلْتُ: أَحْسِبُهُمْ يَظُنُّونَهُ كَانَ مُحَدِّثًا وَبَسْ[1]، بَلْ يَتَخَيَّلُونَهُ مِنْ بَابَةِ مُحَدِّثِي زَمَانِنَا، وَوَاللهِ لَقَدْ بَلَغَ فِي الْفِقْهِ خَاصَّةً رُتْبَةَ اللَّيْثِ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَفِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ رُتْبَةَ الفَضْلِ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَفِي الْحِفْظِ رُتْبَةَ شُعْبَةَ، وَيَحْيَىٰ القَطَّانِ، وَابْنِ المَدِينِيِّ، وَلَكِنَّ الْجَاهِلَ لَا يَعلَمُ رُتْبَةَ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَعْرِفُ رُتْبَةَ غَيْرِهِ؟!»[2].

وَمِنْ صِيَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ لَهُ مَا رَوَاهُ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ حَمْدَانَ الْأَصْبَهَانِيِّ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ شَرِيكٍ، فَأَتَاهُ بَعْضُ وَلَدِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَنَدَ إِلَىٰ الْحَائِطِ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كَأَنَّكَ تَسْتَخِفُّ بِأَوْلَادِ الْخِلَافَةِ. قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ أَزْيَنُ عِنْدَ أَهْلِهِ مِنْ أَنْ يُضَيِّعُوهُ. قَالَ: فَجَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ شَرِيكٌ: هَكَذَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ».

---

(١) بَسْ: بِمَعْنَىٰ حَسْبُ. (فَارِسِيَّةٌ). «الْمُعْجَمُ الْوَسِيطُ» (١/ ٥٥).

(٢) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (١١/ ٣٢١).

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ -أَيْضًا- عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيِّ قَالَ: «كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ عَبْدًا أَسْوَدَ لِامْرَأَةٍ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانَ أَنْفُهُ بَاقِلَّاةً.

قَالَ: وَجَاءَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ عَطَاءٍ هُوَ وَابْنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا صَلَّىٰ انْفَتَلَ إِلَيْهِمْ، فَمَا زَالُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ، وَقَدْ حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ لَابْنَيْهِ: قُومَا. فَقَامَا. وَقَالَ: يَا ابْنَيَّ، لَا تَنِيَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنِّي لَا أَنْسَىٰ ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ»[1].

وَمِنْ أَجْوَدِ مَا جَادَتْ بِهِ قَرَائِحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ فِي بَيَانِ صِيَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ، وَرِعَايَتِهِمْ جَانِبَهُ، وَرُكُونِهِمْ إِلَىٰ صَرْحِ عِزِّهِ: قَصِيدَةُ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ عَصْمَاءُ فِي وَصْفِ «الْعَالِمِ الْأَبِيِّ»، وَالِاعْتِزَازِ بِالْعِلْمِ، وَسُمُوِّ الْهِمَّةِ[2]، ذَكَرَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ مِنْهَا عَشْرَةَ أَبْيَاتٍ فِي «طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ الْكُبْرَىٰ» (٣/ ٤٦٠)، هَذِهِ الْأَبْيَاتُ هِيَ:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا

وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

---

(١) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (١/ ٣١).

(٢) انْظُرْ: «صَفَحَاتٌ مِنْ صَبْرِ الْعُلَمَاءِ» لِأَبِي غدة (ص٣٥٢).

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا	بَـدَا طَمَـعٌ صَـيَّرْتُهُ لِـيَ سُـلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَـذَا مَنْهَـلٌ قُلْـتُ قَـدْ أَرَىٰ	وَلَكِـنَّ نَفْسَ الْحُـرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَـا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي	لِأَخْـدُمَ مَـنْ لَاقَيْـتُ لَكِـنْ لِأُخْـدَمَا
أَأَشْـقَىٰ بِـهِ غَرْسًـا وَأَجْنِيـهِ ذِلَّـةً؟	إِذَنْ فَاتِّبَـاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَـانَ أَحْزَمَـا
وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْـمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ	وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِـي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَـا
وَلَكِـنْ أَهَـانُوهُ فَهَـانَ وَدَنَّسُـوا	مُحَيَّـاهُ بِالْأَطْمَـاعِ حَتَّـىٰ تَجَهَّمَـا

وَلَمْ يَمْلِكِ السُّبْكِيُّ -بَعْدَ أَنْ سَاقَ الْقَصِيدَةَ- نَفْسَهُ فَانْدَفَعَ مُثْنِيًا عَلَيْهَا بِكَلَامٍ إِلَىٰ الشِّعْرِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَىٰ النَّثْرِ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْقَصِيدَةَ كَمَا قَالَ، وَفَوْقَ مَا قَالَ.

قَالَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٣/ ٤٦١): «لِلَّهِ هَذَا الشِّعْرُ! مَا أَبْلَغَهُ وَأَصْنَعَهُ! وَمَا أَعْلَىٰ عَلَىٰ هَامِ الْجَوْزَاءِ مَوْضِعَهُ! وَمَا أَنْفَعَهُ لَوْ سَمِعَهُ مَنْ سَمِعَهُ! وَهَكَذَا فَلْيَكُنْ، وَإِلَّا فَلَا، أَدَبُ كُلِّ فَقِيهٍ، وَلِمِثْلِ هَذَا النَّاظِمِ يَحْسُنُ النَّظْمُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَعِنْدَ هَذَا يَنْطِقُ الْمُنْصِفُ بِعَظِيمِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ ذِهْنِهِ الْخَالِي لَا بِالتَّمْوِيهِ».

وَفِي «صَفَحَاتٍ مِنْ صَبْرِ الْعُلَمَاءِ» (ص٣٥٢) اسْتِقْصَاءٌ لِأَبْيَاتِهَا، وَتَتَبُّعٌ لَهَا فِي مَظَانِّهَا، فِي كُتُبِ الْأَدَبِ، وَكُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّعْلِيمِ، وَقَدْ بَلَغَتْ عِدَّتُهَا فِي الْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ بَيْتًا، أَسُوقُهَا هُنَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- رَغْبَةً فِيهَا، وَدَلَالَةً عَلَيْهَا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا ... عَنِ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا: فِيمَ أَوْ لِمَا؟

فَأُصْبِحُ عَنْ عَيْبِ اللَّئِيمِ مُسَلَّمًا ... وَقَدْ رُحْتُ فِي نَفْسِ الْكَرِيمِ مُعَظَّمَا

وَإِنِّي إِذَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفْوًا قَبِلْتُهُ ... وَإِنْ مَالَ لَمْ أُتْبِعْهُ: هَلَّا وَلَيْتَمَا

وَأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظُوظٍ كَثِيرَةٍ ... إِذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْعِرْضِ مُكْرَمَا

وَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِسًا ... وَأَنْ أَتَلَقَّىٰ بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمَا

وَكَمْ طَالِبٍ رِقِّي بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ ... إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمُعَظَّمَا

وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَىٰ الْحُرِّ نِقْمَةً ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الْحُرُّ مَغْرَمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً؟! ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَإِنِّي لَرَاضٍ عَنْ فَتًىٰ مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا

يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ ... وَيُصْبِحُ طَلْقًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا

وَلَا يَسْـأَلُ الْمثْـرِينِ مَـا بِـأَكُفِّهِمْ وَلَـوْ مَـاتَ جُوعًـا عِفَّـةً وَتَكَرُّمَـا
فَإِنْ قُلْتَ: زَنْدُ العِلْمِ كَابٍ، فَإِنَّمَا كَبَا حِينَ لَمْ تَحْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِـي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَـا
وَلَكِـنْ أَهَـانُوهُ فَهَـانُوا وَدَنَّسُـوا مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا[١]
وَمَـا كُـلُّ بَـرْقٍ لَاحَ لِـي يَسْتَفِزُّنِي وَلَا كُـلُّ مَـنْ لَاقَيْتُ أَرْضَـاهُ مُنْعِمَـا
وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَّنِي الضُّرُّ لَمْ أَبِتْ أُقَلِّبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُتْهِمَا[٢]
إِلَىٰ أَنْ أَرَىٰ مَـنْ لَا أَغَـصُّ بِـذِكْرِهِ إِذَا قُلْـتُ: قَـدْ أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ وَأَنْعَمَـا

أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١/ ١٦٣) بِإِسْنَادِهِ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُوسَىٰ، قَالَ: «مَرَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُرِيدُ مَكَّةَ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا فَقَالَ: هَلْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَدْرَكَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَبُو حَازِمٍ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا هَذَا الْجَفَاءُ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيَّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَتَانِي وُجُوهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَأْتِنِي. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ تَقُولَ مَا لَمْ يَكُنْ، مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ وَلَا أَنَا رَأَيْتُكَ.

قَالَ: فَالْتَفَتَ سُلَيْمَانُ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ: أَصَابَ الشَّيْخُ وَأَخْطَأْتُ.

---

(١) مُحَيَّاهُ: وَجْهُهُ. تَجَهَّمَ: صَارَ جَهْمًا، وَهُوَ الْكَرِيهُ الْمَنْظَرِ.

(٢) الضُّرُّ: شِدَّةُ الْإِمْلَاقِ وَالْفَاقَةِ. مُنْجِدًا: مُتَّجِهًا جِهَةَ نَجْدٍ، وَمُتْهِمًا: مُتَّجِهًا جِهَةَ تِهَامَةَ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟

قَالَ: لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمُ الْآخِرَةَ وَعَمَّرْتُمُ الدُّنْيَا، فَكَرِهْتُمْ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَىٰ الْخَرَابِ.

قَالَ: أَصَبْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ، فَكَيْفَ الْقُدُومُ غَدًا عَلَىٰ اللهِ؟

قَالَ: أَمَّا الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَقْدُمُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَأَمَّا الْمُسِيءُ فَكَالآبِقِ يَقْدُمُ عَلَىٰ مَوْلَاهُ.

فَبَكَىٰ سُلَيْمَانُ وَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي مَا لَنَا عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: اعْرِضْ عَمَلَكَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ.

قَالَ: وَأَيُّ مَكَانٍ أَجِدُهُ؟

قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللهِ يَا أَبَا حَازِمٍ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ فَأَيُّ عِبَادِ اللهِ أَكْرَمُ؟

قَالَ: أُولُو الْمُرُوءَةِ وَالنُّهَىٰ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: دُعَاءُ الْمُحْسَنِ إِلَيْهِ لِلْمُحْسِنِ.

قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: لِلسَّائِلِ الْبَائِسِ، وَجُهْدُ الْمُقِلِّ لَيْسَ فِيهَا مَنٌّ وَلَا أَذًىٰ.

قَالَ: فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ؟

قَالَ: قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ.

قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟

قَالَ: رَجُلٌ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَقُ؟

قَالَ: رَجُلٌ انْحَطَّ فِي هَوَىٰ أَخِيهِ وَهُوَ ظَالِمٌ فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَصَبْتَ، فَمَا تَقُولُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ؟

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَتُعْفِينِي؟

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ نَصِيحَةٌ تُلْقِيهَا إِلَيَّ.

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ آبَاءَكَ قَهَرُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذُوا هَذَا الْمُلْكَ عَنْوَةً عَلَىٰ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا رِضَاهُمْ حَتَّىٰ قَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَقَدِ ارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَلَوْ أُشْعِرْتَ مَا قَالُوا وَمَا قِيلَ لَهُمْ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: بِئْسَمَا قُلْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: كَذَبْتَ؛ إِنَّ اللهَ أَخَذَ مِيثَاقَ الْعُلَمَاءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نُصْلِحَ؟

قَالَ تَدعُونَ الصَّلَفَ وَتَمَسَّكُونَ بِالْمُرُوءَةِ وَتَقْسِمُونَ بِالسَّوِيَّةِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: كَيفَ لَنَا بِالْمَأْخَذِ بِهِ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: تَأْخُذُهُ مِنْ حِلِّهِ وَتَضَعُهُ فِي أَهْلِهِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ أَنْ تَصْحَبَنَا فَتُصِيبَ مِنَّا وَنُصِيبَ مِنْكَ؟

قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: وَلِمَ ذَاكَ؟

قَالَ: أَخْشَىٰ أَنْ أَرْكَنَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا؛ فَيُذِيقَنِي اللهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: ارْفَعْ إِلَيْنَا حَوَائِجَكَ.

قَالَ: تُنْجِينِي مِنَ النَّارِ وَتُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيَّ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَمَا لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ غَيْرُهَا.

قَالَ: فَادْعُ لِي.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَلِيَّكَ فَيَسِّرْهُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ عَدُوَّكَ فَخُذْ بِنَاصِيَتِهِ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: قَطُّ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: قَدْ أَوْجَزْتُ وَأَكْثَرْتُ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، فَمَا يَنْفَعُنِي أَنْ أَرْمِيَ عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَوْصِنِي.

قَالَ: سَأُوصِيكَ وَأُوجِزُ: عَظِّمْ رَبَّكَ وَنَزِّهْهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ أَوْ يَفْقِدَكَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكَ.

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بَعَثَ إِلَيْهِ بِمِئَةِ دِينَارٍ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَنْ أَنْفِقْهَا وَلَكَ عِنْدِي مِثْلُهَا كَثِيرٌ.

قَالَ: فَرَدَّهَا عَلَيْهِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُكَ إِيَّايَ هَزْلًا أَوْ رَدِّي عَلَيْكَ بَذْلًا وَمَا أَرْضَاهَا لَكَ، فَكَيْفَ أَرْضَاهَا لِنَفْسِي؟!

وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهَا رِعَاءً يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ جَارِيَتَيْنِ تَذُودَانِ فَسَأَلَهُمَا فَقَالَتَا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَائِعًا خَائِفًا لَا يَأْمَنُ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ، فَلَمْ يَفْطِنِ الرِّعَاءُ وَفَطِنَتِ الْجَارِيَتَانِ، فَلَمَّا رَجَعَتَا إِلَىٰ أَبِيهِمَا أَخْبَرَتَاهُ بِالْقِصَّةِ وَبِقَوْلِهِ.

فَقَالَ أَبُوهُمَا -وَهُوَ شُعَيْبٌ- هَذَا رَجُلٌ جَائِعٌ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: اذْهَبِي فَادْعِيهِ. فَلَمَّا أَتَتْهُ عَظَّمَتْهُ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. فَشَقَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ حِينَ ذَكَرَتْ ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتْبَعَهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْجِبَالِ جَائِعًا مُسْتَوْحِشًا، فَلَمَّا تَبِعَهَا هَبَّتِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَصْفِقُ ثِيَابَهَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا فَتَصِفُ لَهُ عَجِيزَتَهَا، وَكَانَتْ ذَاتَ عَجُزٍ، وَجَعَلَ مُوسَىٰ يَعْرِضُ مَرَّةً وَيَغُضُّ أُخْرَىٰ، فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُ نَادَاهَا: يَا أَمَةَ اللهِ كُونِي خَلْفِي وَأَرِينِي السَّمْتَ بِقَوْلِكِ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ شُعَيْبٍ إِذَا هُوَ بِالْعَشَاءِ مُهَيَّأً فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: اجْلِسْ يَا شَابُّ فَتَعَشَّ.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: أَعُوذُ بِاللهِ. فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لِمَ؟ أَمَا أَنْتَ جَائِعٌ؟

قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِوَضًا لِمَا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لَا نَبِيعُ شَيْئًا مِنْ دِينِنَا بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا.

فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لَا يَا شَابُّ وَلَكِنَّهَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي: نُقْرِي الضَّيْفَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ. فَجَلَسَ مُوسَىٰ فَأَكَلَ.

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمِئَةُ دِينَارٍ عِوَضًا لِمَا حَدَّثْتُ فَالْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْ هَذِهِ، وَإِنْ كَانَ لِحَقٍّ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ فَلِي فِيهَا نُظَرَاءُ، فَإِنْ سَاوَيْتَ بَيْنَنَا وَإِلَّا فَلَيْسَ لِي فِيهَا حَاجَةٌ».

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَذِلُّ إِلَّا لِرَبِّهِ، وَلَا يَخْضَعُ إِلَّا لِبَارِئِهِ، وَالَّذِي جَاءَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَىٰ، وَإِنَّمَا أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا وَأَسُوقُ شَاهِدًا.

«فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ السُّلْطَانُ غَازَانُ عَلَىٰ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ جَاءَهُ مَلِكُ الْكُرْجِ[1] وَبَذَلَ لَهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً جَزِيلَةً عَلَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ الْفَتْكِ بِالْمُسْلِمِينَ، مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ، وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَىٰ الشَّيْخِ، فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ وَشَجَّعَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَغَّبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَىٰ قِيَامِهِمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْأَمْنِ، وَزَوَالِ الْخَوْفِ.

فَانْتُدِبَ مِنْهُمْ رِجَالٌ مِنْ وُجُوهِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ وَذَوِي الْأَحْلَامِ مِنْهُمْ، فَخَرَجُوا مَعَهُ إِلَىٰ حَضْرَةِ السُّلْطَانِ غَازَانَ، فَلَمَّا رَآهُمُ السُّلْطَانُ قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هُمْ رُؤَسَاءُ دِمَشْقَ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَحَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَتَقَدَّمَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَّلًا، فَلَمَّا أَنْ رَآهُ أَوْقَعَ اللهُ لَهُ فِي قَلْبِهِ هَيْبَةً عَظِيمَةً، حَتَّىٰ أَدْنَاهُ وَأَجْلَسَهُ.

---

(١) هُوَ نَارِين دَاوُد مَلِكُ الْكُرْجِ إِحْدَىٰ دُوَلِ الْأَرمن.

وَأَخَذَ الشَّيْخُ فِي الْكَلَامِ مَعَهُ أَوَّلًا فِي عَكْسِ رَأْيِهِ عَنْ تَسْلِيطِ الْمَخْذُولِ مَلِكِ الْكَرْجِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَضَمِنَ لَهُ أَمْوَالًا، وَأَخْبَرَهُ بِحُرْمَةِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَكَّرَهُ وَوَعَظَهُ، فَأَجَابَهُ إِلَىٰ ذَلِكَ طَائِعًا، وَحُقِنَتْ بِسَبَبِهِ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَحُمِيَتْ ذَرَارِيهِمْ وَصِينَ حَرِيمُهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ وَجِيهُ الدِّينِ بْنُ الْمَنْجَا: كُنْتُ حَاضِرًا مَعَ الشَّيْخِ حِينَئِذٍ، فَجَعَلَ يَعْنِي الشَّيْخَ يُحَدِّثُ السُّلْطَانَ بِقَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَىٰ السُّلْطَانِ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ حَتَّىٰ جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَجَعَلَ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ، حَتَّىٰ لَقَدْ قَرُبَ أَنْ تُلَاصِقَ رُكْبَتُهُ رُكْبَةَ السُّلْطَانِ، وَالسُّلْطَانُ مَعَ ذَلِكَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ، مُصْغٍ لِمَا يَقُولُ، شَاخِصٌ إِلَيْهِ لَا يُعْرِضُ عَنْهُ، وَإِنَّ السُّلْطَانَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَوْقَعَ اللهُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَيْبَةِ سَأَلَ مَنْ يَخُصُّهُ مِنْ أَهْلِ حَضْرَتِهِ: مَنْ هَذَا الشَّيْخُ؟ إِنِّي لَمْ أَرَ مِثْلَهُ، وَلَا أَثْبَتَ قَلْبًا مِنْهُ، وَلَا أَوْقَعَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي قَلْبِي، وَلَا رَأَيْتُنِي أَعْظَمَ انْقِيَادًا لِأَحَدٍ مِنْهُ. فَأُخْبِرَ بِحَالِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلتُّرْجُمَانِ: قُلْ لِغَازَانَ: أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ، وَمَعَكَ قَاضٍ وَإِمَامٌ وَشَيْخٌ وَمُؤَذِّنُونَ عَلَىٰ مَا بَلَغَنَا، فَغَزَوْتَنَا، وَأَبُوكَ وَجَدُّكَ كَانَا كَافِرَيْنِ وَمَا عَمِلَا الَّذِي عَمِلْتَ، عَاهَدَا فَوَفَّيَا وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ، وَقُلْتَ فَمَا وَفَيْتَ وَجُرْتَ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُكَرَّمًا مُعَزَّزًا قَدْ صَنَعَ لَهُ اللهُ بِمَا طَوَىٰ عَلَيْهِ نِيَّتَهُ الصَّالِحَةَ مِنْ بَذْلِهِ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَلَغَهُ مَا أَرَادَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا سَبَبًا لِتَخْلِيصِ غَالِبِ أُسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَرَدِّهِمْ عَلَىٰ أَهْلِهِمْ وَحِفْظِ حَرِيمِهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ وَقُوَّةِ الْجَأْشِ.

وَكَانَ يَقُولُ: لَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللهِ إِلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُلَاةِ فَقَالَ لَهُ: لَوْ صَحَّحْتَ لَمْ تَخَفْ أَحَدًا؛ أَيْ خَوْفُكَ مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِكَ»(١).

وَأَخْبَرَ الْقَاضِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَنَّهُمْ لَمَّا حَضَرُوا مَجْلِسَ غَازَانَ: قُدِّمَ لَهُمْ طَعَامٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَةَ، فَقِيلَ: لِمَ لَمْ تَأْكُلْ؟ فَقَالَ: كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكَ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ، طَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ غَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ، فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ فَأَيِّدْهُ وَانْصُرْهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْمُلْكِ وَالدُّنْيَا وَالتَّكَاثُرِ فَافْعَلْ بِهِ وَاصْنَعْ، فَكَانَ يَدْعُو عَلَيْهِ وَغَازَانُ يُؤَمِّنُ عَلَىٰ دُعَائِهِ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ثِيَابَنَا؛ خَوْفًا أَنْ يُقْتَلَ فَيُصِيبَنَا بِدَمِهِ»(٢).

---

(١) «الْأَعْلَامُ الْعَلِيَّةُ فِي مَنَاقِبِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ» لِلْحَافِظِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ الْبَزَّارِ، تَحْقِيقُ زُهَيْرٍ الشَّاوِيش (ص٦٣)، وَ«غَايَةُ الْأَمَانِيِّ» لِمَحْمُود شُكْرِي الْأَلُوسِيِّ (٢/ ١٧٦).

(٢) «غَايَةُ الْأَمَانِيِّ» (٢/ ١٧٧).

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّوَرِ الْمُشْرِقَةِ، صُوَرٌ مُظْلِمَةٌ حَالِكَةُ السَّوَادِ، لِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ حَمَلَتْهُمْ خِسَّةُ مَكَاسِبِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نِسْيَانِ أَمْثَالِ نَصِيحَةِ أَبِي حَنِيفَةَ فَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ وَمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْ مِنَ السُّلْطَانِ كَمَا أَنْتَ مِنَ النَّارِ، تَنْتَفِعُ مِنْهَا وَتَتَبَاعَدُ عَنْهَا، وَلَا تَدْنُ مِنْهَا فَإِنَّهَا تَحْتَرِقُ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ غِيَاثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَخَلَ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ وَهُوَ يَلْعَبُ بِالْحَمَامِ فَسَاقَ فِي الْحَالِ إِسْنَادًا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**»[1]. وَزَادَ فِيهِ: «**أَوْ جَنَاحٍ**». فَعَرَفَ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ كَذَبَ لِأَجْلِهِ، فَأَمَرَ بِذَبْحِ الْحَمَامِ.

وَأَمَّا أُولُو الْعَزْمِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُمْ لَا تَذِلُّ رِقَابُهُمْ وَلَا قُلُوبُهُمْ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، يَعِزُّ بِهِمُ الْعِلْمُ، وَبِهِ يَعِزُّونَ، وَيُصَانُ بِهِمْ وَبِهِ يُصَانُونَ.

---

(١) الْحَدِيثُ بِدُونِ الزِّيَادَةِ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٥٧٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٥٨٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ(١٧٠٠)، وَابْنُ مَاجَهْ (٢٨٧٨).

وَالسَّبَقُ -بِفَتْحِ الْبَاءِ-: مَا يُجْعَلُ لِلسَّابِقِ عَلَىٰ سَبْقِهِ مِنْ جُعْلٍ أَوْ نَوَالٍ، فَأَمَّا السَّبْقُ -بِسُكُونِ الْبَاءِ-: فَهُوَ مَصْدَرُ سَبَقْتُ الرَّجُلَ أَسْبِقُهُ سَبْقًا، يُرِيدُ أَنَّ الْجُعْلَ وَالْعَطَاءَ لَا يُسْتَحَقُّ إِلَّا فِي سِبَاقِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، وَفِي النَّصْلِ: وَهُوَ الرَّمْيُ.

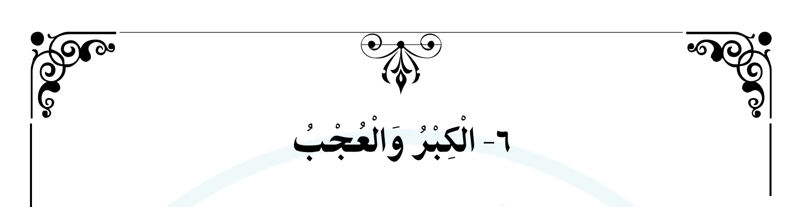
يَقُولُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَاصِحًا وَمُرْشِدًا -وَأَرْفِقْ بِهِ مِنْ نَاصِحٍ وَمُرْشِدٍ، فَعَلَيْكَ بِهَا -لِأَنَّهَا نَفِيسَةٌ غَالِيَةٌ-:

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا ... وَلَا تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ الْأَهْلِ فِي حُرَقِ

وَالْكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الْأَحْجَارِ تَنْظُرُهُ ... فِي أَرْضِهِ وَهْوَ مَرْمِيٌّ عَلَىٰ الطُّرُقِ

لَمَّا تَغَرَّبَ حَازَ الْفَضْلَ أَجْمَعَهُ ... فَصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ

⊙⊙⊙



٦- الْكِبْرُ وَالْعُجْبُ

إِعْزَازُ الْعِلْمِ وَصِيَانَتُهُ لَا يَعْنِي الْكِبْرَ بِسَبَبِهِ، وَلَا الْعُجْبَ بِهِ.

الْكِبْرُ وَالْعُجْبُ خُلُقَانِ مَذْمُومَانِ، يَتَرَفَّعُ عَنْهُمَا آحَادُ الْمُؤْمِنِينَ فَكَيْفَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ؟! وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ الْكِبْرَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ.

فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

وَالْآيَاتُ فِي ذَمِّ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ كَثِيرَةٌ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنِّي أَجْتَزِئُ بِالْقَلِيلِ؛ لِيَكُونَ كَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَا وَرَاءَهُ، وَمَنْ أَرَادَ جَمْعًا فَدُونَهُ كِتَابَ اللَّـهِ تَعَالَىٰ.

وَأَحَادِيثُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ كَثِيرَةٌ أَيْضًا وَضَافِيَةٌ، أَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْهَا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١)، وَ«**بَطَرُ الْحَقِّ**»: دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا، وَ«**غَمْطُ النَّاسِ**»: =

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَىٰ اللهُ بَينَهُمَا: إِنَّكِ الجَنَّةُ رَحمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلَيكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[٣]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٤].

=

احْتِقَارُهُمْ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٤٥١)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٧).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٤٦).

(٣) «الْبُخَارِيُّ» (٥٤٥٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٨)، وَمُرَجِّلٌ رَأْسَهُ: أَيْ: مُمَشِّطُهُ. وَيَتَجَلْجَلُ: -بِالْجِيمَيْنِ-، أَيْ: يَغُوصُ وَيَنْزِلُ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٢٠).

*** الْكِبْرُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ:**

«اعْلَمْ أَنَّ الْكِبْرَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فَالْبَاطِنُ هُوَ خُلُقٌ فِي النَّفْسِ، وَالظَّاهِرُ هُوَ أَعْمَالٌ تَصْدُرُ عَنِ الْجَوَارِحِ، وَاسْمُ الْكِبْرِ بِالْخُلُقِ الْبَاطِنِ أَحَقُّ، أَمَّا الْأَعْمَالُ فَإِنَّهَا ثَمَرَاتٌ لِذَلِكَ الْخُلُقِ.

وَخُلُقُ الْكِبْرِ مُوجِبٌ لِلْأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ إِذَا ظَهَرَ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ يُقَالُ: تَكَبَّرَ، وَإِذَا لَمْ يَظْهَرْ يُقَالُ: فِي نَفْسِهِ كِبْرٌ.

وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَبِّرًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ غَيْرِهِ وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ ذَلِكَ الْغَيْرِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَكَبِّرًا، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَسْتَعْظِمَ نَفْسَهُ لِيَكُونَ مُتَكَبِّرًا، فَإِنَّهُ قَدْ يَسْتَعْظِمُ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ يَرَىٰ غَيْرَهُ أَعْظَمَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِثْلَ نَفْسِهِ فَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ هَذِهِ الْعِزَّةُ تَقْتَضِي أَعْمَالًا فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ هِيَ ثَمَرَاتٌ، وَيُسَمَّىٰ ذَلِكَ تَكَبُّرًا.

فَهُوَ إِنْ حَاجَّ أَوْ نَاظَرَ أَنِفَ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ، وَإِنْ وُعِظَ اسْتَنْكَفَ مِنَ الْقَبُولِ، وَإِنْ وَعَظَ عَنُفَ فِي النُّصْحِ، وَإِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ غَضِبَ، وَإِنْ عَلَّمَ لَمْ يَرْفُقْ بِالْمُتَعَلِّمِينَ وَاسْتَذَلَّهُمْ وَانْتَهَرَهُمْ وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ وَاسْتَخْدَمَهُمْ، وَيَنْظُرُ إِلَىٰ الْعَامَّةِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَمِيرِ؛ اسْتِجْهَالًا لَهُمْ وَاسْتِحْقَارًا.

وَالْأَعْمَالُ الصَّادِرَةُ عَنْ خُلُقِ الْكِبْرِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ فَلَا

حَاجَةَ إِلَىٰ تَعْدَادِهَا فَإِنَّهَا مَشْهُورَةٌ.

فَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ وَآفَتُهُ عَظِيمَةٌ، وَغَائِلَتُهُ هَائِلَةٌ، وَفِيهِ يَهْلِكُ الْخَوَاصُّ مِنَ الْخَلْقِ، وَكَيْفَ لَا تَعْظُمُ آفَتُهُ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١).

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الْكِبْرِ وَالْمَهَابَةِ:**

قَدْ يَلْتَبِسُ الْكِبْرُ بِغَيْرِهِ مِمَّا لَيْسَ كِبْرًا بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ، وَهُنَاكَ فَرْقٌ دَقِيقٌ بَيْنَ الْمَهَابَةِ الَّتِي هِيَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الطَّاعَةِ وَالْقُرْبِ، وَالْكِبْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْكِبْرِ: أَنَّ الْمَهَابَةَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ امْتِلَاءِ الْقَلْبِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَإِذَا امْتَلَأَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ حَلَّ فِيهِ النُّورُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَأُلْبِسَ رِدَاءَ الْهَيْبَةِ، فَاكْتَسَىٰ وَجْهُهُ الْحَلَاوَةَ وَالْمَهَابَةَ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ مَحَبَّةً وَمَهَابَةً، فَحَنَّتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ وَقَرَّتْ بِهِ الْعُيُونُ، وَأَنِسَتْ بِهِ الْقُلُوبُ، فَكَلَامُهُ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ نُورٌ، وَإِنْ سَكَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ أَخَذَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ.

وَأَمَّا الْكِبْرُ، فَأَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْعُجْبِ وَالْبَغْيِ فِي قَلْبٍ قَدِ امْتَلَأَ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ،

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ١٢٨)، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١).

تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الْعُبُودِيَّةُ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ الْمَقْتُ، فَنَظَرُهُ إِلَىٰ النَّاسِ شَزْرٌ(١) وَمَشْيُهُ بَيْنَهُمْ تَبَخْتُرٌ(٢)، وَمُعَامَلَتُهُ لَهُمْ مُعَامَلَةُ الِاسْتِئْثَارِ لَا الْإِيثَارِ(٣) وَلَا الْإِنْصَافِ، ذَاهِبٌ بِنَفْسِهِ تِيهًا لَا يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ بَالَغَ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، لَا يَنْطَلِقُ لَهُمْ وَجْهُهُ، وَلَا يَسَعُهُمْ خُلُقُهُ، وَلَا يَرَىٰ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقًّا وَيَرَىٰ حُقُوقَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَلَا يَرَىٰ فَضْلَهُمْ عَلَيْهِ وَيَرَىٰ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَزْدَادُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَمِنَ النَّاسِ إِلَّا صَغَارًا وَبُغْضًا»(٤).

*** دَرَجَاتُ الْعُبَّادِ وَالْعُلَمَاءِ فِي الْكِبْرِ:**

ثُمَّ إِنَّ الْعُبَّادَ وَالْعُلَمَاءَ لَيْسُوا فِي الْكِبْرِ سَوَاءً، بَلْ هُمْ فِيهِ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْعُبَّادَ فِي آفَةِ الْكِبْرِ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ الْكِبْرُ مُسْتَقِرًّا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مِنْهُمْ، فَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَجْتَهِدُ وَيَتَوَاضَعُ، فَهَذَا فِي قَلْبِهِ شَجَرَةُ الْكِبْرِ مَغْرُوسَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ أَغْصَانَهَا.

---

(١) **نَظَرٌ شَزْرٌ:** فِيهِ إِعْرَاضٌ، كَنَظَرِ الْمُعَادِي الْمُبْغِضِ، وَقِيلَ: هُوَ نَظَرٌ عَلَىٰ غَيْرِ اسْتِوَاءٍ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ.

(٢) يَتَبَخْتَرُ: يَخْتَالُ، الْبَخْتَرِيُّ: الْمُتَبَخْتِرُ فِي مَشْيِهِ، وَهِيَ مِشْيَةُ الْمُتَكَبِّرِ الْمُعْجَبِ بِنَفْسِهِ.

(٣) الِاسْتِئْثَارُ: الِانْفِرَادُ بِالشَّيْءِ، وَضِدُّهُ الْإِيثَارُ.

(٤) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٦).

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُظْهِرَ لَكَ بِأَفْعَالِهِ مِنَ التَّرَفُّعِ فِي الْمَجَالِسِ، وَالتَّقَدُّمِ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ، وَالإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ يُقَصِّرُ فِي حَقِّهِ، فَتَرَىٰ الْعَالِمَ يُصَعِّرُ خَدَّهُ لِلنَّاسِ، كَأَنَّهُ مُعرِضٌ عَنْهُمْ، وَالْعَابِدَ يَعِيشُ كَأَنَّهُ مُستَقْذِرٌ لَهُمْ، وَهَذَانِ قَدْ جَهِلَا مَا أَدَّبَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ حِينَ قَالَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُظْهِرَ الْكِبْرَ بِلِسَانِهِ، كَالدَّعَاوَىٰ وَالْمُفَاخَرَةِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَحِكَايَاتِ الْأَحْوَالِ فِي مَعْرِضِ الْمُفَاخَرَةِ لِغَيْرِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّكَبُّرَ يَظْهَرُ فِي شَمَائِلِ الْإِنْسَانِ؛ كَصَعَرِ[1] وَجْهِهِ، وَنَظَرِهِ شَزْرًا، وَإِطْرَاقِ رَأْسِهِ، وَجُلُوسِهِ مُتَرَبِّعًا وَمُتَّكِئًا، وَفِي أَقْوَالِهِ، حَتَّىٰ فِي صَوْتِهِ وَنَغْمَتِهِ، وَصِيغَةِ إِيرَادِهِ الْكَلَامَ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي مَشْيِهِ وَتَبَخْتُرِهِ وَقِيَامِهِ وَقُعُودِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَسَائِرِ تَقَلُّبَاتِهِ»[2].

*** الْكِبْرُ بِالْعِلْمِ:**

مَا بِهِ يَتَكَبَّرُ الْمُتَكَبِّرُ عَلَىٰ غَيْرِهِ كَثِيرٌ، مِنْهُ: الْعِلْمُ، وَمِنْهُ: الْعَمَلُ وَالْعِبَادَةُ، وَمِنْهُ: الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ مِنْ جَمَالٍ وَحُسْنِ هَيْئَةٍ.

«وَالْكِبْرُ بِالْعِلْمِ، هُوَ أَعْظَمُ الْآفَاتِ وَأَغْلَبُ الْأَدْوَاءِ[3] وَأَبْعَدُهَا عَنْ قَبُولِ

---

(١) الصَعَرُ: مَيْلٌ فِي الْوَجْهِ، وَقِيلَ: الصَّعَرُ: الْمَيْلُ فِي الْخَدِّ خَاصَّةً، وَقَدْ صَعَّرَ خَدَّهُ وَصَاعَرَهُ: أَمَالَهُ مِنَ الْكِبْرِ. [«لِسَانُ الْعَرَبِ» (صعر) (ص٢٤٤٧)].

(٢) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٢٩٢).

(٣) الْأَدْوَاءُ: جَمْعُ دَاءٍ.

الْعِلَاجِ إِلَّا بِشِدَّةٍ شَدِيدَةٍ وَجَهْدٍ جَهِيدٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ قَدْرَ الْعِلْمِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ، عَظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ وَغَيْرِهِمَا، بَلْ لَا قَدْرَ لَهُمَا أَصْلًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُمَا عِلْمٌ وَعَمَلٌ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْعَالِمُ إِذَا زَلَّ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ.

وَلَنْ يَقْدِرَ الْعَالِمُ عَلَىٰ دَفْعِ الْكِبْرِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ حُجَّةَ اللهِ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ آكَدُ، وَأَنَّهُ يُحْتَمَلُ مِنَ الْجَاهِلِ مَا لَا يُحْتَمَلُ عُشْرُهُ مِنَ الْعَالِمِ، فَإِنَّ مَنْ عَصَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَعِلْمٍ فَجِنَايَتُهُ أَفْحَشُ؛ إِذْ لَمْ يَقْضِ حَقَّ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْعَالِمَ يَعْرِفُ أَنَّ الْكِبْرَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا تَكَبَّرَ صَارَ مَمْقُوتًا عِنْدَ اللهِ بَغِيضًا، وَقَدْ أَحَبَّ اللهُ مِنْهُ أَنْ يَتَوَاضَعَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ لَكَ عِنْدِي قَدْرًا مَا لَمْ تَرَ لِنَفْسِكَ قَدْرًا، فَإِنْ رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ قَدْرًا فَلَا قَدْرَ لَكَ عِنْدِي، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ مَا يُحِبُّهُ مَوْلَاهُ مِنْهُ»(١).

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ:**

«الْكِبْرُ خُلُقٌ بَاطِنٌ تَصْدُرُ عَنْهُ أَعْمَالٌ هِيَ ثَمَرَتُهُ، فَيَظْهَرُ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ، وَذَلِكَ الْخُلُقُ هُوَ رُؤْيَةُ النَّفْسِ عَلَىٰ الْمُتَكَبَّرِ عَلَيْهِ، يَعْنِي يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ الْغَيْرِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَكَبِّرًا.

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» (٢/ ١٣٦).

وَبِهَذَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْعُجْبِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ لَا يَسْتَدْعِي غَيْرَ الْمُعْجَبِ، حَتَّىٰ لَوْ قُدِّرَ أَنْ يُخْلَقَ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ تُصُوِّرَ أَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَبِّرًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ غَيْرِهِ وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَتَىٰ رَأَىٰ نَفْسَهُ بِعَيْنِ الِاسْتِعْظَامِ حَقَرَ مَنْ دُونَهُ وَازْدَرَاهُ، وَصِفَةُ هَذَا الْمُتَكَبِّرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الْعَامَّةِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَمِيرِ؛ اسْتِجْهَالًا وَاسْتِحْقَارًا»[١].

«وَالْعُجْبُ يَدْعُو إِلَىٰ الْكِبْرِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَسْبَابِهِ، فَيَتَوَلَّدُ مِنَ الْعُجْبِ الْكِبْرُ، وَمِنَ الْكِبْرِ الْآفَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَا تَخْفَىٰ، وَهَذَا مَعَ الْخَلْقِ.

وَأَمَّا مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَالْعُجْبُ يَدْعُو إِلَىٰ نِسْيَانِ الذُّنُوبِ وَإِهْمَالِهَا، فَبَعْضُ ذُنُوبِهِ لَا يَذْكُرُهَا وَلَا يَتَفَقَّدُهَا؛ لِظَنِّهِ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ تَفَقُّدِهَا فَيَنْسَاهَا، وَمَا يَتَذَكَّرُهُ مِنْهَا فَيَسْتَصْغِرُهُ، وَلَا يَسْتَعْظِمُهُ، فَلَا يَجْتَهِدُ فِي تَدَارُكِهِ أَوْ تَلَافِيهِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ.

وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ وَالْأَعْمَالُ فَإِنَّهُ يَسْتَعْظِمُهَا وَيَتَبَجَّحُ بِهَا، وَيَمُنُّ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِفِعْلِهَا، وَيَنْسَىٰ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّمْكِينِ مِنْهَا، ثُمَّ إِذَا أُعْجِبَ بِهَا عَمِيَ عَنْ آفَاتِهَا، وَمَنْ لَمْ يَتَفَقَّدْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ كَانَ أَكْثَرُ سَعْيِهِ ضَائِعًا، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً نَقِيَّةً مِنَ الشَّوَائِبِ قَلَّمَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا يَتَفَقَّدُ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْإِشْفَاقُ وَالْخَوْفُ دُونَ الْعُجْبِ.

---

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٢٩١).

وَالْمُعْجَبُ يَغْتَرُّ بِنَفْسِهِ وَبِرَأْيِهِ، وَيَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ وَعَذَابَهُ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ عِنْدَ اللهِ بِمَكَانٍ، وَأَنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنَّةً وَحَقًّا بِأَعْمَالِهِ الَّتِي هِيَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِهِ، وَعَطِيَّةٌ مِنْ عَطَايَاهُ، وَيُخْرِجُهُ الْعُجْبُ إِلَىٰ أَنْ يُثْنِيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَيَحمَدُهَا وَيُزَكِّيهَا.

وَإِنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ وَعَمَلِهِ مَنَعَ ذَلِكَ مِنَ الِاسْتِفَادَةِ، وَمِنَ الِاسْتِشَارَةِ وَالسُّؤَالِ، فَيَسْتَبِدُّ بِنَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، وَيَسْتَنْكِفُ مِنْ سُؤَالِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا يُعْجَبُ بِالرَّأْيِ الْخَطَأِ الَّذِي خَطَرَ لَهُ فَيَفْرَحُ بِكَوْنِهِ مِنْ خَوَاطِرِهِ، وَلَا يَفْرَحُ بِخَوَاطِرِ غَيْرِهِ فَيُصِرُّ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْمَعُ نُصْحَ نَاصِحٍ، وَلَا وَعْظَ وَاعِظٍ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِعَيْنِ الِاسْتِجْهَالِ، وَيُصِرُّ عَلَىٰ خَطَئِهِ، فَإِنْ كَانَ رَأْيُهُ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ فَيَخْفُقُ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ فِي أَمْرٍ دِينِيٍّ لَاسِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأُصُولِ الْعَقَائِدِ فَيَهْلِكُ بِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ آفَاتِهِ أَنْ يَفْتُرَ فِي السَّعْيِ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ قَدْ فَازَ، وَأَنَّهُ قَدِ اسْتَغْنَىٰ، وَهُوَ الْهَلَاكُ الصَّرِيحُ الَّذِي لَا شُبْهَةَ فِيهِ»[1].

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الصِّيَانَةِ وَالْكِبْرِ:**

هُنَاكَ فَرْقٌ دَقِيقٌ بَيْنَ صِيَانَةِ النَّفْسِ عَمَّا يَشِينُهَا، وَالتَّكَبُّرِ وَالْعُجْبِ.

وَقَدْ جَلَّاهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «الْفَرْقُ بَيْنَ الصِّيَانَةِ وَالتَّكَبُّرِ: أَنَّ الصَّائِنَ لِنَفْسِهِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ قَدْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا نَقِيَّ الْبَيَاضِ ذَا ثَمَنٍ، فَهُوَ يَدْخُلُ بِهِ عَلَىٰ

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» (٢/ ١٣٨).

الْمُلُوكِ فَمَنْ دُونَهُمْ، فَهُوَ يَصُونُهُ عَنِ الْوَسَخِ وَالْغُبَارِ وَالطُّبُوعِ(١) وَأَنْوَاعِ الْآثَارِ إِبْقَاءً عَلَىٰ بَيَاضِهِ وَنَقَائِهِ، فَتَرَاهُ صَاحِبَ تَعَزُّزٍ وَهُرُوبٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَخْشَىٰ مِنْهَا عَلَيْهِ التَّلَوُّثَ فَلَا يَسْمَحُ بِأَثَرٍ وَلَا طَبَعٍ وَلَا تَلَوُّثٍ يَعْلُو ثَوْبَهُ.

وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ غِرَّةٍ -أَيْ: فَجْأَةً- بَادَرَ إِلَىٰ قَلْعِهِ وَإِزَالَتِهِ وَمَحْوِ أَثَرِهِ، وَهَكَذَا الصَّائِنُ لِقَلْبِهِ وَدِينِهِ تَرَاهُ يَتَجَنَّبُ طُبُوعَ الذُّنُوبِ وَآثَارَهَا، فَإِنَّ لَهَا فِي الْقَلْبِ طُبُوعًا وَآثَارًا أَعْظَمُ مِنَ الطُّبُوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الثَّوْبِ النَّقِيِّ الْبَيَاضِ، وَلَكِنَّ عَلَىٰ الْعُيُونِ غِشَاوَةً أَنْ تُدْرِكَ تِلْكَ الطُّبُوعَ.

فَتَرَاهُ يَهْرُبُ مِنَ مَظَانِّ التَّلَوُّثِ، وَيَحْتَرِسُ مِنَ الْخَلْقِ، وَيَتَبَاعَدُ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْصُلَ لِقَلْبِهِ مَا يَحْصُلُ لِلثَّوْبِ الَّذِي يُخَالِطُ الدَّبَّاغِينَ وَالذَّبَّاحِينَ وَالطَّبَّاخِينَ وَغَيْرَهُمْ.

بِخِلَافِ صَاحِبِ الْعُلُوِّ، فَإِنَّهُ -وَإِنْ شَابَهُ هَذَا فِي تَحَرُّزِهِ وَتَجَنُّبِهِ- فَهُوَ يَقْصِدُ أَنْ يَعْلُوَ رِقَابَهُمْ وَيَجْعَلَهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَهَذَا لَوْنٌ وَذَاكَ لَوْنٌ»(٢).

وَقَدْ كَانَ إِمَامُ الْعُلَمَاءِ وَقُدْوَةُ السَّالِكِينَ وَأُسْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعًا عَلَىٰ عُلُوِّ مَنْصِبِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ.

---

(١) الطُّبُوعُ: جَمْعُ طَبَعٍ. وَالطَّبْعُ بِالسُّكُونِ: الْخَتْمُ، وَبِالتَّحْرِيكِ: الدَّنَسُ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْوَسَخِ وَالدَّنَسِ يَغْشَيَانِ السَّيْفَ.

(٢) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٧).

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -يَعْنِي: خِدْمَةِ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، خَرَجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

وَعَنْ أَبِي رِفَاعَةَ تَمِيمِ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** «انْتَهَيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرسِيٍّ، فَقَعَدَ عَلَيهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَقَدْ كَانَ قَانُونُ السَّلَفِ الَّذِي يَحْكُمُهُمْ، وَيَهْتَدُونَ بِنُورِهِ، الِالْتِزَامَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ عِيَاضُ بْنُ حِمَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَهَذَا أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ضِعَافِ النَّاسِ وَصَعَالِيكِهِمْ،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٤).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧٦).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٩٣)، وَمُسْلِمٌ (٢١٦٨).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٤٦).

وَلَا يُحْتَفَلُ بِهِ، وَلَا يُؤْبَهُ لَهُ، وَهُوَ مَنْ هُوَ؟!

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَىٰ عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**». فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَىٰ عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ**». ذَا

---

(١) «مُسْلِمٌ» (٢٤٥٢)، وَغَبْرَاءُ النَّاسِ أَيْ: ضِعَافُهُمْ وَصَعَالِيكُهُمْ، وَأَخْلاطُهُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُمْ.

صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ خَيرُ التَّابِعِينَ، وَقَدْ يُقَالُ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ: أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَالْجَوَابُ أَنَّ مُرَادَهُمْ أَنَّ سَعِيدًا أَفْضَلُ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ كَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَنَحْوِهَا، لَا فِي الْخَيْرِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: «**أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ**»: هُمُ الْجَمَاعَةُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ يَمُدُّونَ جُيُوشَ الْإِسْلَامِ فِي الْغَزْوِ، وَاحِدُهُمْ مَدَدٌ.

قَوْلُهُ: «أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ»؛ أَيْ: ضِعَافِهِمْ وَصَعَالِيكِهِمْ وَأَخْلَاطِهِمُ الَّذِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ إِيثَارِ الْخُمُولِ وَكَتْمِ حَالِهِ»[١].

وَالْكِبْرُ وَالْعُجْبُ مِنْ رَوْعَنَاتِ نَفْسٍ تَنْسَىٰ أَنَّ مَا بِهَا مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَالْعِلْمُ الصَّحِيحُ وَالِاهْتِدَاءُ بِالْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ حَرْبٌ لِتِلْكَ الرَّذَائِلِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالصَّلَفِ وَالْغُرُورِ؛ لِأَنَّهُ «إِذَا تَمَّ عِلْمُ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَإِنَّمَا يَرَىٰ إِنْعَامَ الْمُوَفِّقِ لِذَلِكَ الْعَمَلِ، الَّذِي يَمْنَعُ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ عَمَلًا أَوْ يُعْجَبَ بِهِ، وَذَلِكَ بِأَشْيَاءَ:

مِنْهَا: أَنَّهُ وَفَّقَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنِّعَمِ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ الْمَخْدُومِ، احْتُقِرَ كُلُّ عَمَلٍ وَتَعَبُّدٍ.

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١٦/ ٩٥).

هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ، وَخَلَصَ مِنْ غَفْلَةٍ، فَأَمَّا وَالْغَفْلَاتُ تُحِيطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْلُبَ الْحَذَرُ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِ فِيهِ، فَيَشْتَغِلُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ عَلَىٰ الْفُطَنَاءِ أَحْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ قَالُوا: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

وَالْخَلِيلُ عليه السلام **يَقُولُ:** ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى﴾ [الشعراء:٨٢]، وَمَا أَدَلَّ بِتَصَبُّرِهِ عَلَىٰ النَّارِ وَتَسْلِيمِهِ الْوَلَدَ إِلَىٰ الذَّبْحِ.

وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «**مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[١].

وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه **يَقُولُ:** وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

وَعُمَرُ رضي الله عنه **يَقُولُ:** لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ؛ لَافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْخَبَرُ.

وَابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ.

وَعَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُولُ: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

وَهَذَا شَأْنُ الْعُقَلَاءِ -فَرَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ-.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦).

وَلَوْلَا عِزَّةُ الْفَهْمِ مَا تَكَبَّرَ مُتَكَبِّرٌ عَلَىٰ جِنْسِهِ، وَلَكَانَ كُلُّ خَامِلٍ خَائِفًا مُحْتَقِرًا، حَذِرًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ مَا أُنعِمَ عَلَيْهِ بِهِ.

وَفَهْمُ هَذَا الْمَشْرُوحِ يُنَكِّسُ رَأْسَ الْكِبْرِ، وَيُوجِبُ مُسَاكَنَةَ الذُّلِّ، فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ»(١).

وَيَكْفِي الْعَالِمَ شَرَفًا مَا فِي الْعِلْمِ مِنْ شَرَفٍ، وَيَكْفِيهِ عِزًّا مَا فِيهِ مِنْ عِزٍّ.

قَالَ أَبُو مَرْوَانَ الطُّبْنِيُّ:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشَتْنِي(٢) أَلْفُ مَحْبَرَةٍ … يَكْتُبْنَ: حَدَّثَنِي طَوْرًا، وَأَخْبَرَنِي
نَادَتْ بِحَضْرَتِيَ الْأَقْلَامُ مُعْلِنَةً … هَذِي الْمَفَاخِرُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ

وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ؛ فَمَا تَحَلَّىٰ الْعَالِمُ بِحِلْيَةٍ أَجْمَلَ، وَلَا ارْتَدَىٰ حُلَّةً أَفْخَرَ مِنَ التَّوَاضُعِ، وَمَا تَرَدَّىٰ بِرِدَاءٍ أَحْقَرَ، وَلَا تَزَيَّا بِزِيٍّ أَسْوَأَ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ.

لِذَلِكَ وَصَّىٰ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالتَّوَاضُعِ لِلْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ سَوَاءً، وَهِيَ نَصِيحَةٌ غَالِيَةٌ، فَاجْعَلْهَا مِنْكَ عَلَىٰ ذُكْرٍ أَبَدًا.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا لَهُ الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ، وَلِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ، فَلَا

(١) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص٤٧٢).
(٢) احْتَوَشَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ: أَحَاطُوا بِهِ وَجَعَلُوهُ وَسْطَهُمْ.

يَقُومُ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»[١].

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ -عَلَىٰ جَلَالَتِهِ وَإِمَامَتِهِ- مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَوَاضُعًا.

قَالَ عَارِمٌ أَبُو النُّعْمَانِ: «وَضَعَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عِنْدِي نَفَقَتَهُ، فَكَانَ يَجِيءُ فَيَأْخُذُ مِنْهَا حَاجَتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، بَلَغَنِي أَنَّكَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: يَا أَبَا النُّعْمَانِ، نَعَمْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسَاكِينُ، فَلَمْ يَزَلْ يُدَافِعُنِي حَتَّىٰ خَرَجَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا».

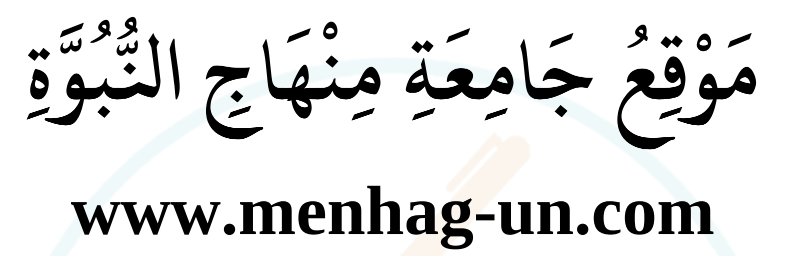
وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَذِيُّ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ يُدْعَىٰ لَكَ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَمَا يَنْفَعُهُ كَلَامُ النَّاسِ؟!!».

• • •

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٣٥).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْحَادِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٧- فَقْدُ الخَشيَةِ فِيهِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

أَيْ: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قَالَ: «الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «الْخَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَ اللهُ فِيهِ، وَزَهِدَ فِيمَا سَخِطَ اللهُ فِيهِ، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قَالَ**: «لَيْسَ الْعِلْمُ عَنْ كَثْرَةِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ عَنْ كَثْرَةِ الْخَشْيَةِ».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمِصْرِيُّ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ: «إِنَّ الْعِلْمَ

لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ».

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمِصْرِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْخَشْيَةَ لَا تُدْرَكُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ ﷻ أَنْ يُتَّبَعَ، إِنَّمَا هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالرِّوَايَةِ، وَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: نُورٌ، يُرِيدُ بِهِ: فَهْمَ الْعِلْمِ، وَمَعْرِفَةَ مَعَانِيهِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّيْمِيِّ عَنْ رَجُلٍ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِاللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ؛ فَالْعَالِمُ بِاللهِ وَبِأَمْرِ اللهِ الَّذِي يَخْشَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَيَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ، وَالْعَالِمُ بِاللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ الَّذِي يَخْشَىٰ اللهَ وَلَا يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ، وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ الَّذِي يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ وَلَا يَخْشَىٰ اللهَ ﷻ»(١).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ -يَعْنِي: بِعَقِبِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾- تَعْلِيلٌ لِوُجُوبِ الْخَشْيَةِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ عُقُوبَةِ الْعُصَاةِ وَقَهْرِهِمْ، وَإِثَابَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَالْمُعَاقِبُ الْمُثِيبُ حَقُّهُ أَنْ يُخْشَىٰ»(٢).

---

(١) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ٥٥٤).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٤/ ٣٣٢).

وَقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ ﷻ الَّذِينَ لَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ لِلذِّكْرِ، وَلَا يُحْدِثُ عِنْدَهُمُ الْخَشْيَةَ، وَمَدَحَ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمُ الْخَشْيَةُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: فَلَا تَلِينُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَلَا تَخْشَعُ، وَلَا تَعِي، وَلَا تَفْهَمُ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثُمَّ مَدَحَ اللهُ ﷻ كِتَابَهُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الْمُنَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي.

وَقَالَ قَتَادَةُ: الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ، وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: تَرْدِيدُ الْقَوْلِ لِيَفْهَمُوا عَنْ رَبِّهِمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿مَّثَانِىَ﴾ مُرَدَّدٌ، رَدَّدَ مُوسَىٰ فِي الْقُرْآنِ، وَصَالِحًا، وَهُودًا، وَالْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي أَمْكِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَرُدُّ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ، عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ، الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُجَّارِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ سَمَاعَ هَؤُلَاءِ هُوَ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ وَسَمَاعُ أُولَئِكَ نَغَمَاتُ الْأَبْيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقَيْنَاتِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ كَمَا قَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا، بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا فَاهِمِينَ بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا، فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ الْأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَخُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ بَلْ عِنْدَهُمْ

مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَدْحِ مِنَ الرَّبِّ الْأَعْلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: تَلَا قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قَالَ: هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أَيْ: هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾»[1].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مَعْنَىٰ: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَزْدَادُ قَسْوَةً مِنْ سَمَاعِ ذِكْرِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ (مِنْ) بِمَعْنَىٰ (عَنْ)، وَالْمَعْنَىٰ: قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ قَبُولِ ذِكْرِ اللهِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَمَا غَضِبَ اللهُ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ»[2].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ لَمَّا قَالَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٤/ ٥٠).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٥/ ٢٣٧).

أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨] بَيَّنَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا يُسْمَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ.

﴿كِتَٰبٗا﴾ نُصِبَ عَلَىٰ الْبَدَلِ مِنْ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْهُ.

﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْآيِ وَالْحُرُوفِ، وَقِيلَ: يُشْبِهُ كُتُبَ اللهِ الْمُنَزَّلَةَ عَلَىٰ أَنْبِيائِهِ، لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، وَإِنْ كَانَ أَعَمَّ وَأَعْجَزَ، ثُمَّ وَصَفَهُ فَقَالَ: ﴿مَّثَانِيَ﴾. تُثَنَّىٰ فِيهِ الْقِصَصُ وَالْمَوَاعِظُ وَالْأَحْكَامُ، وَثُنِّيٌّ لِلتِّلَاوَةِ فَلَا يُمَلُّ.

﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ بِالْخَوْفِ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ عِنْدَ آيَةِ الرَّحْمَةِ. وَقِيلَ: إِلَىٰ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ. وَقِيلَ: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ يَعْنِي الْإِسْلَامَ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ. قِيلَ لَهَا: فَإِنَّ أُنَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُمَحِيُّ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ سَاقِطٍ فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ

أَحَدِهِمْ؛ مَا كَانَ هَذَا صَنِيعَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: ذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ سِيرِينَ الَّذِينَ يُصْرَعُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، فَقَالَ: بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ بَاسِطًا رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ فَإِنْ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ فَهُوَ صَادِقٌ»(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَا تَلِينُ لِكِتَابِهِ، وَلَا تَتَذَكَّرُ آيَاتِهِ، وَلَا تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ، بَلْ هِيَ مُعْرِضَةٌ عَنْ رَبِّهَا، مُلْتَفِتَةٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ الْوَيْلُ الشَّدِيدُ، وَالشَّرُّ الْكَبِيرُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وَأَيُّ ضَلَالٍ أَعْظَمُ مِنْ ضَلَالِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَلِيِّهِ؟ وَمَنْ كُلَّ السَّعَادَةَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَقَسَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَضُرُّهُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ الْمُزْعِجِ، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عِنْدَ ذِكْرِ الرَّجَاءِ وَالتَّرْغِيبِ، فَهُوَ تَارَةً يُرَغِّبُهُمْ لِعَمَلِ الْخَيْرِ، وَتَارَةً يُرَهِّبُهُمْ مِنْ عَمَلِ الشَّرِّ»(٢).

وَالشَّأْنُ كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «مَنْ لَمْ يَخْشَ اللهَ تَعَالَىٰ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ».

وَكَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ».

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٥/ ٢٣٧).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص٤٦٢).

وَفِي قَوْلٍ لِمُجَاهِدٍ: «إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللهَ ﷻ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كَفَىٰ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عِلْمًا وَبِالِاغْتِرَارِ جَهْلًا».

وَقِيلَ لِسَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: «مَنْ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِرَبِّهِ ﷻ»[١].

فَالْخَشْيَةُ وَالْخُشُوعُ مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ الْحَقِّ لَا يَنْفَكَّانِ عَنْهُ بِحَالٍ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ لَوَازِمِ الْفَهْمِ الْحَقِّ، وَهُوَ أَيِ: الْفَهْمُ الْحَقُّ وَلَيْسَ الْوُقُوفُ عَلَىٰ رُسُومِ الْأَلْفَاظِ وَصُورَةِ الْعِلْمِ مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ الْحَقِّ.

وَقَدْ حَكَىٰ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رحمه الله **حَالَ الَّذِي يَقِفُونَ عِنْدَ رُسُومِ الْأَلْفَاظِ وَصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ النَّفَاذِ إِلَىٰ لُبِّهِ وَلُبَابِهِ فَقَالَ:**

«رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ مُشْتَغِلِينَ بِصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ فَهْمِ حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ.

فَالْقَارِئُ مَشْغُولٌ بِالرِّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَىٰ الشَّوَاذِّ، يَرَىٰ أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْسُ التِّلَاوَةِ، وَلَا يَتَلَمَّحُ عَظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ؛ وَلَا زَجْرَ الْقُرْآنِ وَوَعْدَهُ.

وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوبِ، وَلَوْ فَهِمَ لَعَلِمَ أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَىٰ مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ.

وَالْمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الْأَسَانِيدَ، وَلَا يَتَأَمَّلُ مَقْصُودَ الْمَنْقُولِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَلَىٰ النَّاسِ الْأَحَادِيثَ، فَهُوَ يَرْجُو بِذَلِكَ السَّلَامَةَ.

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٤/ ٣٣١).

وَرُبَّمَا تَرَخَّصَ فِي الْخَطَايَا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ.

وَالْفَقِيهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الْجِدَالِ الَّذِي يُقَوِّي بِهِ خِصَامَهُ، أَوِ الْمَسَائِلِ الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيهَا الْمَذْهَبَ قَدْ حَصَلَ بِمَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُو ذَنْبَهُ.

فَرُبَّمَا هَجَمَ عَلَىٰ الْخَطَايَا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ.

وَرُبَّمَا لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْرِفِ الْحَدِيثَ، وَأَنَّهُمَا يَنْهَيَانِ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِزَجْرٍ وَرِفْقٍ.

وَيَنْضَافُ إِلَيْهِ مَعَ الْجَهْلِ بِهِمَا حُبُّ الرِّيَاسَةِ، وَإِيثَارُ الْغَلَبَةِ فِي الْجَدَلِ، فَتَزِيدُ قَسْوَةُ قَلْبِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا أَكْثَرُ النَّاسِ، صُوَرُ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ، فَهِيَ تَكْسِبُهُمُ الْكِبْرَ وَالْحَمَاقَةَ.

وَقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ الْمُعْتَبِرِينَ عَنْ شَيْخٍ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِفِسْقٍ أَصَرَّ عَلَيْهِ، وَبَارَزَ اللهَ بِهِ وَكَانَتْ حَالُهُ تُعْطِي بِمَضْمُونِهَا أَنَّ عِلْمِي يَدْفَعُ عَنِّي شَرَّ مَا أَنَا فِيهِ وَلَا يَبْقَىٰ لَهُ أَثَرٌ.

وَكَانَ كَأَنَّهُ قَدْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ، فَلَا يُرَىٰ عِنْدَهُ أَثَرٌ لِخَوْفٍ وَلَا نَدَمٍ عَلَىٰ ذَنْبٍ. قَالَ فَتَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَلَازَمَهُ الْفَقْرُ، فَكَانَ يَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ وَلَا يَنْتَهِي عَنْ

قُبْحِ حَالِهِ. إِلَىٰ أَنْ جُمِعَتْ لَهُ يَوْمًا قَرَارِيطُ(١) عَلَىٰ وَجْهِ الْكِدْيَةِ(٢) فَاسْتَحَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا رَبِّ إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ؟

قَالَ الْحَاكِي: فَتَعَجَّبْتُ مِنْ غَفْلَتِهِ كَيْفَ نَسِيَ اللهَ ﷻ، وَأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدْبِيرِ لَهُ وَالصِّيَانَةِ وَسَعَةَ الرِّزْقِ، وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وَلَا عَلِمَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَسُدُّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ مَنْ ضَيَّعَ أَمْرَ اللهِ ضَيَّعَهُ اللهُ.

فَمَا رَأَيْتُ عِلْمًا مَا أَفَادَ كَعِلْمِ هَذَا، لِأَنَّ الْعَالِمَ إِذَا زَلَّ انْكَسَرَ، وَهَذَا مُصِرٌّ لَا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيَتُهُ.

وَكَأَنَّهُ -أَيْ: عِلْمُهُ- يُجَوِّزُ لَهُ مَا يَفْعَلُ، أَوْ كَأَنَّ لَهُ التَّصَرُّفَ فِي الدِّينِ تَحْلِيلًا وَتَحْرِيمًا، فَمَرِضَ عَاجِلًا وَمَاتَ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ.

قَالَ الْحَاكِي: وَرَأَيْتُ شَيْخًا آخَرَ حَصَّلَ صُوَرَ عِلْمٍ فَمَا أَفَادَتْهُ.

كَانَ أَيُّ فِسْقٍ أَمْكَنَهُ لَمْ يَتَحَاشَ مِنْهُ، وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنَ الْقَدَرِ عَارَضَهُ بِالِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْمُقَدِّرِ وَاللَّوْمِ.

---

(١) **الْقَرَارِيطُ**: جَمْعُ قِيرَاطٍ، وَهُوَ نِصْفُ عُشْرِ دِينَارٍ، وَالْقِيرَاطُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الدِّينَارِ، وَأَهْلُ الشَّامِ يَجْعَلُونَهُ جُزْءًا مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ، وَالْيَاءُ فِي الْقِيرَاطِ بَدَلٌ مِنَ الرَّاءِ وَأَصْلُهُ قِرَّاطٌ «لِسَانُ الْعَرَبِ» (ص٣٥٩١).

(٢) الْكُدْيَةُ: الْإِلْحَاحُ فِي الْمَسْأَلَةِ، يُقَالُ أَكْدَىٰ: أَيْ: أَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ.

فَعَاشَ أَكْدَرَ عَيْشٍ، وَعَلَىٰ أَقْبَحِ اعْتِقَادٍ حَتَّىٰ دَرَجَ(١).

«وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَىٰ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ صُوَرَ الْأَلْفَاظِ، إِنَّمَا الْمَقْصُودُ فَهْمُ الْمُرَادِ مِنْهُ، وَذَلِكَ يُورِثُ الْخَشْيَةَ وَالْخَوْفَ، وَيُرِيهِ الْمِنَّةَ لِلْمُنْعِمِ بِالْعِلْمِ، وَقُوَّةَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ الْمُتَعَلِّمِ»(٢).

وَالْخُشُوعُ مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، لَهَا مَعَالِمُ وَعَلَيْهَا شَوَاهِدُ.

وَقَدْ شَرَحَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٥٢٠) مَعَالِمَهَا، وَبَيَّنَ شَوَاهِدَهَا، غَايَةَ الْبَيَانِ وَأَجْلَاهُ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «الْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الِانْخِفَاضُ، وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨]، أَيْ: سَكَنَتْ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصْفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ، وَهُوَ: يُبْسُهَا، وَانْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا، بِالرِّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

وَالْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ: الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ. وَهَذَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُشُوعِ، فَمِنْ عَلَامَاتِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خُولِفَ وَرُدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ، اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ.

---

(١) دَرَجَ الشَّيْخُ وَالصَّبِيُّ يَدْرُجُ دَرْجًا وَدَرِيجًا وَدَرَجَانًا، فَهُوَ دَارِجٌ: مَشَيَا مَشْيًا ضَعِيفًا وَدَبًّا.
(٢) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص٥٤٧).

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ: خُمُودُ نِيرَانِ الشَّهْوَةِ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ، وَإِشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْخُشُوعُ: تَذَلُّلُ الْقُلُوبِ لِعَلَّامِ الْغُيُوبِ.

وَأَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْخُشُوعَ مَحِلُّهُ الْقَلْبُ، وَثَمَرَتُهُ الْجَوَارِحُ، وَهِيَ تُظْهِرُهُ.

وَقَدْ رَأَىٰ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «**لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»[(١)].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**التَّقْوَىٰ هَاهُنَا**» وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٢)]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوَانُ أَدَبِ الْبَاطِنِ.

وَرَأَىٰ بَعْضُهُمْ رَجُلًا خَاشِعَ الْمَنْكِبَيْنِ وَالْبَدَنِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، الْخُشُوعُ هَاهُنَا -وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ- لَا هَاهُنَا -وَأَشَارَ إِلَىٰ مَنْكِبَيْهِ-.

---

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ: رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَيُرْوَىٰ مَرْفُوعًا لَكِنَّهُ بِإِسْنَادٍ لَا يَصِحُّ «الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ» (ص٧) بَلْ حَكَمَ بِوَضْعِهِ مَرْفُوعًا الْأَلْبَانِيُّ قَالَ: الْحَدِيثُ مَوْضُوعٌ مَرْفُوعًا، ضَعِيفٌ مَوْقُوفًا بَلْ مَقْطُوعًا «سِلْسِلَةُ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ» رَقْمُ (١١٠).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم **وَهُوَ حُذَيْفَةُ، يَقُولُ**: إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَىٰ الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ.

وَرَأَىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه **رَجُلًا طَأْطَأَ رَقَبَتَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ**: يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ارْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ.

وَرَأَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها **شَبَابًا يَمْشُونَ وَيَتَمَاوَتُونَ فِي مِشْيَتِهِمْ، فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهَا**: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: نُسَّاكٌ. فَقَالَتْ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا مَشَىٰ أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكُ حَقًّا.

وَالْحَقُّ: أَنَّ الْخُشُوعَ مَعْنًىٰ يَلْتَئِمُ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالذُّلِّ، وَالِانْكِسَارِ»(١). اهـ.

فَإِذَا أَثْمَرَ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ خَشْيَةً وَخُشُوعًا، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ، وَإِذَا لَمْ يُثْمِرِ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ خَشْيَةً وَإِخْبَاتًا، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَعَوَّذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ، وَأَمَرَ الْأُمَّةَ أَنْ تَتَعَوَّذَ بِاللهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ**».

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ رحمه الله (١/ ٥٢٠).

فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا.

فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**».

قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَىٰ فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٣)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢/ ٣٣٧)، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ» (٣/ ٤٥٦) رَقْمُ (٥٩٠٩)، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ لَا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﵁، وَتَصَحَّفَ عَلَىٰ نَاشِرِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ»: جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ بِـ«جُبَيْرِ بْنُ نُصَيْرٍ»!!

«**فَالْعِلْمُ النَّافِعُ**: هُوَ مَا بَاشَرَ الْقُلُوبَ فَأَوْجَبَ لَهَا السَّكِينَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالْإِخْبَاتَ لِلَّهِ، وَالتَّوَاضُعَ وَالِانْكِسَارَ، وَإِذَا لَمْ يُبَاشِرِ الْقَلْبَ ذَلِكَ الْعِلْمُ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَىٰ اللِّسَانِ، فَهُوَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ يَقُومُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَغَيْرِهِ.

كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁: «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ؛ نَفَعَ صَاحِبَهُ».

فَأَخْبرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا مَوْجُودٌ بِأَيْدِيهِمْ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ، لَمَّا فَقَدُوا الْمَقْصُودَ مِنْهُ، وَهُوَ وُصُولُهُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ يَجِدُوا حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَمَنْفَعَتَهُ بِحُصُولِ الْخَشْيَةِ وَالْإِنَابَةِ لِقُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، تُقَامُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ.

وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْعُلَمَاءَ بِالْخَشْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وَقَالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٰخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. وَوَصَفَ الْعُلَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِالْخُشُوعِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣]، وَلِينُ الْقُلُوبِ: هُوَ زَوَالُ قَسَاوَتِهَا؛ لِحُدُوثِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالرِّقَةِ.

وَقَدْ عَاتَبَ اللهُ مَنْ لَا يَخْشَعُ قَلْبُهُ لِسَمَاعِ كِتَابِ اللهِ وَتَدَبُّرِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الحديد:١٦].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا

أَرْبَعُ سِنِينَ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(١).

وَقَدْ سَمِعَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ هَذِهِ الْآيَةَ تُتْلَىٰ فَأَثَّرَتْ فِيهِمْ آثَارًا مُتَعَدِّدَةً؛ فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ عِنْدَ ذَلِكَ لِانْصِدَاعِ قَلْبِهِ بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَابَ عِنْدَ ذَلِكَ وَخَرَجَ عَمَّا فِيهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: «وَاللهِ لَقَدْ صَرَّفَ إِلَيْنَا رَبُّنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا لَوْ صَرَّفَهُ إِلَىٰ الْجِبَالِ لَمَحَاهَا وَدَحَاهَا».

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ يَقُولُ: «أُقْسِمُ لَكُمْ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا صُدِعَ قَلْبُهُ».

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(٣).

---

(١) فِي صَحِيحِهِ (٣٠٢٧).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٧٢٢).

(٣) «الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ» لِابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ (ص١٤).

قَالَ أَبُو عُمَرَ: فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٨٨): «قَالَ يَزِيدُ بْنُ قَوْدَرٍ: يُوشِكُ أَنْ تَرَىٰ رِجَالًا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَيَتَغَايَرُونَ عَلَيْهِ كَمَا يَتَغَايَرُ الْفُسَّاقُ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، هُوَ حَظُّهُمْ مِنْهُ».

وَأَخْرَجَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي قُلَابَةَ قَالَ: إِذَا أَحْدَثَ اللهُ لَكَ عِلْمًا فَأَحْدِثْ لَهُ عِبَادَةً، وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ أَنْ تُحَدِّثَ بِهِ.

وَبِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ: «إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِيُتَّقَىٰ بِهِ اللهُ، وَإِنَّمَا فُضِّلَ الْعِلْمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ يُتَّقَىٰ بِهِ اللهُ».

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفسِكَ كَانَ ذَا التَّعلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

وَأَرَاكَ تُلْقِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ

ابدأْ بنفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَىٰ ... بِالْعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعلِيمُ

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

●●●

٨- المِرَاءُ وَالجِدَالُ وَالمُخَاصَمَةُ

الْمِرَاءُ: طَعْنٌ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْتَبِطَ بِهِ غَرَضٌ سِوَىٰ تَحْقِيرِ الْغَيْرِ، وَإِظْهَارِ مَزِيَّةِ الْكِيَاسَةِ.

وَالْجِدَالُ: عِبَارَةٌ عَنْ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِ الْمَذَاهِبِ وَتَقْرِيرِهَا.

وَالْمُجَادَلَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ قَصْدِ إِفْحَامِ الْغَيْرِ وَتَعْجِيزِهِ، وَتَنْقِيصِهِ بِالْقَدْحِ فِي كَلَامِهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَىٰ الْقُصُورِ وَالْجَهْلِ فِيهِ.

وَالْخُصُومَةُ: لَجَاجٌ فِي الْكَلَامِ لِيُسْتَوْفَىٰ بِهِ مَالٌ أَوْ حَقٌّ مَقْصُودٌ، وَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ ابْتِدَاءً وَتَارَةً يَكُونُ اعْتِرَاضًا، وَالْمِرَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاعْتِرَاضٍ عَلَىٰ كَلَامٍ سَبَقَ، فَالْخُصُومَةُ وَرَاءَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ[١].

قَالَ أَبُو حَامِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدُّ الْمِرَاءِ هُوَ: كُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَىٰ كَلَامِ الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ إِمَّا فِي اللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي الْمَعْنَىٰ، وَإِمَّا فِي قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَتَرْكُ الْمِرَاءِ بِتَرْكِ الْإِنْكَارِ وَالِاعْتِرَاضِ، فَكُلُّ كَلَامٍ سَمِعْتَهُ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَصَدِّقْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَوْ كَذِبًا وَلَمْ يَكُنْ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدِّينِ فَاسْكُتْ عَنْهُ.

---

(١) هَذِهِ التَّعْرِيفَاتُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ: «تَهْذِيبِ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ٤٩).

وَالطَّعْنُ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ تَارَةً يَكُونُ فِي لَفْظِهِ؛ بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ مِنْ جِهَةِ النَّحْوِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ؛ بِسُوءِ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، وَذَلِكَ يَكُونُ تَارَةً مِنْ قُصُورِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِطُغْيَانِ اللِّسَانِ، وَكَيْفَمَا كَانَ فَلَا وَجْهَ لِإِظْهَارِ خَلَلِهِ.

وَأَمَّا فِي الْمَعْنَىٰ؛ فَبِأَنْ يَقُولَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُ، وَقَدْ أَخْطَأْتَ فِيهِ مِنْ وَجْهِ كَذَا وَكَذَا.

وَأَمَّا فِي قَصْدِهِ؛ فَمِثْلُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْكَلَامُ حَقٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ قَصْدُكَ مِنْهُ الْحَقَّ، وَإِنَّمَا أَنْتَ فِيهِ صَاحِبُ غَرَضٍ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ.

وَهَذَا الْجِنْسُ إِنْ جَرَىٰ فِي مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ رُبَّمَا خُصَّ بِاسْمِ الْجَدَلِ، وَهُوَ أَيْضًا مَذْمُومٌ، بَلِ الْوَاجِبُ السُّكُوتُ، أَوِ السُّؤَالُ فِي مَعْرِضِ الِاسْتِفَادَةِ لَا عَلَىٰ وَجْهِ الْعِنَادِ وَالنَّكَارَةِ، أَوِ التَّلَطُّفِ فِي التَّعْرِيفِ لَا فِي مَعْرِضِ الطَّعْنِ.

وَأَمَّا الْمُجَادَلَةُ: فَعِبَارَةٌ عَنْ قَصْدِ إِفْحَامِ الْغَيْرِ وَتَعْجِيزِهِ وَتَنْقِيصِهِ بِالْقَدْحِ فِي كَلَامِهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَىٰ الْقُصُورِ وَالْجَهْلِ فِيهِ.

وَآيَةُ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ تَنْبِيهُهُ لِلْحَقِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ مَكْرُوهًا عِنْدَ الْمُجَادِلِ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرُ لَهُ خَطَأَهُ؛ لِيُبَيِّنَ بِهِ فَضْلَ نَفْسِهِ، وَنَقْصَ صَاحِبِهِ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِالسُّكُوتِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَأْثَمُ بِهِ لَوْ سَكَتَ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْبَاعِثُ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ التَّرَفُّعُ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَالتَّهَجُّمُ عَلَىٰ

الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ نَقْصِهِ، وَهُمَا شَهوَتَانِ بَاطِنَتَانِ لِلنَّفْسِ قَوِيَّتَانِ لَهَا، وَأَمَّا إِظْهَارُ الْفَضْلِ فَهُوَ مِنْ قِبَلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَهِيَ مِنْ مُقْتَضَىٰ مَا فِي الْعَبْدِ مِنْ طُغْيَانِ دَعْوَىٰ الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَمَّا تَنْقِيضُ الْآخرِ فَهُوَ مِنْ مُقْتَضَىٰ طَبْعِ السَّبُعِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ يُمَزِّقَ غَيْرَهُ وَيَقْصِمَهُ وَيَصْدِمَهُ وَيُؤْذِيَهُ.

وَهَاتَانِ صِفَتَانِ مَذْمُومَتَانِ مُهْلِكَتَانِ، وَإِنَّمَا قُوَّتُهُمَا الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ، فَالْمُوَاظِبُ عَلَىٰ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ مُقَوٍّ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُهْلِكَةِ، وَهَذَا مُجَاوِزٌ حَدَّ الْكَرَاهَةِ، بَلْ هُوَ مَعْصِيَةٌ مَهْمَا حَصَلَ فِيهِ إِيذَاءُ الْغَيْرِ، وَلَا تَنْفَكُّ الْمُمَارَاةُ عَنِ الْإِيذَاءِ وَتَهْيِيجِ الْغَضَبِ وَحَمْلِ الْمُعْتَرِضِ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنْ يَعُودَ فَيَنْصُرَ كَلَامَهُ بِمَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، وَيَقْدَحُ فِي قَائِلِهِ بِكُلِّ مَا يَتَصَوَّرُ لَهُ، فَيَثُورُ الشِّجَارُ بَيْنَ الْمُتَمَارِيَيْنِ كَمَا يَثُورُ الْهِرَاشُ بَيْنَ الْكَلْبَيْنِ، يَقْصِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَعَضَّ صَاحِبَهُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ نِكَايَةً، وَأَقْوَىٰ فِي إِفْحَامِهِ وَإِلْجَامِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ حَقٌّ فَلَا بُدَّ مِنَ الْخُصُومَةِ فِي طَلَبِهِ أَوْ فِي حِفْظِهِ مَهْمَا ظَلَمَهُ ظَالِمٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ حُكْمُهُ؟ وَكَيْفَ تُذَمُّ خُصُومَتُهُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الذَّمَّ يَتَنَاوَلُ الَّذِي يُخَاصِمُ بِالْبَاطِلِ، وَالَّذِي يُخَاصِمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَنَاوَلُ الَّذِي يَمْزَحُ بِالْخُصُومَةِ بِكَلِمَاتٍ مُؤْذِيَةٍ لَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي نُصْرَةِ الْحُجَّةِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَيَتَنَاوَلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْخُصُومَةِ مَحْضَ الْعِنَادِ لِقَهْرِ الْخَصْمِ.

وَأَمَّا الْمَظْلُومُ الَّذِي يَنْصُرُ حُجَّتَهُ بِطَرِيقِ الشَّرْعِ، مِنْ غَيْرِ لَدَدٍ وَإِسْرَافٍ وَزِيَادَةِ لَجَاجٍ عَلَىٰ قَدْرِ الْحَاجَةِ، وَمِنْ غَيْرِ قَصْدِ عِنَادٍ وَإِيذَاءٍ، فَفِعْلُهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَلَكِنَّ الْأَوْلَىٰ تَرْكُهُ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَإِنَّ ضَبْطَ اللِّسَانِ فِي الْخُصُومَةِ عَلَىٰ حَدِّ الِاعْتِدَالِ مُتَعَذِّرٌ»(١).

وَفِي الشَّرْعِ تَرْهِيبٌ شَدِيدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، وَالْخِصَالِ الْمَرْذُولَةِ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(٢) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلَاحَىٰ رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «**خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلَاحَىٰ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ**».

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ: «**فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ، مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنُسِّيتُهَا**»(٣).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**«رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ»** -هُوَ بِالْقَافِ-، وَمَعْنَاهُ: يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقَّهُ وَيَدَّعِي أَنَّهُ الْمُحِقُّ، وَفِيهِ: أَنَّ الْمُخَاصَمَةَ وَالْمُنَازَعَةَ مَذْمُومَةٌ، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ»(٤).

---

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (٣/ ١١٣).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩، ١٩١٩، ٥٧٠٢).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١١٦٧).

(٤) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (٨/ ٦٣).

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِحَدِيثِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي سَلَفَ بِقَوْلِهِ: «بَابُ رَفْعِ مَعْرِفَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ لِتَلَاحِي النَّاسِ».

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: بِسَبَبِ تَلَاحِي النَّاسِ، وَقَيَّدَ الرَّفْعَ (بِمَعْرِفَةٍ) إِشَارَةً أَنَّهَا لَمْ تُرْفَعْ أَصْلًا وَرَأْسًا»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، الْأَلَدُّ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ، وَالْخَصِمُ: الَّذِي يَحُجُّ مَنْ يُخَاصِمُهُ.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَلَدُّ: الشَّدِيدُ اللَّدَدِ، أَيِ: الْجِدَالِ، مُشْتَقٌّ مِنَ اللَّدِيدَيْنِ، وَهُمَا صَفْحَتَا الْعُنُقِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ مِنْ أَيِّ الْجِهَاتِ أَخَذَ فِي الْخُصُومَةِ قَوِيَ.

وَالْخَصِمُ: -بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ-، أَيِ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ»(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ بَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَتَذَاكَرُ، يَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، وَيَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: «**يَا هَؤُلَاءِ، بِهَذَا بُعِثْتُمْ، أَمْ بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٤/ ٣١٤).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٦٨).

(٣) «فَتْحُ الْبَارِي» (٥/ ١٢٨).

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَفِيهِ سُوَيْدٌ»، وَالرِّوَايَةُ الَّتِي يُرِيدُ الْمُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَبِيرِ» بِرَقْمِ (٥٤٤٢)، وَهُوَ يَعْنِي سُوَيْدًا أَبَا حَاتِمِ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، وَفِيهِ ضَعْفٌ كَمَا ذَكَرَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١/ ١٥٦) عَنْ أَئِمَّةِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ: النَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَعِينٍ، وَأَبِي زُرْعَةَ.

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ مُعَلِّقًا عَلَىٰ قَوْلِ الْمُنْذِرِيِّ: «يَعْنِي سُوَيْدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ أَبَا حَاتِمٍ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، لَكِنْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ مِثْلَهُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَثْبَاتٌ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ (١/ ١٥٧)، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو عِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ وَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ»(١).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف:٥٨].

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٢٥٣)، وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَابْنُ مَاجَهْ (٤٨)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ١٤)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «كِتَابِ الصَّمْتِ» (١٣٦).

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦١) تَعْلِيقًا عَلَىٰ قَوْلِ التِّرْمِذِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ: «وَصَحَّحَهُ أَيْضًا الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ،

(١) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦١).

وَإِنَّمَا هُوَ حَسَنٌ فَقَطْ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١١٧)، وَابْنُ حِبَّانَ (٧٣)، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٧٤٩٩، ١٠٤١٩).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٠٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١٧٩)، وَفِي «سِلْسِلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ» (٢٧٣) جَمْعٌ لِطُرُقِهِ وَبَحْثٌ فِي أَحْوَالِ رُوَاتِهِ.

وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٦٠)، وَفِيهِ أَيْضًا حَسَّنَ حَدِيثَ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَتَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَحَسَّنَ خُلُقَهُ**».

وَرَبَضُ الْجَنَّةِ: -هُوَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَبِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ-، وَهُوَ مَا حَوْلَهَا، فَالرَّبَضُ هُنَا، حَوَالَي الْجَنَّةِ وَأَطْرَافُهَا، لَا فِي وَسَطِهَا.

وَالْخُصُومَةُ عَدِيمَةُ الْفَائِدَةِ قَلِيلَةُ الْعَائِدَةِ فَإِنَّ الْجِدَالَ مَعَ مَا فِيهِ قَدْ يُوقِظُ

الْفَهْمَ وَيُثِيرُ الْأَنَفَةَ لِاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ، وَالْخُصُومَةُ لَا تُثْمِرُ إِلَّا الْعَدَاوَةَ وَإِنْكَارَ الْحَقِّ؛ فَلِهَذَا جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ شَرًّا مِنَ الْجِدَالِ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾. أَيْ: جَيِّدُ الْخُصُومَةِ مُبِينٌ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْخِصَامَ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا عَابَهُ، وَأَيْضًا فَالْمُتَجَادِلَانِ يَجْرِيَانِ مَجْرَىٰ فَحْلَيْنِ تَعَادَيَا، وَكَبْشَيْنِ تَنَاطَحَا، وَرَئِيسَيْنِ تَحَارَبَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَجْتَهِدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْفَاعِلَ وَصَاحِبُهُ الْمُنْطَبِعَ، وَالْقَائِلُ كَالْمُؤَثِّرِ، وَالسَّامِعُ كَالْمُتَأَثِّرِ، وَلَمْ يَتَوَلَّدْ مِنْهُمَا خَيْرٌ بِوَجْهٍ.

وَقَالَ حَكِيمٌ: الْمُجَادِلُ الْمُدَافِعُ يَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ الْخَوْضِ فِي الْجِدَالِ أَنْ لَا يَقْنَعَ بِشَيْءٍ، وَمَنْ لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا أَنْ لَا يَقْنَعَ فَمَا إِلَىٰ إِقْنَاعِهِ سَبِيلٌ، وَلَوِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْحُكَمَاءُ بِكُلِّ بَيِّنَةٍ، بَلْ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ بِكُلِّ مُعْجِزَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١][2].

* عِلَاجُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ وَالْمُخَاصَمَةِ:

عِلَاجُ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنْ «يَكْسِرَ الْكِبْرَ الْبَاعِثَ لَهُ عَلَىٰ إِظْهَارِ فَضْلِهِ، وَالسَّبُعِيَّةَ الْبَاعِثَةَ لَهُ عَلَىٰ تَنْقِيصِ غَيْرِهِ.

---

(١) يَقْصِدُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨].

(٢) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» لِلرَّاغِبِ الْأَصْفَهَانِيِّ (ص١٢٧).

فَإِنَّ عِلَاجَ كُلِّ عِلَّةٍ بِإِمَاطَةِ أَسْبَابِهَا، وَسَبَبُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ مَا ذَكَرْنَاهُ، ثُمَّ الْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهِ تَجْعَلُهُ عَادَةً وَطَبْعًا حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ مِنَ النَّفْسِ وَيَعْسُرَ الصَّبْرُ عَنْهُ.

رُوِيَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ: قَالَ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ: لِمَ آثَرْتَ الِانْزِوَاءَ؟ قَالَ: لِأُجَاهِدَ نَفْسِي بِتَرْكِ الْجِدَالِ، قَالَ: احْضُرِ الْمَجَالِسَ، وَاسْتَمِعْ مَا يُقَالُ، وَلَا تَتَكَلَّمْ، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَمَا رَأَيْتُ مُجَاهَدَةً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا.

وَهُوَ كَمَا قَالَ، لِأَنَّ مَنْ سَمِعَ الْخَطَأَ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ كَشْفِهِ، تَعَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عِنْدَ ذَلِكَ جِدًّا، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ**»[1] لِشِدَّةِ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَأَكْثَرُ مَا يَغْلُبُ ذَلِكَ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ، فَإِنَّ الْمِرَاءَ طَبْعٌ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ ثَوَابًا اشْتَدَّ عَلَيْهِ حِرْصُهُ، وَتَعَاوَنَ الطَّبْعُ وَالشَّرْعُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ، بَلْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَإِذَا رَأَىٰ مُبْتَدِعًا تَلَطَّفَ فِي نُصْحِهِ فِي خَلْوَةٍ لَا بِطَرِيقِ الْجِدَالِ؛ فَإِنَّ الْجِدَالَ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا حِيلَةٌ مِنْهُ فِي التَّلْبِيسِ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَنْعَةٌ يَقْدِرُ الْمُجَادِلُونَ مِنْ أَهْلِ مَذْهَبِهِ عَلَىٰ أَمْثَالِهَا لَوْ أَرَادُوا فَتَسْتَمِرُّ الْبِدْعَةُ فِي قَلْبِهِ بِالْجَدَلِ وَتَتَأَكَّدُ، فَإِذَا عَرَفَ أَنَّ النُّصْحَ لَا يَنْفَعُ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وَتَرَكَهُ[2]، وَكُلُّ مَنِ اعْتَادَ

---

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ (ص١٠٢).

(٢) نَعَمْ، يَتَلَطَّفُ فِي نُصْحِهِ، فَإِنْ فَاءَ وَإِلَّا حَذَّرَ مِنْهُ وَمِنْ بِدْعَتِهِ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ: «اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وَتَرَكَهُ»!! بَلْ عَلَىٰ حَسَبِ الْمُبْتَدِعِ، هَلْ هُوَ دَاعٍ إِلَىٰ بِدْعَتِهِ أَوْ لَا؟ وَهَلْ هُوَ رَأْسٌ فِيهَا أَوْ ذَنَبٌ؟

=

الْمُجَادَلَةَ مُدَّةً وَأَثْنَىٰ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَوَجَدَ لِنَفْسِهِ بِسَبَبِهِ عِزًّا وَقَبُولًا، قَوِيَتْ فِيهِ هَذِهِ الْمُهْلِكَاتُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا نُزُوعًا إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ سُلْطَانُ الْغَضَبِ وَالْكِبْرِ وَالرِّيَاءِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالتَّعَزُّزِ بِالْفَضْلِ، وَآحَادُ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَشُقُّ مُجَاهَدَتُهَا، فَكَيْفَ بِمَجْمُوعِهَا؟!»(١).

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «رَوَىٰ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**».

وَالْمَعْنَىٰ: أَنْ يَتَمَارَىٰ اثْنَانِ فِي آيَةٍ يَجْحَدُهَا أَحَدُهُمَا، وَيَدْفَعُهَا أَوْ يَصِيرُ فِيهَا إِلَىٰ الشَّكِّ، فَذَلِكَ هُوَ الْمِرَاءُ الَّذِي هُوَ الْكُفْرُ.

وَأَمَّا التَّنَازُعُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ فَقَدْ تَنَازَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ الْمِرَاءَ الَّذِي هُوَ كُفْرٌ هُوَ الْجُحُودُ وَالشَّكُّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج:٥٥]، وَنَهَىٰ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عَنِ الْجِدَالِ فِيهِ وَالتَّنَاظُرِ، لِأَنَّهُ عِلْمٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ رَدِّ الْفُرُوعِ عَلَىٰ الْأُصُولِ لِلْحَاجَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الِاعْتِقَادَاتُ كَذَلِكَ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ(٢).

=

وَ «عَلَىٰ حَسَبِ بِدْعَتِهِ، هَلْ هِيَ مُكَفِّرَةٌ أَوْ مُفَسِّقَةٌ؟ وَهَلْ هِيَ كُبْرَىٰ أَوْ صُغْرَىٰ؟ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأُصُولِ.

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (٣/ ١٦٤).

(٢) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (ص٣٦٠).

* **التَّعَامُلُ مَعَ أَهلِ اللَّجَاجِ:**

وَصَفَ الرَّاغِبُ رَحِمَهُ اللهُ سَبِيلَ التَّعَامُلِ مَعَ أَهْلِ اللَّجَاجِ لَا الْحِجَاجِ، وَمَعَ أَهْلِ الْمِرَاءِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ: «إِذَا ابْتُلِيتَ بِمُهَارِشٍ مُمَاحِكٍ مُنَاوِشٍ، قَصْدُهُ اللَّجَاجُ لَا الْحِجَاجُ، وَمُرَادُهُ مُنَاوَأَةُ الْعُلَمَاءِ، وَمُمَارَاةُ السُّفَهَاءِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ»**[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَـرَاهُ مُعِـدًّا لِلْخِـلَافِ كَأَنَّـهُ ... بِـرَدٍّ عَلَىٰ أَهْلِ الصَّـوَابِ مُوَكَّـلُ

فَحَقُّكَ أَنْ تَفِرَّ مِنْهُ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَاوِدِ وَالْأُسُودِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ مُزَاوَلَتِهِ بُدًّا، فَكَابِرْ إِنْكَارَهُ الْحَقَّ بِإِنْكَارِكَ الْبَاطِلَ، وَدِفَاعَهُ الصِّدْقَ بِدِفَاعِكَ الْكَذِبَ، مُعْتَبِرًا فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل:٥٠].

وَقَوْلَهُ: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

---

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٦٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ٤٨)، وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ٤٧).

وَقَوْلَهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وَبَالِغْ فِي ذَلِكَ مَعَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُعَرِّجَ مَعَهُ إِلَىٰ بَثِّ الْحِكْمَةِ، وَأَنْ تَذْكُرَ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْحَقَائِقِ مَا لَمْ تَتَحَقَّقْ لَهُ قَلْبًا طَاهِرًا لَائِقًا لِلْحِكْمَةِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ**»(١)، فَإِنَّ لِكُلِّ تُرْبَةٍ غَرْسًا، وَلِكُلِّ بِنَاءٍ أُسًّا، وَمَا كُلُّ الرُّءُوسِ تَسْتَحِقُّ التِّيجَانَ، وَلَا كُلُّ طَبِيعَةٍ تَسْتَحِقُّ إِفَادَةَ الْبَيَانِ.

وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاقْتَصِرْ مَعَهُ عَلَىٰ إِقْنَاعٍ يَبْلُغُهُ فَهْمُهُ، فَقَدْ قِيلَ: كَمَا أَنَّ لُبَّ الثِّمَارِ مُبَاحٌ لِلنَّحْلِ، وَالتِّبْنَ مَعْدُودٌ لِلْأَنْعَامِ كَذَلِكَ لُبُّ الْحِكْمَةِ مُعَدٌّ لِذَوِي الْأَلْبَابِ، وَقُشُورُهَا مَجْعُولَةٌ لِلْأَنْعَامِ، وَكَمَا أَنَّ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَشُمَّ الْأَخْشَمُ(٢) رَيْحَانًا، فَمُحَالٌ أَنْ يُفِيدَ الْحِمَارُ بَيَانًا»(٣).

*** بَيَانُ آدَابِ الْمُجَادِلِ:**

فَصَّلَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ آدَابَ الْجِدَالِ، وَمَا يَنْبَغِي لِلْمُجَادِلِ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «يَنْبَغِي لِلْمُجَادِلِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَىٰ جِدَالِهِ تَقْوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٥٣)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٠٤).

(٢) الْأَخْشَمُ: الَّذِي لَا يَجِدُ رِيحَ طِيبٍ وَلَا نَتْنٍ، وَالْخَشَمُ: سُقُوطُ الْخَيَاشِيمِ، وَانْسِدَادُ الْمُتَنَفَّسِ، وَلَا يَكَادُ الْأَخْشَمُ يَشُمُّ شَيْئًا. [«لِسَانُ الْعَرَبِ» (خشم)، (ص١١٦٨)].

(٣) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» (ص١٢٩).

وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وَيُخْلِصُ النِّيَّةَ فِي جِدَالِهِ بِأَنْ يَبْتَغِيَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلْيَكُنْ قَصْدُهُ فِي نَظَرِهِ[١]: إِيضَاحَ الْحَقِّ وَتَثْبِيتَهُ دُونَ الْمُغَالَبَةِ لِلْخَصْمِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا أَحْبَبْتُ أَنْ يُوَفَّقَ وَيُسَدَّدَ وَيُعَانَ، وَتَكُونَ عَلَيْهِ رِعَايَةٌ مِنَ اللهِ وَحِفْظٌ، وَمَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا وَلَمْ أُبَالِ بيَّنَ اللهُ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِي أَمْ لِسَانِهِ».

وَيَبْنِي أَمْرَهُ عَلَىٰ النَّصِيحَةِ لِدِينِ اللهِ وَالَّذِي يُجَادِلُهُ، لِأَنَّهُ أَجْمَعُ فِي الدِّينِ، مَعَ أَنَّ النَّصِيحَةَ وَاجِبَةٌ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٢].

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَحْلِفُ وَيَقُولُ: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلَّا عَلَىٰ النَّصِيحَةِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُخْطِئَ».

وَيَسْتَشْعِرُ فِي مَجْلِسِهِ أَيِ: -الْمُجَادِلُ- الْوَقَارَ، وَيَسْتَعْمِلُ الْهَدْيَ، وَحُسْنَ السَّمْتِ، وَطُولَ الصَّمْتِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْكَلَامِ، وَإِنْ نَدَرَتْ مِنْ خَصْمِهِ فِي جِدَالِهِ كَلِمَةٌ كَرِهَهَا أَغْضَىٰ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُجَازِ بِمِثْلِهَا، فَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

---

(١) فِي نَظَرِهِ: فِي بَحْثِهِ وَجِدَالِهِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧، ٥٨)، وَمُسْلِمٌ (٥٦).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَ:** «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ -وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ(١) الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ(٢) عُمَرُ- وَكَانَ الْقُرَّاءُ(٣) أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ(٤)، كُهُولًا(٥) كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي: لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلِيْهِ قَالَ: هِيْ(٦) يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ(٧)، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا(٨) عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا، وَكَانَ وَقَّافًا(٩) عِنْدَ

---

(١) النَّفَرُ: الْأَشْخَاصُ.

(٢) يُدْنِيهِمْ: يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ.

(٣) الْقُرَّاءُ: الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَحْفَظُونَهُ، وَيَفْقَهُونَهُ.

(٤) مُشَاوَرَتِهِ: يُشَاوِرُهُمْ فِي الْأُمُورِ.

(٥) كُهُولًا: جَمْعُ كَهْلٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلَاهُ الشَّيْبُ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ جَاوَزَ الثَّلَاثِينَ.

(٦) هِيْ: كَلِمَةُ زَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ. وَالْجَزْلُ: الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

(٧) هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ: أَيِ: الْعُقُوبَةَ.

(٨) مَا جَاوَزَهَا: لَمْ يَتَعَدَّ الْعَمَلَ بِهَا.

(٩) وَقَّافًا: أَيْ: إِذَا سَمِعَ آيَاتِهِ الْتَزَمَ أَحْكَامَهُ، وَوَقَفَ عِنْدَهَا وَلَمْ يَتَعَدَّهَا.

عِنْدَ كِتَابِ اللهِ»[١].

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَتكلَّمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَشْهَدُ لِخَصْمِهِ بِالزُّورِ، أَوْ عِنْدَ مَنْ إِذَا وَضَحَتْ لَدَيْهِ الْحُجَّةُ دفَنهَا وَلَمْ يَتمكَّنْ مِنْ إِقَامَتِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ نُصْرَةِ الْحَقِّ إِلَّا مَعَ الْإِنْصَافِ وَتَرْكِ التَّعَنُّتِ وَالْإِجْحَافِ، وَيَكُونُ كَلَامُهُ يَسِيرًا جَامِعًا بَلِيغًا، فَإِنَّ التَّحَفُّظَ مِنَ الزَّلَلِ مَعَ الْإِقْلَالِ دُونَ الْإِكْثَارِ، وَفِي الْإِكْثَارِ أَيْضًا مَا يُخْفِي الْفَائِدَةَ وَيُضَيِّعُ الْمَقْصُودَ وَيُورِثُ الْحَاضِرِينَ الْمَلَلَ.

وَلَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ فِي كَلَامِهِ عَالِيًا فَيَشُقَّ حَلْقَهُ وَيَحْمِيَ صَدْرَهُ وَيَقْطَعَهُ، وَذَلِكَ مِنْ دَوَاعِي الْغَضَبِ، وَلَا يُخْفِي صَوْتَهُ إِخْفَاءً لَا يَسْمَعُهُ الْحَاضِرُونَ فَلَا يُفِيدُ شَيْئًا، بَلْ يَكُونُ مُقْتَصِدًا بَيْنَ ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْإِصْلَاحُ مِنْ مَنْطِقِهِ، وَتَجَنُّبُ اللَّحْنِ فِي كَلَامِهِ، وَالْإِفْصَاحُ عَنْ بَيَانِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ عَوْنٌ لَهُ فِي مُنَاظَرَتِهِ.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَاظِبَ عَلَىٰ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِ عِنْدَ وَحْدَتِهِ، وَرِيَاضَةِ نَفْسِهِ فِي خَلْوَتِهِ بِذِكْرِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، وَحِكَايَةِ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ، لِئَلَّا يَنْحَصِرَ فِي مَجَالِسِ النَّظَرِ إِذَا رَمَقَتْهُ أَبْصَارُ مَنْ حَضَرَ.

وَلَا يَكُونُ رَخِيَّ الْبَالِ قَصِيرَ الْهِمَّةِ فَإِنَّ مَدَارِكَ الْعِلْمِ صَعْبَةٌ لَا تُنَالُ إِلَّا

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٦٦)، وَرِوَايَتُهُ هِيَ الْمُثْبَتَةُ هُنَا، وَقَدْ سَاقَ الْخَطِيبُ الرِّوَايَةَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ، وَاخْتِصَارٍ فِيهِ.

بِالْجَهْدِ وَالِاجْتِهَادِ وَلَا يَسْتَحْقِرُ خَصْمَهُ لِصِغَرِهِ فَيُسَامِحُهُ فِي نَظَرِهِ، بَلْ يَكُونُ عَلَىٰ نَهْجٍ وَاحِدٍ فِي الِاسْتِفْتَاءِ وَالِاسْتِقْصَاءِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ التَّحَرُّزِ وَالِاسْتِظْهَارِ يُؤَدِّي إِلَىٰ الضَّعْفِ وَالِانْقِطَاعِ.

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ مُعْجَبًا بِكَلَامِهِ مَفْتُونًا بِجِدَالِهِ؛ فَإِنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَمِنْهُ تَقَعُ الْمَعْصِيَةُ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ بَلِيَّةٍ.

وَإِذَا وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ فِي أَوَّلِ كَلَامِ الْخَصْمِ فَلَا يَعْجَلْ بِالْحُكْمِ بِهِ، فَرُبَّمَا كَانَ فِي آخِرِهِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْغَرَضَ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ لَهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَثَبَّتَ إِلَىٰ أَنْ يَنْقَضِيَ الْكَلَامُ.

وَيَكُونُ نُطْقُهُ بِعِلْمٍ، وَإِنْصَاتُهُ بِحِلْمٍ، وَلَا يَعْجَلُ إِلَىٰ جَوَابٍ، وَلَا يَهْجِمُ عَلَىٰ سُؤَالٍ، وَيَحْفَظُ لِسَانَهُ مِنْ إِطْلَاقِهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَمِنْ مُنَاظَرَتِهِ فِيمَا لَا يَفْهَمُهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْخَجَلِ وَالِانْقِطَاعِ، فَكَانَ فِيهِ نَقْصُهُ وَسُقُوطُ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ مَنْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ»[1].



(١) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» (٢/ ٢٥).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة



٩- النِّسْيَانُ

النِّسْيَانُ -بِكَسْرِ النُّونِ-: ضِدُّ الذِّكْرِ وَالْحِفْظِ، نَسِيَهُ نِسْيًا، وَنِسْيَانًا، وَنِسْوَةً ونَسَاوَةً وَنِسَاوَةً، الْأَخِيرَتَانِ عَلَىٰ الْمُعَاقَبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، قَالَ ثَعْلَبُ: لَا يَنْسَىٰ اللهُ ﷻ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ: تَرَكُوا اللهَ فَتَرَكَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ النِّسْيَانُ ضَرْبًا مِنَ التَّرْكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ، وَفِي «التَّهْذِيبِ»: أَيْ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ فَتَرَكَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦] أَيْ: تَرَكْتَهَا فَكَذَلِكَ تُتْرَكُ فِي النَّارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه:١١٥] مَعْنَاهُ أَيْضًا: تَرَكَ؛ لِأَنَّ النَّاسِيَ لَا يُؤَاخَذُ بِنِسْيَانِهِ، وَالنِّسْيَانُ: التَّرْكُ(١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ (الإِنْسَانُ)؛ لِأَنَّهُ عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ، وَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: تَرَكَ»(٢).

---

(١) «لِسَانُ الْعَرَبِ» (نسي) (ص٤٤١٦).

(٢) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ١٦٧).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَسِيَ﴾، لَهُ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا: تَرَكَ؛ أَيْ: تَرَكَ الْأَمْرَ وَالْعَهْدَ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وَثَانِيهِمَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿نَسِيَ﴾ هُنَا مِنَ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ، وَإِنَّمَا أُخِذَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ مَا عَهِدَ اللهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ عَزْمٌ مَا أَطَاعَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ، وَعَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَأْخُوذًا بِالنِّسْيَانِ، وَإِنْ كَانَ النِّسْيَانُ الْيَوْمَ عَنَّا مَرْفُوعًا.

وَمَعْنَىٰ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ لِأَنَّهُ نُهِيَ عَنْهَا»(١).

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: وَلَقَدْ وَصَّيْنَا آدَمَ وَأَمَرْنَاهُ، وَعَهِدْنَا إِلَيْهِ عَهْدًا؛ لِيَقُومَ بِهِ، فَالْتَزَمَهُ، وَأَذْعَنَ لَهُ وَانْقَادَ، وَعَزَمَ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَسِيَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَانْتَقَضَتْ عَزِيمَتُهُ الْمُحْكَمَةُ، فَجَرَىٰ عَلَيْهِ مَا جَرَىٰ، فَصَارَ عِبْرَةً لِذُرِّيَّتِهِ، وَصَارَتْ طَبَائِعُهُمْ مِثْلَ طَبِيعَتِهِ، نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ فَخَطِئُوا، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَىٰ الْعَزْمِ الْمُؤَكَّدِ، وَهُمْ كَذَلِكَ، وَبَادَرَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ خَطِيئَتِهِ، وَأَقَرَّ بِهَا وَاعْتَرَفَ، فَغُفِرَتْ لَهُ، وَمَنْ يُشَابِهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ»(٢).

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ نَسِيًّا بِطَبْعِهِ فَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَعَهُّدِ الْقُرْآنِ؛ حَتَّىٰ لَا

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١١/ ٢٦٧).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص٤٦٤).

يَتفلَّتَ مِنْ حَامِلِهِ وَقَارِيهِ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«**بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ**»: «مَا» نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ مُفَسِّرَةٌ لِفَاعِلِ بِئْسَ، أَيْ: بِئْسَ شَيْئًا.

«**أَنْ يَقُولَ**»: مَخْصُوصٌ بِالذَّمِّ؛ أَيْ: بِئْسَ شَيْئًا كَائِنًا لِلرَّجُلِ.

«**كَيْتَ وَكَيْتَ**»: كَلِمَتَانِ يُعَبَّرُ بِهِمَا عَنِ الْجُمَلِ الْكَثِيرَةِ وَالْحَدِيثِ الطَّوِيلِ؛ وَسَبَبُ الذَّمِّ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِشْعَارِ بِعَدَمِ الِاعْتِنَاءِ بِالْقُرْآنِ؛ إِذْ لَا يَقَعُ النِّسْيَانُ إِلَّا بِتَرْكِ التَّعَاهُدِ وَكَثْرَةِ الْغَفْلَةِ.

«**بَلْ نُسِّيَ**»: «بَلْ» إِضْرَابٌ عَنِ الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ النِّسْيَانِ إِلَىٰ النَّفْسِ، الْمُسَبَّبِ عَنْ عَدَمِ التَّعَاهُدِ، إِلَىٰ الْقَوْلِ بِالْإِنْسَاءِ الَّذِي لَا صُنْعَ لَهُ فِيهِ؛ فَإِذَا نَسَبَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ أَوْهَمَ أَنَّهُ انْفَرَدَ بِفِعْلِهِ، فَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ: أُنْسِيتُ أَوْ نُسِّيتُ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ فِيهِمَا،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٤٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٨٩).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٤٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٨).

أَيْ: إِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْسَانِي، فَيَنْسِبُ الْأَفْعَالَ إِلَىٰ خَالِقِهَا لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِقُدْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ.

«**وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ**»: السِّينُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيِ: اطْلُبُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ مُذَاكَرَتَهُ وَالْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ قِرَاءَتِهِ، وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ «**وَاسْتَذْكِرُوا**»، عَطْفٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ قَوْلِهِ: «**بِئْسَ مَا لِأَحَدِكُمْ**» أَيْ: لَا تُقَصِّرُوا فِي مُعَاهَدَتِهِ وَاسْتِذْكَارِهِ.

«**فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا**»: أَيْ: تَفَلُّتًا.

«**مِنَ النَّعَمِ**»: أَيِ: الْإِبِلِ، لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْإِبِلِ طَلَبُ التَّفَلُّتِ مَا أَمْكَنَهَا، فَمَتَىٰ لَمْ يَتَعَاهَدْهَا صَاحِبُهَا بِرَبْطِهَا تَفَلَّتَتْ، فَكَذَلِكَ حَافِظُ الْقُرْآنِ إِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْهُ تَفَلَّتَ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ[1].

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فَوَائِدُ: مِنْهَا: كَرَاهَةُ قَوْلِ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَهِيَ كَرَاهَةُ تَنْزِيهٍ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يُكْرَهُ قَوْلُ: أُنْسِيتُهَا، وَإِنَّمَا نَهَىٰ عَنْ نَسِيتُهَا لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّسَاهُلَ فِيهَا وَالتَّغَافُلَ عَنْهَا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦].

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «أَوْلَىٰ مَا يُتَأَوَّلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ أَنَّ مَعْنَاهُ ذَمُّ الْحَالِ، لَا ذَمُّ الْمَقَالِ، أَيْ: بِئْسَتِ الْحَالَةُ حَالَةُ مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَغَفَلَ عَنْهُ حَتَّىٰ نَسِيَهُ.

(١) انْظُرِ: «اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ» تَعْلِيق مُحَمَّد فُؤَاد عَبد الْبَاقِي (١/ ١٥٠).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ...**» إِلَىٰ آخِرِهِ، فِيهِ الْحَثُّ عَلَىٰ تَعَاهُدِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ تَعْرِيضِهِ لِلنِّسْيَانِ.

قَالَ الْقَاضِي: وَمَعْنَىٰ «**صَاحِبِ الْقُرْآنِ**» أَيِ: الَّذِي أَلِفَهُ، وَالْمُصَاحَبَةُ: الْمُؤَالَفَةُ، وَمِنْهُ فُلَانٌ صَاحِبُ فُلَانٍ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ، وَأَصْحَابُ النَّارِ، وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ، وَأَصْحَابُ الصُّفَّةِ، وَأَصْحَابُ إِبِلٍ وَغَنَمٍ، وَصَاحِبُ كَنْزٍ، وَصَاحِبُ عِبَادَةٍ».

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِعَقْلِهَا**».

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: التَّفَصِّي: الِانْفِصَالُ، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: «**أَشَدُّ تَفَلُّتًا**».

«**النَّعَمُ**»: أَصْلُهَا: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْإِبِلُ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهَا الَّتِي تُعْقَلُ، وَالْعَقْلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالْقَافِ، وَيَجُوزُ إِسْكَانُ الْقَافِ وَهُوَ كَنَظَائِرِهِ، وَهُوَ جَمْعُ عِقَالٍ كَكِتَابٍ وَكُتُبٍ، وَالنَّعَمُ تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ.

وَالْمُرَادُ مِنْ رِوَايَةِ الْبَاءِ -أَيْ مِنْ قَوْلِهِ: بِعُقُلِهَا- «مِنْ» كَمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] عَلَىٰ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي مَعْنَاهَا»[1].

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (٦/ ٧٦).

وَقَالَ الْحَافِظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ**»، أَيْ: مَعَ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، وَالْمُعَقَّلَةُ -بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ-، أَيِ: الْمَشْدُودَةِ بِالْعِقَالِ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ فِي رُكْبَةِ الْبَعِيرِ، شَبَّهَ دَرْسَ الْقُرْآنِ وَاسْتِمْرَارَ تِلَاوَتِهِ بِرَبْطِ الْبَعِيرِ، الَّذِي يُخْشَىٰ مِنْهُ الشِّرَادُ، فَمَا زَالَ التَّعَاهُدُ مَوْجُودًا فَالْحِفْظُ مَوْجُودٌ، كَمَا أَنَّ الْبَعِيرَ مَا دَامَ مَشْدُودًا بِالْعِقَالِ فَهُوَ مَحْفُوظٌ، وَخَصَّ الْإِبِلَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشَدُّ الْحَيَوَانِ الْإِنْسِيِّ نُفُورًا، وَفِي تَحْصِيلِهَا بَعْدَ اسْتِمْكَانِ نُفُورِهَا صُعُوبَةٌ.

قَوْلُهُ: «**إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا**»؛ أَيِ: اسْتَمَرَّ إِمْسَاكُهُ لَهَا.

قَوْلُهُ: «**وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»؛ أَيِ: انْفَلَتَتْ.

قَوْلُهُ: «**بَلْ هُوَ نُسِّيَ**»: -بِضَمِّ النُّونِ وَتَشْدِيدِ الْمُهْمَلَةِ الْمَكْسُورَةِ- قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: رَوَاهُ بَعْضُ رُوَاةِ مُسْلِمٍ مُخَفَّفًا، وَالتَّثْقِيلُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عُوقِبَ بِوُقُوعِ النِّسْيَانِ عَلَيْهِ لِتَفْرِيطِهِ فِي مُعَاهَدَتِهِ وَاسْتِذْكَارِهِ، قَالَ: وَمَعْنَىٰ التَّخْفِيفِ أَنَّ الرَّجُلَ تَرَكَ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ.

قَوْلُهُ: «**اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ**»؛ أَيْ: وَاظِبُوا عَلَىٰ تِلَاوَتِهِ وَاطْلُبُوا مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْمُذَاكَرَةَ بِهِ»[(١)].

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٨/ ٦٩٧).

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مَعْدِنَ الْعِلْمِ وَأَصْلَهُ، كَانَ إِمَامَ الْعُلُومِ فِي ضَرُورَةِ تَعَاهُدِهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، فَكُلُّ الْعُلُومِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّعَاهُدِ وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ الِاسْتِذْكَارِ بَعْضًا مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْقُرْآنُ.

وَكَمَا يَعْرِضُ النِّسْيَانُ لِلْقُرْآنِ وَيَلِحُّ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلْعُلُومِ وَيَلِحُّ عَلَيْهَا، وَالْمُوَاظَبَةُ هِيَ الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لِلنِّسْيَانِ مِثْلُهُ.

وَلِلذُّنُوبِ وَالْآثَامِ أَثَرٌ فَعَّالٌ فِي الْحِفْظِ وَالنِّسْيَانِ، وَقَدْ يَنْسَىٰ الْعَبْدُ الْعِلْمَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٤].

قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: «مَا مِنْ أَحَدٍ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ:٣٠] وَنِسْيَانُ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ».

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ الْجَلَاءِ، قَالَ: كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَىٰ غُلَامٍ نَصْرَانِيٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَمَرَّ بِي أَبُو عَبْدِ اللهِ الْبَلْخِيُّ، فَقَالَ: أَيْشِ وُقُوفُكَ؟ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، أَمَا تَرَىٰ هَذِهِ الصُّورَةَ؟ كَيْفَ تُعَذَّبُ بِالنَّارِ؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ، وَقَالَ: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. قَالَ: فَوَجَدْتُ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، أَنْ أُنْسِيتُ الْقُرْآنَ.

وَبِإِسْنَادٍ عَنْ أَبِي الْأَدْيَانِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أُسْتَاذِي وَأَبِي بَكْرٍ الدَّقَّاقِ، فَمَرَّ حَدَثٌ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَرَآنِي أُسْتَاذِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ وَلَو

بَعْدَ حِينٍ. فَبَقِيتُ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَنَا أُرَاعِي فَمَا أَجِدُ ذَلِكَ الْغِبَّ، فَنِمْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَنَا مُفَكِّرٌ فِيهِ، فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ أُنْسِيتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ»(١).

وَغِبُّ الْأَمْرِ وَمَغَبَّتُهُ: عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ.

وَكَمَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَعْرِيضِ الْقُرْآنِ لِلنِّسْيَانِ وَإِهْمَالِ تَعَاهُدِهِ حَتَّىٰ يَذْهَبَ، رَغَّبَ ﷺ فِي حِفْظِهِ وَإِتْقَانِ تِلَاوَتِهِ.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**السَّفَرَةُ**»: جَمْعُ سَافِرٍ، كَكَتَبَةٍ وَكَاتِبٍ، وَالسَّافِرُ: الرَّسُولُ، وَالسَّفَرَةُ: الرُّسُلُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْفَرُونَ إِلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِ اللهِ، وَقِيلَ: السَّفَرَةُ: الْكَتَبَةُ، وَ«**الْبَرَرَةُ**»: الْمُطِيعُونَ، مِنَ الْبِرِّ وَهُوَ الطَّاعَةُ.

وَ«**الْمَاهِرُ**»: الْحَاذِقُ الْكَامِلُ الْحِفْظِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ بِجَوْدَةِ حِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ كَوْنِهِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مَنَازِلَ يَكُونُ فِيهَا رَفِيقًا لِلْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَتِهِمْ مِنْ حَمْلِ كِتَابِ اللهِ

---

(١) تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص٣١٠).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٨).

تَعَالَىٰ قَالَ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ عَامِلٌ بِعَمَلِهِمْ وَسَالِكٌ مَسْلَكَهُمْ، وَأَمَّا الَّذِي يَتَتَعْتَعُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ لِضَعْفِ حِفْظِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ بِالْقِرَاءَةِ وَأَجْرٌ بِتَتَعْتُعِهِ فِي تِلَاوَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي -وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ-: وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الَّذِي يَتَتَعْتَعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَلَهُ أُجُورٌ كَثِيرَةٌ وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِغَيْرِهِ وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْتَنِ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَحِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ وَكَثْرَةِ تِلَاوَتِهِ وَرِوَايَتِهِ كَاعْتِنَائِهِ حَتَّىٰ مَهَرَ فِيهِ؟!»[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[٢].

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعْنِي: أَنَّهُ يَقْرَأُ كَمَا كَانَ يَقْرَأُ فِي الدُّنْيَا وَيُعْطَىٰ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً»[٣].

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١١/ ٣٠).

(٢)أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٦٧٩٩)، وَقَالَ الشَّيْخُ أَحْمَد شَاكِر: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَأَبُو دَاوُدَ (١٤٦٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١/ ٤٠٣)، وَفِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧٩٧٨)، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٩١٤)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَهْ (٣٧٨٠).

(٣) «عَارِضَةُ الْأَحْوَذِيِّ» (١١/ ٣٠).

لَقَدْ حَذَّرَ الْأَئِمَّةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- مِنْ إِهْمَالِ الْمُذَاكَرَةِ حَتَّىٰ يُنْسَىٰ الْعِلْمُ، وَنَبَّهُوا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ أَشَدِّ غَوَائِلِ الْعِلْمِ النِّسْيَانَ، تَحْذِيرًا مِنْهُ وَتَنْبِيهًا عَلَيْهِ.

أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١/ ١٥٨) عَنْ حَكِيمِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً، وَآفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ».

وَأَخْرَجَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ: عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ».

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ قَالَ: إِنَّ إِحْيَاءَ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ فَتَذَاكَرُوا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ: يَرْحَمُكَ اللهُ، كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتَهُ فِي صَدْرِي قَدْ مَاتَ.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: إِنَّ لِلْعِلْمِ غَوَائِلَ، فَمِنْ غَوَائِلِهِ[١] أَنْ يُتْرَكَ الْعَالِمُ حَتَّىٰ يُذْهَبَ بِعِلْمِهِ وَمِنْ غَوَائِلِهِ النِّسْيَانُ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ الْكَذِبُ فِيهِ، وَهُوَ شَرُّ غَوَائِلِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: غَائِلَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ»[٢].

وَتَكْرِيرُ الْمَحْفُوظِ عَلَىٰ الْقَلْبِ أَدْعَىٰ لِتَثْبِيتِهِ، وَمَأْمَنَةٌ مِنْ ذَهَابِهِ، وَهَذَا دَأْبُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَبْلُ، لَا يَتَوَانَوْنَ فِيهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ عَنْهُ.

---

(١) قَالَ الْكِسَائِيُّ: الْغَوَائِلُ: الدَّوَاهِي، وَالْغِيلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: إِيصَالُ الشَّرِّ إِلَيْهِ وَالْقَتْلُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَشْعُرُ.

(٢) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٠٧).

أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَىٰ قَالَ: «قِيلَ لِلْأَصْمَعِيِّ: كَيْفَ حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: دَرَسْتُ وَتَرَكُوا.

وَعَنْ سُفْيَانَ قَالَ: اجْعَلُوا الْحَدِيثَ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ، وَفِكْرَ قُلُوبِكُمْ تَحْفَظُوهُ.

وَعَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: وُضِعَ طَسْتٌ بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ شِهَابٍ، فَتَذَكَّرَ حَدِيثًا، فَلَمْ تَزَلْ يَدُهُ فِي الطَّسْتِ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ، حَتَّىٰ صَحَّحَهُ.

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَرَاغِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَقْبَرَةً بِتُسْتَرَ فَسَمِعْتُ صَائِحًا يَصِيحُ وَالْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَاعَةً طَوِيلَةً فَكُنْتُ أَطْلُبُ الصَّوْتَ إِلَىٰ أَنْ رَأَيْتُ ابْنَ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَدْرُسُ مَعَ نَفْسِهِ مِنْ حِفْظِهِ حَدِيثَ الْأَعْمَشِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ قَالَ: تَذَاكَرَ وَكِيعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّىٰ أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَذَانَ الصُّبْحِ.

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ الْعِلْمَ مِنْ عُرْوَةَ وَغَيْرِهِ، فَيَأْتِي إِلَىٰ جَارِيَةٍ لَهُ -وَهِيَ نَائِمَةٌ- فَيُوقِظُهَا، فَيَقُولُ: اسْمَعِي، حَدَّثَنِي فُلَانٌ كَذَا، وَفُلَانٌ كَذَا، فَتَقُولُ: مَا لِي وَلِهَذَا الْحَدِيثِ؟! فَيَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ لَا تَنْتَفِعِينَ بِهِ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ الْآنَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَذْكِرَهُ»(١).

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» (٢/ ٢٦٦).

وَالْأَئِمَّةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- كَانُوا أَهْلَ حِفْظٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَإِنَّمَا امْتَازُوا عَلَىٰ النَّاسِ بِمَا أَوْدَعَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ يَقِينٍ وَتَوَكُّلٍ وَصِدْقٍ، وَبِمَا جَعَلَ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ ذَكَاءٍ وَنَفَاذٍ وَحِفْظٍ، فَمَنْ أَرَادَ الْقَصَّ عَلَىٰ آثَارِهِمْ فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي نَفْيِ النِّسْيَانِ عَنْهُ بِالضَّرَاعَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَأَكْلِ الْحَلَالِ، وَتَقْلِيلِ الْمَطَاعِمِ وَالْهُمُومِ، وَمُجَانَبَةِ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ، وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

وَهَذَا مَثَلٌ يُضْرَبُ فِي نِعْمَةِ الْحِفْظِ وَمِنَّةِ الْفَهْمِ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُقَدَّمُ الْحَافِظُ الْعَلَمُ، الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِذَاكِرَةٍ لَاقِطَةٍ، وَقَلْبٍ حَافِظٍ، وَأُذُنٍ وَاعِيَةٍ.

رَوَىٰ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَدِيٍّ الْحَافِظِ قَالَ: «سَمِعْتُ عِدَّةً مِنْ مَشَائِخِ بَغْدَادَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ قَدِمَ بَغْدَادَ، فَسَمِعَ بِهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَاجْتَمَعُوا وَأَرَادُوا امْتِحَانَ حِفْظِهِ، فَعَمَدُوا إِلَىٰ مِئَةِ حَدِيثٍ فَقَلَبُوا مُتُونَهَا وَأَسَانِيدَهَا، وَجَعَلُوا مَتْنَ هَذَا الْإِسْنَادِ لِإِسْنَادٍ آخَرَ، وَإِسْنَادَ هَذَا الْمَتْنِ لِمَتْنٍ آخَرَ، وَدَفَعُوهَا إِلَىٰ عَشْرَةِ أَنْفُسٍ، لِكُلِّ رَجُلٍ عَشْرَةُ أَحَادِيثَ، وَأَمَرُوهُمْ إِذَا حَضَرُوا الْمَجْلِسَ أَنْ يُلْقُوا ذَلِكَ عَلَىٰ الْبُخَارِيِّ، وَأَخَذُوا عَلَيْهِ الْمَوْعِدَ لِلْمَجْلِسِ فَحَضَرُوا وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْغُرَبَاءِ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَغْدَادِيِّينَ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ الْمَجْلِسُ بِأَهْلِهِ انْتُدِبَ رَجُلٌ مِنَ الْعَشْرَةِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ، فَقَالَ الْبُخَارِيُّ: لَا أَعْرِفُهُ، فَمَا زَالَ يُلْقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّىٰ فَرَغَ، وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُ، وَكَانَ الْعُلَمَاءُ مِمَّنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ يَلْتَفِتُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَيَقُولُونَ: فَهِمَ الرَّجُلُ، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَدْرِ الْقِصَّةَ قَضَىٰ عَلَىٰ الْبُخَارِيِّ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ وَقِلَّةِ الْحِفْظِ.

ثُمَّ انْتُدِبَ رَجُلٌ مِنَ الْعَشْرَةِ -أَيْضًا- فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَقْلُوبَةِ فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، فَسَأَلَهُ عَنْ آخَرَ، فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُلْقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ عَشْرَتِهِ، وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُ.

ثُمَّ انْتُدِبَ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ إِلَىٰ تَمَامِ الْعَشْرَةِ، حَتَّىٰ فَرَغُوا كُلُّهُمْ مِنْ إِلْقَاءِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَقْلُوبَةِ، وَالْبُخَارِيُّ لَا يَزِيدُهُمْ عَلَىٰ: لَا أَعْرِفُهُ.

فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ فَرَغُوا الْتَفَتَ إِلَىٰ الْأَوَّلِ فَقَالَ: أَمَّا حَدِيثُكَ الْأَوَّلُ، فَقُلْتَ: كَذَا، وَصَوَابُهُ كَذَا، وَحَدِيثُكَ الثَّانِي: كَذَا، وَصَوَابُهُ: كَذَا، وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ عَلَىٰ الْوَلَاءِ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ تَمَامِ الْعَشْرَةِ فَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَىٰ إِسْنَادِهِ وَكُلَّ إِسْنَادٍ إِلَىٰ مَتْنِهِ، وَفَعَلَ بِالْآخَرِينَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَقَرَّ النَّاسُ لَهُ بِالْحِفْظِ وَأَذْعَنُوا لَهُ بِالْفَضْلِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: قُلْتُ: هُنَا يُخْضَعُ لِلْبُخَارِيِّ، فَمَا الْعَجَبُ مِنْ رَدِّهِ الْخَطَأَ إِلَىٰ الصَّوَابِ، فَإِنَّهُ كَانَ حَافِظًا، بَلِ الْعَجَبُ مِنْ حِفْظِهِ لِلْخَطَأِ عَلَىٰ تَرْتِيبِ مَا أَلْقَوْهُ عَلَيْهِ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وَقَالَ أَبُو الْأَزْهَرِ: كَانَ بِسَمَرْقَنْدَ أَرْبَعُمِئَةِ مُحَدِّثٍ فَتَجَمَّعُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُغَالِطُوا مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ، فَأَدْخَلُوا إِسْنَادَ الشَّامِ فِي إِسْنَادِ الْعِرَاقِ، وَإِسْنَادَ الْعِرَاقِ فِي إِسْنَادِ الشَّامِ، وَإِسْنَادَ الْحَرَمِ فِي إِسْنَادِ الْيَمَنِ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّقُوا عَلَيْهِ بِسَقْطَةٍ»(١).

وَقَدْ حَكَىٰ عَنْهُ رِفَاقُهُ فِي الطَّلَبِ فِي حِدَّةِ الذِّهْنِ وَسَيَلَانِهِ عَجَبًا، حَدَّث حَاشِدُ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: «كَانَ الْبُخَارِيُّ يَخْتَلِفُ مَعَنَا إِلَىٰ مَشَايِخِ الْبَصْرَةِ وَهُوَ غُلَامٌ، فَلَا يَكْتُبُ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيَّامٌ فَلُمْنَاهُ بَعْدَ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا فَقَالَ: قَدْ أَكْثَرْتُمْ عَلَيَّ، فَاعْرِضُوا عَلَيَّ مَا كَتَبْتُمْ، فَأَخْرَجْنَاهُ فَزَادَ عَلَىٰ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفِ حَدِيثٍ، فَقَرَأَهَا كُلَّهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، حَتَّىٰ جَعَلْنَا نُحْكِمُ كُتُبَنَا مِنْ حِفْظِهِ»(٢).

لَقَدْ خَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ أُمَّتَنَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَنَا يَقْرَءُونَ كُتُبَهُمْ مِنَ الصُّحُفِ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْحِفْظِ، فَلَمَّا جَاءَ عُزَيْرٌ وَتَلَا التَّوْرَاةَ مِنْ حِفْظِهِ قَالُوا: هَذَا ابْنُ اللهِ!!

فَكَيْفَ نَقُومُ بِشُكْرِ مَنْ خَوَّلَنَا أَنَّ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ مِنَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ يَنْقُلُ عَنْ نَبِيِّهِ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ يَحْصُلُ بِهِ الثِّقَةُ إِلَّا نَحْنُ، فَإِنَّهُ يَرْوِي الْحَدِيثَ مِنَّا خَالِفٌ عَنْ سَالِفٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي ثِقَةِ الرَّاوِي إِلَىٰ أَنْ

---

(١) «هَدْيُ السَّارِي» لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (ص٥٠١).

(٢) «هَدْيُ السَّارِي» لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (ص٥٠٢).

يَصِلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَسَائِرُ الْأُمَمِ يَرْوُونَ مَا يَذْكُرُونَهُ عَنْ صَحِيفَةٍ لَا يُدْرَىٰ مَنْ كَتَبَهَا، وَلَا يُعْرَفُ مَنْ نَقَلَهَا.

وَهَذِهِ الْمِنْحَةُ الْعَظِيمَةُ نَفْتَقِرُ إِلَىٰ حِفْظِهَا، وَحِفْظُهَا بِدَوَامِ الدِّرَاسَةِ؛ لِيَبْقَىٰ الْمَحْفُوظُ، وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِنَا يَحْفَظُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَمْرِ، فَآلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ أَقْوَامٍ يَفِرُّونَ مِنَ الْإِعَادَةِ مَيْلًا إِلَىٰ الْكَسَلِ، فَإِذَا احْتَاجَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مَحْفُوظٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ»(١).

⦿⦿⦿

(١) انْظُرْ: «الْحَثَّ عَلَىٰ حِفْظِ الْعِلْمِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص٢٣).

١٠- الْغُرُورُ

«**الْغُرُورُ**: هُوَ سُكُونُ النَّفْسِ إِلَىٰ مَا يُوَافِقُ الْهَوَىٰ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الطَّبْعُ عَنْ شُبْهَةٍ وَخُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ.

فَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ عَلَىٰ خَيْرٍ، إِمَّا فِي الْعَاجِلِ أَوْ فِي الْآجِلِ، عَنْ شُبْهَةٍ فَاسِدَةٍ فَهُوَ مَغْرُورٌ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِأَنْفُسِهِمُ الْخَيْرَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ فِيهِ، فَأَكْثَرُ النَّاسِ - إِذَنْ- مَغْرُورُونَ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَصْنَافُ غُرُورِهِمْ، وَاخْتَلَفَتْ دَرَجَاتُهُمْ، حَتَّىٰ كَانَ غُرُورُ بَعْضِهِمْ أَظْهَرَ وَأَشَدَّ مِنْ بَعْضٍ»[1].

وَالْغُرُورُ آفَةٌ مِنْ آفَاتِ النَّفْسِ قَلَّمَا يُمْكِنُ فَصْلُهَا فَصْلًا وَاضِحًا فِي حَالَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، بَلْ إِنَّ آفَةَ الْغُرُورِ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ بِحَالٍ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَالْأَصْلِ الَّذِي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ، وَكَالتُّرْبَةِ الَّتِي تَنْبُتُ فِيهَا، وَكَالْمَاءِ الْكَدِرِ الَّذِي يَرْوِيهَا.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنْ نُنَبِّهَ عَلَىٰ آفَةِ الْغُرُورِ الَّتِي تَعْرِضُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ لِإِبْلِيسَ مِنْ خَفِيِّ التَّلْبِيسِ مَا يَغْمُضُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، إِلَّا أَنَّ الْأَئِمَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَهْتِكُونَ عَلَىٰ اللَّعِينِ أَسْتَارَهُ، وَيَهْدِمُونَ عَلَيْهِ أَسْوَارَهُ، وَإِذَا مَا هُوَ حَرِيصٌ

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ١٤٦).

عَلَىٰ إِخْفَائِهِ سَافِرٌ مُنْكَشِفٌ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَقْوَامًا عَلَتْ هِمَمُهُمْ فَحَصَّلُوا عُلُومَ الشَّرْعِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْأَدَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ بِخَفِيِّ التَّلْبِيسِ، فَأَرَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِعَيْنٍ عَظِيمَةٍ لَمَّا نَالُوا وَأَفَادُوا غَيْرَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَفِزُّهُ لِطُولِ عَنَائِهِ فِي الطَّلَبِ، فَحَسَّنَ لَهُ اللَّذَّاتِ، وَقَالَ لَهُ: إِلَىٰ مَتَىٰ هَذَا التَّعَبُ؟ أَرِحْ جَوَارِحَكَ مِنْ كُلَفِ التَّكَالِيفِ وَأَفْسِحْ لِنَفْسِكَ فِي مُشْتَهَاهَا، فَإِنْ وَقَعْتَ فِي زَلَّةٍ فَالْعِلْمُ يَدْفَعُ عَنْكَ الْعُقُوبَةَ، وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ فَضْلَ الْعُلَمَاءِ، فَإِنْ خُذِلَ هَذَا الْعَبْدُ وَقَبِلَ هَذَا التَّلْبِيسَ يَهْلِكْ.

وَقَدْ لَبَّسَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ أَقْوَامٍ مِنَ الْمُحْكِمِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، فَحَسَّنَ لَهُمُ الْكِبْرَ بِالْعِلْمِ، وَالْحَسَدَ لِلنَّظِيرِ، وَالرِّيَاءَ لِطَلَبِ الرِّيَاسَةِ، فَتَارَةً يُرِيهِمْ أَنَّ هَذَا كَالْحَقِّ الْوَاجِبِ لَهُمْ، وَتَارَةً يُقَوِّي حُبَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فَلَا يَتْرُكُونَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ خَطَأٌ.

وَقَدْ يَتَخَلَّصُ الْعُلَمَاءُ الْكَامِلُونَ مِنْ تَلْبِيسَاتِ إِبْلِيسَ الظَّاهِرَةِ فَيَأْتِيهِمْ بِخَفِيٍّ مِنْ تَلْبِيسِهِ، بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا لَقِيتُ مِثْلَكَ، مَا أَعْرَفَكَ بِمَدَاخِلِي وَمَخَارِجِي! فَإِنْ سَكَنَ إِلَىٰ هَذَا هَلَكَ بِالْعُجْبِ، وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْمُسَالَمَةِ لَهُ سَلِمَ.

وَقَدْ قَالَ السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ بُسْتَانًا فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَشْجَارِ، عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْأَطْيَارِ فَخَاطَبَهُ كُلُّ

طَائِرٍ بِلُغَتِهِ، وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا وَلِيَّ اللهِ، فَسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، كَانَ فِي أَيْدِيهَا أَسِيرًا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ الْهَادِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»(١).

إِنَّ إِمَامَ الْمَغْرُورِينَ وَقَائِدَهُمْ وَحَامِلَ لِوَائِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ، هُوَ إِبْلِيسُ، وَقَدْ غَرَّتِ اللَّعِينَ نَفْسُهُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ فَتَأَبَّىٰ عَلَىٰ السُّجُودِ لِآدَمَ إِذْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ طِينٍ، فَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا، وَاسْتَنْتَجَ نَتِيجَةً فَاسِدَةً؛ فَتَمَرَّدَ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَعَصَىٰ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ، يَعْنِي -لَعَنَهُ اللهُ-: وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟! ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَىٰ أَصْلِ الْعُنْصُرِ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَىٰ التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ اللَّعِينُ قِيَاسًا فَاسِدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، فَشَذَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ لِتَرْكِ السُّجُودِ، فَلِهَذَا أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، أَيْ: أَيِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَأَخْطَأَ قَبَّحَهُ اللهُ فِي قِيَاسِهِ، وَدَعْوَاهُ أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ.

أَيْضًا، فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرَّزَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ وَالتَّثَبُّتُ، وَالطِّينُ مَحَلُّ

---

(١) «تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص١٢٩).

النَّبَاتِ وَالنُّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسُّرْعَةُ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسُ عُنْصُرُهُ، وَنَفَعَ آدَمُ عُنْصُرُهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالِانْقِيَادِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللهِ، وَالِاعْتِرَافِ وَطَلَبِ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ»(١).

وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يَغُرَّهُمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، فَيَقُودَهُمْ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، يَعْنِي: الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ، أَيْ: خَافُوهُ وَوَحِّدُوهُ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيِ: الْبَعْثُ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾، أَيْ: لَا تَخْدَعَنَّكُمْ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بِزِينَتِهَا وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَتَتَّكِلُوا عَلَيْهَا وَتَرْكَنُوا إِلَيْهَا وَتَتْرُكُوا الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، هُوَ الشَّيْطَانُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَغُرُّ الْخَلْقَ وَيُمَنِّيهِمُ الدُّنْيَا وَيُلْهِيهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ [النساء:١٢٠]»(٢).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ النَّاسَ بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ، وَيَسْتَلْفِتُهُمْ لِخَشْيَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْيَوْمِ الشَّدِيدِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ أَحَدٍ

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٢/ ٢٠٣).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٤/ ٨٢).

لَا يُهِمُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ فَـ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، لَا يَزِيدُ فِي حَسَنَاتِهِ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، قَدْ تَمَّ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ عَمَلُهُ، وَتَحَقَّقَ عَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، فَلَفْتَ النَّظَرَ فِي هَذَا لِهَذَا الْيَوْمِ الْمَهِيلِ، مِمَّا يُقَوِّي الْعَبْدَ وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَقْوَىٰ اللهِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِالْعِبَادِ، يَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَاهُ الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُمْ، وَيَعِدُهُمْ عَلَيْهَا الثَّوَابَ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ، وَيُزْعِجُهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَوَاعِظِ وَالْمُخَوِّفَاتِ.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فَلَا تَمْتَرُوا فِيهِ، وَلَا تَعْمَلُوا عَمَلَ غَيْرِ الْمُصَدِّقِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بِزِينَتِهَا وَزَخَارِفِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي مَا زَالَ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ حَقًّا، وَقَدْ وَعَدَهُمْ مَوْعِدًا يُجَازِيهِمْ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَلْ وَفَّوْا حَقَّهُ أَمْ قَصَّرُوا فِيهِ؟

هَذَا أَمْرٌ يَجِبُ عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، وَرَأْسَ مَالِ تِجَارَتِهِ، الَّتِي يَسْعَىٰ إِلَيْهَا، وَمِنْ أَعْظَمِ الْعَوَائِقِ عَنْهُ وَالْقَوَاطِعِ دُونَهُ، الدُّنْيَا الْفَتَّانَةُ، وَالشَّيْطَانُ الْمُوَسْوِسُ الْمُسَوِّلُ، فَنَهَىٰ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ، أَنْ تَغُرَّهُمُ الدُّنْيَا، أَوْ يَغُرَّهُمْ بِاللهِ الْغُرُورُ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]»(١).

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص٦٠١).

وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ صِفَةٍ لَازِمَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ الْغُرُورُ، وَكَيْفَ تَغُرُّهُمُ الْأَمَانِيُّ وَالْأَبَاطِيلُ فِي الدُّنْيَا؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ غَافِلُونَ؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أَيْ: يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، فِي الدُّنْيَا؟ يَعْنِي: نُصَلِّي مِثْلَمَا تُصَلُّونَ، وَنَغْزُو مِثْلَمَا تَغْزُونَ، وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا تَفْعَلُونَ؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، أَيْ: يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿بَلَىٰ﴾، قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا فِي الظَّاهِرِ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أَيِ: اسْتَعْمَلْتُمُوهَا فِي الْفِتْنَةِ.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾، أَيْ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَوْتَ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ، وَقِيلَ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالتَّوْبَةِ، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أَيْ: شَكَكْتُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾، أَيِ: الْأَبَاطِيلُ، وَقِيلَ: طُولُ الْأَمَلِ، وَقِيلَ: هُوَ مَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ ضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُزُولِ الدَّوَائِرِ بِهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَمَانِيُّ هُنَا: خُدَعُ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ: الدُّنْيَا، قَالَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ أَبُو سِنَانٍ: هُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، وَقَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ: ذِكْرُكَ حَسَنَاتِكَ وَنِسْيَانُكَ سَيِّئَاتِكَ غِرَّةٌ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، يَعْنِي: الْمَوْتُ. وَقِيلَ: نُصْرَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِلْقَاؤُهُمْ فِي النَّارِ، ﴿وَغَرَّكُم﴾ أَيْ: خَدَعَكُمْ، ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، أَيِ: الشَّيْطَانُ، قَالَهُ عِكْرِمَةُ، وَقِيلَ: الدُّنْيَا، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ لِلْبَاقِي بِالْمَاضِي اعْتِبَارًا، وَلِلْآخِرِ بِالْأَوَّلِ مُزْدَجَرًا، وَالسَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكَنُ إِلَىٰ الْخُدَعِ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمَنِيَّةَ نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ.

وَجَاءَ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾. عَلَىٰ لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ لِلْكَثْرَةِ»[1].

وَلَوْ أَنَّ قَاعِدَةَ الْعَمَلِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ هِيَ: أَنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَتْ بِالْعَمَلِ وَإِنَّمَا بِتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ مِنَ الشَّوَائِبِ، مِنْ هَدْيِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

لَوْ أَنَّ قَاعِدَةَ الْعَمَلِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانَتْ هَذِهِ- لَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ دَائِمًا، فَلَيْتَهَا تَكُونُ... لَيْتَهَا...

غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ التَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانُوا عَلَىٰ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ سَائِرِينَ، وَهَذَا إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ -رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ- بَلَغَ فِي الْإِمَامَةِ مَبْلَغًا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ فِي مِثْلِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَيَخْشَىٰ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ: كَانَ أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: «إِنَّ اللهَ ﷻ أَعَزَّ هَذَا الدِّينَ بِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَوْمَ

---

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٧/ ٢٣٧).

الرِّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَوْمَ الْمِحْنَةِ».

وَمَعَ مَا كَانَ أَحْمَدُ فِيهِ مِنَ الْإِمَامَةِ فِي الْحَدِيثِ وَالْحِفْظِ وَالْفِقْهِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالصَّبْرِ، كَانَ خَائِفًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.

قَالَ الْخَلَّالُ: «أَخبرَنَا الْمَرْوَزِيُّ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ: مَا أَكْثَرَ الدَّاعِيَ لَكَ! قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا، بِأَيِّ شَيْءٍ هَذَا؟!».

قَالَ -أَيِ: الْمَرْوَزِيُّ-: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ طَرَطُوسَ فَقَالَ لِي: إِنَّا كُنَّا فِي بِلَادِ الرُّومِ فِي الْغَزْوِ إِذَا هَدَأَ اللَّيْلُ رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالدُّعَاءِ: أَدْعُو لِأَبِي عَبْدِ اللهِ وَكُنَّا نَمُدُّ الْمَنْجَنِيقَ وَنَرْمِي عَنْهُ، وَقَدْ رُمِيَ بِحَجَرٍ وَالْعِلْجُ عَلَىٰ الْحِصْنِ مُتَقَوِّسٌ بِدَرَقَةٍ، فَذَهَبَ -أَيِ: الْحَجَّاجُ- بِرَأْسِهِ وَبِالدَّرَقَةِ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: لَيْتَهُ لَا يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا، فَقُلْتُ: كَلَّا».

وَقَالَ عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ: «حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ فَزَارَةَ جَارُنَا، قَالَ: كَانَتْ أُمِّي مُقْعَدَةً مِنْ نَحْوِ عِشْرِينَ سَنَةً. فَقَالَتْ لِي يَوْمًا: اذْهَبْ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَسَلْهُ يَدْعُو لِي، فَأَتَيْتُ فَدَقَقْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي دِهْلِيزِهِ، فَلَمْ يَفْتَحْ لِي، وَقَالَ مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ أَنَا رَجُلٌ سَأَلَتْنِي أُمِّي وَهِيَ مُقْعَدَةٌ أَنْ أَسْأَلَكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ لَهَا، فَسَمِعْتُ كَلَامَهُ كَلَامَ رَجُلٍ مُغْضَبٍ، فَقَالَ: نَحْنُ أَحْوَجُ أَنْ تَدْعُوَ لَنَا، فَوَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا، فَخَرَجَتْ عَجُوزٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ تَرَكْتُهُ يَدْعُو لَهَا، فَجِئْتُ بَيْتَنَا فَدَقَقْتُ الْبَابَ، فَخَرَجَتْ أُمِّي عَلَىٰ رِجْلِهَا تَمْشِي، وَقَالَتْ: قَدْ وَهَبَ اللهُ لِيَ الْعَافِيَةَ». قَالَ الذَّهَبِيُّ: رَوَاهَا ثِقَتَانِ عَنْ عَبَّاسٍ.

وَإِمَامُ الْكُلِّ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، يَقُولُ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا، أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّىٰ تَرِمَ -أَيْ: تَنْتَفِخَ- قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَكَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ خِصَالَ الْخَيْرِ حِجَابٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالنَّارِ، وَجُنَّةٌ لَهُ مِنْهَا، وَأَنَّ رَكْعَتَيْنِ مَقْبُولَتَيْنِ بِوُضُوءٍ حَسَنٍ مَعَ قَلِيلِ لُبْثٍ فِي الْمَسْجِدِ يَغْفِرُ اللهُ بِهِمَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِ الْعَبْدِ وَمَا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ.

كَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ -وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ- أَعْقَبَهُ بِتَحْذِيرٍ دَافِعٍ، وَتَنْبِيهٍ قَاطِعٍ، فَنَهَىٰ أَنْ يَغْتَرَّ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ فَيَتَّكِلَ عَلَيْهِ، فَيَهُونَ عَلَيْهِ الذَّنْبُ فَيَهْلِكَ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ ابْنَ أَبَانَ أَخْبَرَهُ قَالَ: «أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِطَهُورٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ الْمَقَاعِدِ، فَتَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَىٰ الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

---

(١) الْبُخَارِيُّ (٦٠٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦).

(٢) الْبُخَارِيُّ (١٠٧٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٩).

قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَغْتَرُّوا**»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ: قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَغْتَرُّوا**». حَاصِلُ شَرْحِهِ: لَا تَحْمِلُوا الْغُفْرَانَ عَلَىٰ عُمُومِهِ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَتَسْتَرْسِلُوا فِي الذُّنُوبِ اتِّكَالًا عَلَىٰ غُفْرَانِهَا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ هِيَ الْمَقْبُولَةُ، وَلَا اطِّلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ.

وَظَهَرَ لِي جَوَابٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّ الْمُكَفَّرَ بِالصَّلَاةِ هِيَ الصَّغَائِرُ، فَلَا تَغْتَرُّوا فَتَعْمَلُوا الْكَبِيرَةَ بِنَاءً عَلَىٰ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالصَّغَائِرِ، أَوْ لَا تَسْتَكْثِرُوا مِنَ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهَا بِالْإِصْرَارِ تُعْطَىٰ حُكْمَ الْكَبِيرَةِ؛ فَلَا يُكَفِّرُهَا مَا يُكَفِّرُ الصَّغِيرَةَ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِأَهْلِ الطَّاعَةِ فَلَا يَنَالُهُ مَنْ هُوَ مُرْتَبِكٌ فِي الْمَعْصِيَةِ»(٢).

*** أَقْسَامُ الْمَغْرُورِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ:**

انْقَسَمَ الْمُغْتَرُّونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَقْسَامًا وَتَفَرَّقُوا فِرَقًا:

فَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ: أَحْكَمُوا الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ، وَأَهْمَلُوا تَفَقُّدَ الْجَوَارِحِ، وَحِفْظَهَا مِنَ الْمَعَاصِي، وَإِلْزَامَهَا الطَّاعَاتِ، وَاغْتَرُّوا بِعِلْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ، وَلَوْ نَظَرَ هَؤُلَاءِ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ، عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَ الْمُعَامَلَةِ لَا يُرَادُ بِهِ إِلَّا

---

(١) الْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ الْبُخَارِيُّ (١٥٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦)، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**لَا تَغْتَرُّوا**». فَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ (٦٠٦٩).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (١١/ ٢٥٥).

الْعَمَلُ، وَلَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، وَلَمْ يَقُلْ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يُزَكِّيهَا[١]، فَإِنْ تَلَا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَضَائِلَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلْيَذْكُرْ مَا وَرَدَ فِي الْعَالِمِ الْفَاجِرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وَ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة:٥].

وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ أُخْرَىٰ: أَحْكَمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ الظَّاهِرَ، وَلَمْ يَتَفَقَّدُوا قُلُوبَهُمْ لِيَمْحُوا الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةَ مِنْهَا؛ كَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَالرِّيَاءِ، وَطَلَبِ الْعُلُوِّ، وَطَلَبِ الشُّهْرَةِ، فَهَؤُلَاءِ زَيَّنُوا ظَاهِرَهُمْ، وَأَهْمَلُوا بَوَاطِنَهُمْ، وَنَسُوا قَوْلَهُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ، فَتَعَاهَدُوا الْأَعْمَالَ وَلَمْ يَتَعَاهَدُوا الْقُلُوبَ وَالْقَلْبُ هُوَ الْأَصْلُ؛ إِذْ لَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ زَرَعَ زَرْعًا، فَنَبَتَ وَنَبَتَ مَعَهُ حَشِيشٌ يُفْسِدُهُ، فَأَمَرَ بِقَلْعِهِ، فَأَخَذَ يَجُزُّ رُءُوسَهُ وَأَطْرَافَهُ وَيَتْرُكُ أُصُولَهُ فَلَمْ تَزَلْ أُصُولُهُ تَقْوَىٰ.

وَفِرْقَةٌ أُخْرَىٰ: عَلِمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْبَاطِنَةَ مَذْمُومَةٌ، إِلَّا أَنَّهُمْ بِعُجْبِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ يَظُنُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُنْكَفُّونَ عَنْهَا، وَأَنَّهُمْ أَرْفَعُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُبْتَلَىٰ بِذَلِكَ الْعَوَامُّ دُونَ مَنْ بَلَغَ مَبْلَغَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ، فَإِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ

(١) مَا وَجَبَ عَلَيْكَ عَمَلُهُ، وَجَبَ عَلَيْكَ تَعَلُّمُهُ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

مَخَايِلُ الْكِبْرِ وَالرِّيَاسَةِ، قَالَ أَحَدُهُمْ: مَا هَذَا بِكِبْرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ عِزِّ الدِّينِ، وَإِظْهَارُ شَرَفِ الْعِلْمِ، وَإِرْغَامُ الْمُبْتَدِعِينَ، فَإِنِّي لَوْ لَبِسْتُ الدُّونَ مِنَ الثِّيَابِ، وَجَلَسْتُ فِي الدُّونِ مِنَ الْمَجَالِسِ شَمَتَتْ بِيَ أَعْدَاءُ الدِّينِ، وَفَرِحُوا بِذُلِّي، وَفِي ذُلِّي ذُلُّ الدِّينِ؛ وَيَنْسَىٰ الْغُرُورَ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي سَوَّلَ لَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَتَوَاضَعُونَ وَيُؤْثِرُونَ الْفَقْرَ وَالْمَسْكَنَةَ.

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ عَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةٌ(١)، فَنَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ، وَنَزَعَ خُفَّيْهِ وَأَمْسَكَهُمَا، وَخَاضَ الْمَاءَ، وَمَعَهُ بَعِيرُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ صُنْعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَصَكَّ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: أَوَّهْ، لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟! إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَذَلَّ وَأَحْقَرَ النَّاسِ، فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِرَسُولِهِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلَّكُمُ اللهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ، اسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ وَهُوَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ رَكِبْتَ بِرْذَوْنًا(٢) تَلْقَىٰ بِهِ عُظَمَاءَ النَّاسِ وَوُجُوهَهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَا أَرَاكُمْ هَاهُنَا إِنَّمَا الْأَمْرُ مِنْ هَاهُنَا -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ- خَلُّوا سَبِيلَ جَمَلِي.

ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ مَغْرُورٍ يَطْلُبُ عِزَّ الدُّنْيَا بِالثِّيَابِ الرَّفِيعَةِ، وَالْخُيُولِ الْفَارِهَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا خَطَرَ لَهُ خَاطِرُ الرِّيَاءِ قَالَ: إِنَّمَا غَرَضِي بِهَذَا إِظْهَارُ

---

(١) الْمَخَاضُ مِنَ النَّهْرِ الْكَبِيرِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَخَضْخَضُ مَاؤُهُ فَيُخَاضُ عِنْدَ الْعُبُورِ، وَيُقَالُ: الْمَخَاضَةُ أَيْضًا.

(٢) الْبَرَاذِينُ مِنَ الْخَيْلِ: مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ نَتَاجِ الْعِرَابِ.

الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ لِاقْتِدَاءِ النَّاسِ لِيَهْتَدُوا إِلَىٰ الدِّينِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَصْدَهُ لَفَرِحَ بِاقْتِدَاءِ النَّاسِ بِغَيْرِهِ كَمَا يَفْرَحُ بِاقْتِدَائِهِمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَنْ كَانَ قَصْدُهُ صَلَاحَ الْخَلْقِ يَفْرَحُ بِصَلَاحِهِمْ عَلَىٰ يَدِ مَنْ كَانَ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْهُمْ عَلَىٰ سُلْطَانٍ، وَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَتَوَاضَعُ لَهُ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا غَرَضِي بِهَذَا أَنْ أَشْفَعَ فِي مُسْلِمٍ أَوْ أَدْفَعَ عَنْهُ الضَّرَرَ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ لِبَعْضِ أَقْرَانِهِ قَبُولٌ عِنْدَ السُّلْطَانِ لَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ يَنْتَهِي غُرُورُ بَعْضِهِمْ إِلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِمُ الْحَرَامِ وَيَقُولَ: هَذَا مَالٌ لَا مَالِكَ لَهُ، وَهُوَ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتَ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ، فَيَغْتَرُّ بِهَذَا التَّلْبِيسِ مِنْ جِهَةِ نَظَرِهِ إِلَىٰ نَفْسِهِ.

وَفِرْقَةٌ أُخْرَىٰ: أَحْكَمُوا الْعِلْمَ، وَطَهَّرُوا جَوَارِحَهُمْ وَزَيَّنُوهَا بِالطَّاعَاتِ، وَتَفَقَّدُوا قُلُوبَهُمْ بِتَصْفِيَتِهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ فِي زَوَايَا الْقَلْبِ خَفَايَا مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ وَخُدَعِ النَّفْسِ لَمْ يَفْطَنُوا لَهَا وَأَهْمَلُوهَا، فَتَرَىٰ أَحَدَهُمْ يَسْهَرُ لَيْلَهُ وَيَنْصَبُ نَهَارَهُ فِي جَمْعِ الْعُلُومِ وَتَرْتِيبِهَا وَتَحْسِينِ أَلْفَاظِهَا، وَيَرَىٰ أَنَّ بَاعِثَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْحِرْصُ عَلَىٰ إِظْهَارِ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبَّمَا كَانَ الْبَاعِثُ لِذَلِكَ طَلَبَ الذِّكْرِ وَانْتِشَارَ الصِّيتِ، وَلَعَلَّهُ لَا يَخْلُو فِي تَصْنِيفِهِ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، إِمَّا تَصْرِيحًا بِالدَّعَاوَىٰ الطَّوِيلَةِ الْعَرِيضَةِ، وَإِمَّا ضِمْنًا بِالطَّعْنِ فِي غَيْرِهِ لِيُبَيِّنَ فِي طَعْنِهِ فِي غَيْرِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ، وَأَعْظَمُ مِنْهُ عِلْمًا، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ خَفَايَا الْعُيُوبِ الَّتِي لَا يَفْطَنُ لَهَا إِلَّا الْأَكْيَاسُ الْأَقْوِيَاءُ، وَلَا مَطْمَعَ فِيهِ

لِأَمْثَالِنَا مِنَ الضُّعَفَاءِ، إِلَّا أَنَّ أَقَلَّ الدَّرَجَاتِ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَيَحْرِصَ عَلَىٰ صَلَاحِهَا.

فَهَذَا غُرُورُ الَّذِينَ حَصَّلُوا الْعُلُومَ الْمُهِمَّةَ، فَكَيْفَ بِالَّذِينَ قَنَعُوا مِنَ الْعُلُومِ بِمَا لَا يُهِمُّهُمْ وَتَرَكُوا الْمُهِمَّ؟!(١).

فَالْحَامِلُ عَلَىٰ الْغُرُورِ بِالْعِلْمِ قِلَّةُ عِلْمٍ بِسِيرَةِ السَّلَفِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَوَائِلُ مِنَ الِاجْتِهَادِ وَالْمُوَاظَبَةِ وَالْجِدِّ وَتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَتَنْقِيَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْأَكْدَارِ.

وَإِنَّمَا كَانَ الْعِلْمُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ بِهَا لِأَنَّهُ قَائِدُ الْعَمَلِ، فَإِذَا اسْتَكْثَرَ الْمَرْءُ مِنَ الْعِلْمِ وَتَخَلَّفَ عَنْهُ الْعَمَلُ، كَانَ الْعِلْمُ حُجَّةً عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: «الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَنْفَعْكَ ضَرَّكَ.

قَالَ الْخَطِيبُ: يَعْنِي: إِنْ لَمْ يَنْفَعْهُ بِأَنْ يَعْمَلَ بِهِ ضَرَّهُ بِكَوْنِهِ حُجَّةً عَلَيْهِ»(٢)

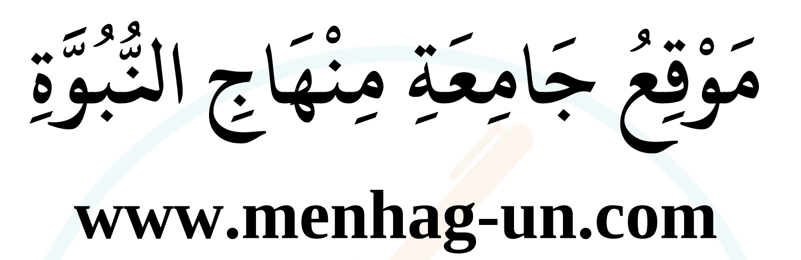
●●●

---

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٣٠٤).

(٢) «اقْتِضَاءُ الْعِلْمِ الْعَمَلَ» (ص٥٦).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

١١-التَّعَصُّبُ بِالْهَوَى، وَالتَّقْلِيدُ الأَعْمَى، وَتَحْكِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ

قَدْ قَضَىٰ اللهُ ﷻ قَضاءً مُحْكَمًا نَافِذًا لَا يُرَدُّ فِي شَأْنِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

«فَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِنَفْسِهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ أَبَدًا حَتَّىٰ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا نَشَبَ بَيْنَهُمْ مِنْ خُصُومَاتٍ، ثُمَّ لَا يُقَابِلُوا حُكْمَهُ بِالْحَرَجِ وَضِيقِ الصَّدْرِ، بَلْ يَرْضَوْا بِهِ وَيُذْعِنُوا، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ إِنَّمَا يَكُونُ التَّحَاكُمُ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَلَا يَتِمُّ إِيمَانُ أَحَدٍ حَتَّىٰ يُحَكِّمُهُمَا وَحْدَهُمَا، وَيُسَلِّمَ لِلَّذِي يَحْكُمَانِ بِهِ»(١).

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-:

«قَدْ أَقْسَمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِنَفْسِهِ ... قَسَمًا يُبِينُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ
أَنْ لَيْسَ يُؤْمِنُ مَنْ يَكُونُ مُحَكِّمًا ... غَيْرَ الرَّسُولِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
بَلْ لَيْسَ يُؤْمِنُ غَيْرُ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ حَسْبُ فَذَاكَ ذُو إِيمَانِ

---

(١) «شَرْحُ الْقَصِيدَةِ النُّونِيَّةِ» لِابْنِ الْقَيِّمِ، شَرْحُ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ٢٥٩).

هَـذَا وَمَـا ذَاكَ الْمُحَكِّـمُ مُؤْمِنًـا ... إِنْ كَـانَ ذَا حَـرَجٍ وَضِـيقِ بِطَـانِ
هَـذَا وَلَـيْسَ بِمُـؤْمِنٍ حَتَّـىٰ يُسَلِّــ ... ـمَ لِلَّـذِي يَقْضِـي بِـهِ الْوَحْيَـانِ

وَقَدْ كَانَ التَّعَصُّبُ لِآرَاءِ الرِّجَالِ سَبَبًا فِي اخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا الِاخْتِلَافِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَذَىٰ يَحُلُّ بِسَاحَةِ مَنْ يُصَرِّحُ بِمَذْهَبِهِ أَوْ يَسْتَعْلِنُ بِهِ، لِذَلِكَ كَانَتْ شَكْوَىٰ الزَّمَخْشَرِيِّ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-، أَوْ قُلْ: صَرْخَتُهُ حَادَّةً مُدَوِّيَةً، إِذْ يَقُولُ:

إِذَا سَـأَلُوا عَـنْ مَـذْهَبِي لَـمْ أُبِـحْ بِـهِ ... وَأَكْتُمُـــهُ كِتْمَانُـــهُ لِـــي أَسْـــلَمُ
فَـإِنْ حَنَفِيًّـا قُلْـتُ، قَـالُوا بِأَنَّـنِي ... أُبِيحُ الطِّلَا وَهْوَ الشَّرَابُ الْمُحَرَّمُ
وَإِنْ مَالِكِيًّـا قُلْـتُ، قَـالُوا بِأَنَّـنِي ... أُبِيحُ لَهُـمْ لَحْـمَ الْكِلَابِ وَهُـمْ هُـمُ
وَإِنْ شَـافِعِيًّا قُلْـتُ، قَـالُوا بِأَنَّـنِي ... أُبِيحُ نِكَـاحَ الْبِنْـتِ وَالْبِنْـتُ تَحْـرُمُ
وَإِنْ حَنْبَلِيًّـا قُلْـتُ، قَـالُوا بِأَنَّـنِي ... ثَقِيـلٌ حُلُـولِيٌّ بَغِـيضٌ مُجَسِّـمُ
وَإِنْ قُلْـتُ مِـنْ أَهْـلِ الْحَـدِيثِ ... يَقُولُونَ: تَـيْسٌ لَـيْسَ يَـدْرِي وَيَفْهَـمُ
تَعَجَّبْـتُ مِـنْ هَـذَا الزَّمَـانِ وَأَهْلِـهِ ... فَمَـا أَحَـدٌ مِـنْ أَلْسُـنِ النَّـاسِ يَسْـلَمُ
وَأَخْبَرَنِـي دَهْـرِي وَقَـدَّمَ مَعْشَـرًا ... عَلَـىٰ أَنَّهُـمْ لَا يَعْلَمُـونَ وَأَعْلَـمُ[1]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قال اللهُ عز وجل: يُؤْذِينِي ابنُ آدمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرِ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». أخرجه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦).

=

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ قُدْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي الْقَصِّ عَلَىٰ أَثَرِهِ، وَآثَارُهُمْ فِي ذَلِكَ نَاطِقَةٌ بِتَحَرِّيهِمُ اتِّبَاعَ آثَارِهِ، وَالسَّيْرَ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَتَابِعُو تَابِعِيهِمْ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمْ، «ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا[1] وَكُلٌّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، جَعَلُوا التَّعَصُّبَ لِلْمَذَاهِبِ دِيَانَتَهُمُ الَّتِي بِهَا يَدِينُونَ، وَرُءُوسَ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي بِهَا يَتَّجِرُونَ، وَآخَرُونَ مِنْهُمْ قَنَعُوا بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ وَقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وَالْفَرِيقَانِ بِمَعْزِلٍ عَمَّا يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ مِنَ الصَّوَابِ، وَلِسَانُ الْحَقِّ يَتْلُو عَلَيْهِمْ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النساء:١٢٣].

قَالَ الشَّافِعِيُّ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ-: «أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ».

قَالَ أَبُو عُمَرَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: «أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُقَلِّدَ لَيْسَ مَعْدُودًا

=

ومعنىٰ الحديث: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلىٰ الدهر، فمن سبَّ الدهرَ عاد سبُّه إلىٰ ربِّ الدهر، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بيَّن سبحانه أنَّه يقلِّب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّبُ هو المقلَّبَ، فيمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به الله تعالىٰ. انظر: «المجلَّىٰ في شرح القواعد المثلىٰ» (ص٦٦)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص١٦٤).

(١) زُبُرًا: قِطَعًا، أَيْ فِرَقًا وَطَوَائِفَ، مُتَفَرِّقِينَ لَا مُجْتَمِعِينَ.

مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ بِدَلِيلِهِ».

وَهَذَا كَمَا قَالَ أَبُو عُمَرَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الدَّلِيلِ، وَأَمَّا بِدُونِ الدَّلِيلِ فَإِنَّمَا هُوَ تَقْلِيدٌ.

فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَانِ الْإِجْمَاعَانِ إِخْرَاجَ الْمُتَعَصِّبِ بِالْهَوَىٰ وَالْمُقَلِّدِ الْأَعْمَىٰ عَنْ زُمْرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَسُقُوطِهِمَا بِاسْتِكْمَالِ مَنْ فَوْقَهُمَا الْفُرُوضَ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ وَرَثَةِ الرَّسُولِ ﷺ مَنْ يَجْهَدُ وَيَكْدَحُ فِي رَدِّ مَا جَاءَ بِهِ إِلَىٰ قَوْلِ مُقَلِّدِهِ وَمَتْبُوعِهِ؟! وَيُضَيِّعُ سَاعَاتِ عُمُرِهِ فِي التَّعَصُّبِ وَالْهَوَىٰ وَلَا يَشْعُرُ بِتَضْيِيعِهِ؟!

تَاللهِ إِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمَّتْ فَأَعْمَتْ، وَرَمَتِ الْقُلُوبَ فَأَصَمَّتْ[1]، رَبَا عَلَيْهَا الصَّغِيرُ، وَهَرَمَ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَاتُّخِذَ لِأَجْلِهَا الْقُرْآنُ مَهْجُورًا، وَكَانَ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا، وَلَمَّا عَمَّتْ بِهَا الْبَلِيَّةُ، وَعَظُمَتْ بِسَبَبِهَا الرَّزِيَّةُ، بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُ النَّاسِ سِوَاهَا، وَلَا يُعَدُّ الْعِلْمُ إِلَّا إِيَّاهَا، فَطَالِبُ الْحَقِّ مِنْ مَظَانِّهِ لَدَيْهِمْ مَفْتُونٌ، وَمُؤْثِرُهُ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ عِنْدَهُمْ مَغْبُونٌ، نَصَبُوا لِمَنْ خَالَفَهُمْ فِي طَرِيقَتِهِمُ الْحَبَائِلَ، وَبَغَوْا لَهُ الْغَوَائِلَ، وَرَمَوْهُ عَنْ قَوْسِ الْجَهْلِ وَالْبَغْيِ وَالْعِنَادِ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

---

(١) أَيْ: أَصَابَتْ مَقْتَلًا.

فَحَقِيقٌ بِمَنْ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ وَقِيمَةٌ أَلَّا يَلْتَفِتَ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا يَرْضَىٰ بِمَا لَدَيْهِمْ، وَإِذَا رُفِعَ لَهُ عَلَمُ السُّنَّةِ شَمَّرَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَحْبِسْ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ، فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّىٰ يُبَعْثَرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَيُحَصَّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، وَتَتَسَاوَىٰ أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ فِي الْقِيَامِ لِلَّهِ، وَيَنْظُرُ كُلُّ عَبْدٍ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، وَيَقَعُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمُحِقِّينَ وَالْمُبْطِلِينَ، وَيَعْلَمُ الْمُعْرِضُونَ عَنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»(١).

وَقَدْ يُفْهَمُ مِنَ الْحَضِّ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الْوَحْيَيْنِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِمَا وَصَرْفِ النَّفْسِ عَمَّا سِوَاهُمَا، قَدْ يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ إِهْدَارِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّدِّ عَنْ آثَارِهِمْ وَمُحَادَدَةِ أَقْوَالِهِمْ. وَكُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ مَقْصُودًا وَلَا مُرَادًا، بَلْ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ تَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَإِهْدَارِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ.

* **«الْفَرْقُ بَيْنَ تَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ وَإِهْدَارِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَإِلْغَائِهَا:**

الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ تَجْرِيدَ الْمُتَابَعَةِ أَلَّا تُقَدِّمَ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ قَوْلَ أَحَدٍ وَلَا رَأْيَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ، بَلْ تَنْظُرُ فِي صِحَّةِ الْحَدِيثِ أَوَّلًا، فَإِذَا صَحَّ لَكَ نَظَرْتَ فِي مَعْنَاهُ ثَانِيًا، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ لَمْ تَعْدِلْ عَنْهُ وَلَوْ خَالَفَكَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ تَتَّفِقَ الْأُمَّةُ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (١/ ٧).

الْأُمَّةِ مَنْ قَالَ بِهِ، وَلَوْ لَمْ تَعْلَمْهُ، فَلَا تَجْعَلْ جَهْلَكَ بِالْقَائِلِ حُجَّةً عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، بَلِ اذْهَبْ إِلَىٰ النَّصِّ وَلَا تَضْعُفْ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ قَالَ بِهِ قَائِلٌ قَطْعًا وَلَكِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

هَذَا مَعَ حِفْظِ مَرَاتِبِ الْعُلَمَاءِ وَمُوَالَاتِهِمْ وَاعْتِقَادِ حُرْمَتِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَضَبْطِهِ، فَهُمْ دَائِرُونَ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْأَجْرَيْنِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَلَكِنْ لَا يُوجِبُ هَذَا إِهْدَارَ النُّصُوصِ وَتَقْدِيمَ قَوْلِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَلَيْهَا بِشُبْهَةِ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَمَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ النَّصِّ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَهَلَّا وَافَقْتَهُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟!

فَمَنْ عَرَضَ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ النُّصُوصِ وَوَزَنَهَا بِهَا وَخَالَفَ مِنْهَا مَا خَالَفَ النَّصَّ لَمْ يُهْدِرْ أَقْوَالَهُمْ، وَلَمْ يَهْضِمْ جَانِبَهُمْ، بَلِ اقْتَدَىٰ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ أُمِرُوا بِذَلِكَ، فَمُتَّبِعُهُمْ حَقًّا مَنِ امْتَثَلَ مَا أَوْصَوْا بِهِ لَا مَنْ خَالَفَهُمْ، فَخِلَافُهُمْ فِي الْقَوْلِ الَّذِي جَاءَ النَّصُّ بِخِلَافِهِ أَسْهَلَ مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا وَدُعُوا إِلَيْهَا مِنْ تَقْدِيمِ النَّصِّ عَلَىٰ أَقْوَالِهِمْ.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ الْفَرْقُ بَيْنَ تَقْلِيدِ الْعَالِمِ فِي كُلِّ مَا قَالَ، وَبَيْنَ الِاسْتِعَانَةِ بِفَهْمِهِ وَالِاسْتِضَاءَةِ بِنُورِ عِلْمِهِ، فَالْأَوَّلُ يَأْخُذُ قَوْلَهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيهِ وَلَا طَلَبٍ لِدَلِيلِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ كَالْحَبْلِ الَّذِي يُلْقِيهِ فِي عُنُقِهِ يُقَلِّدُهُ بِهِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ تَقْلِيدًا، بِخِلَافِ مَنِ اسْتَعَانَ بِفَهْمِهِمْ، وَاسْتَضَاءَ بِنُورِ عِلْمِهِمْ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الرَّسُولِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فَإِنَّهُ يَجْعَلُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الدَّلِيلِ الْأَوَّلِ،

فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ اسْتَغْنَىٰ بِدَلَالَتِهِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِغَيْرِهِ، فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِالنَّجْمِ عَلَىٰ الْقِبْلَةِ فَإِنَّهُ إِذَا شَاهَدَهَا لَمْ يَبْقَ لِاسْتِدْلَالِهِ بِالنَّجْمِ مَعْنًىٰ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ»[1].

* الْفَرْقُ بَيْنَ الْحُكْمِ الْمُنَزَّلِ الْوَاجِبِ الِاتِّبَاعِ، وَالْحُكْمِ الْمُؤَوَّلِ:

الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْحُكْمَ الْمُنَزَّلَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، وَحَكَمَ بِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُوَ حُكْمُهُ الَّذِي لَا حُكْمَ لَهُ سِوَاهُ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ الْمُؤَوَّلُ فَهُوَ أَقْوَالُ الْمُجْتَهِدِينَ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي لَا يَجِبُ اتِّبَاعُهَا وَلَا يُكَفَّرُ وَلَا يُفَسَّقُ مَنْ خَالَفَهَا، فَإِنَّ أَصْحَابَهَا لَمْ يَقُولُوا: هَذَا حُكْمُ اللهِ وَرَسُولُهُ، بَلْ قَالُوا: اجْتَهَدْنَا بِرَأْيِنَا فَمَنْ شَاءَ قَبِلَهُ وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَقْبَلْهُ.

وَكَذَلِكَ مَالِكٌ اسْتَشَارَهُ الرَّشِيدُ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا فِي «الْمُوَطَّأِ» فَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: قَدْ تَفَرَّقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْبِلَادِ وَصَارَ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ عِلْمٌ غَيْرُ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ.

وَهَذَا الشَّافِعِيُّ يَنْهَىٰ أَصْحَابَهُ عَنْ تَقْلِيدِهِ وَيُوَصِّيهِمْ بِتَرْكِ قَوْلِهِ إِذَا جَاءَ الْحَدِيثُ بِخِلَافِهِ.

(١) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣٥٦).

وَهَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ يُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ كَتَبَ فَتَاوَاهُ وَدَوَّنَهَا، وَيَقُولُ: لَا تُقَلِّدْنِي وَلَا تُقَلِّدْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَخُذْ مِنْ حَيْثُ أَخَذُوا.

وَلَوْ عَلِمُوا رضي الله عنهم أَنَّ أَقْوَالَهُمْ يَجِبُ اتِّبَاعُهَا لَحَرَّمُوا عَلَىٰ أَصْحَابِهِمْ مُخَالَفَتَهُمْ، وَلَمَّا سَاغَ لِأَصْحَابِهِمْ أَنْ يُفْتُوا بِخِلَافِهِمْ فِي شَيْءٍ، وَلَمَّا كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ الْقَوْلَ ثُمَّ يُفْتِي بِخِلَافِهِ، فَيُرْوَىٰ عَنْهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْقَوْلَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَالرَّأْيُ وَالِاجْتِهَادُ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَسُوغَ اتِّبَاعُهُ، وَالْحُكْمُ الْمُنَزَّلُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُخَالِفَهُ وَيَخْرُجَ عَنْهُ»[1].

* حِرْصُ الْأَئِمَّةِ عَلَىٰ رَدِّ الْأَتْبَاعِ إِلَىٰ الدَّلِيلِ:

لَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ الْمُتَّبَعُونَ رضي الله عنهم يَحْرِصُونَ غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَىٰ رَدِّ أَتْبَاعِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفُوا دَلِيلَهُمْ، وَصَرَّحُوا -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ بِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ هُوَ مَا صَحَّ مِنَ الْحَدِيثِ، وَقَدْ سَاقَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم» (ص١٩)، أَقْوَالًا كَثِيرَةً لِلْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ رضي الله عنهم فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَتَرْكِ كُلِّ مَنْ خَالَفَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ، نَسُوقُ مِنْهَا بَعْضَهَا:

فَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَدْ رَوَىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَقْوَالًا شَتَّىٰ وَعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةً، كُلُّهَا تُؤَدِّي إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ وُجُوبُ الْأَخْذِ بِالْحَدِيثِ، وَتَرْكِ تَقْلِيدِ آرَاءِ الْأَئِمَّةِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ -أَيْ: لِلْحَدِيثِ-.

---

(١) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣٦٠).

١- إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي.

٢- لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِنَا، مَا لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَيْنَ أَخَذْنَاهُ.

٣- إِذَا قُلْتُ قَوْلًا يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ وَخَبَرَ الرَّسُولِ ﷺ، فَاتْرُكُوا قَوْلِي.

وَأَمَّا الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ:

١- إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ، فَانْظُرُوا فِي رَأْيِي، فَكُلُّ مَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَخُذُوهُ، وَكُلُّ مَا لَمْ يُوَافِقِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَاتْرُكُوهُ.

٢- لَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ، إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ.

٣- قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ تَخْلِيلِ أَصَابِعِ الرِّجْلَيْنِ فِي الْوُضُوءِ، فَقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّاسِ، قَالَ: فَتَرَكْتُهُ حَتَّىٰ خَفَّ النَّاسُ، فَقُلْتُ لَهُ: عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ، فَقَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَابْنُ لَهِيعَةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو الْمُعَافِرِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَبْلِيِّ، عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ الْقُرَشِيِّ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُدَلِّكُ بِخُنْصُرِهِ مَا بَيْنَ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ»، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَمَا سَمِعْتُ بِهِ قَطُّ إِلَّا السَّاعَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْأَلُ، فَيَأْمُرُ بِتَخْلِيلِ الْأَصَابِعِ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فَالنُّقُولُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ، وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ عَمَلًا بِهَا وَأَسْعَدُ، فَمِنْهَا:

١- مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَتَذْهَبُ عَلَيْهِ سُنَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَعْزُبُ عَنْهُ، فَمَهْمَا قُلْتَ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ أَصَّلْتُ مِنْ أَصْلٍ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ خِلَافُ مَا قُلْتُ، فَالْقَوْلُ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ قَوْلِي.

٢- كُلُّ مَسْأَلَةٍ صَحَّ فِيهَا الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ أَهْلِ النَّقْلِ بِخِلَافِ مَا قُلْتُ، فَأَنَا رَاجِعٌ عَنْهَا فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَوْتِي.

٣- إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي.

٤- أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَ لَهُ سُنَّةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ فَهُوَ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ جَمْعًا لِلسُّنَّةِ وَتَمَسُّكًا بِهَا، حَتَّىٰ كَانَ -كَمَا قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ- يَكْرَهُ وَضْعَ الْكُتُبِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ التَّفْرِيعِ وَالرَّأْيِ، وَلِذَلِكَ قَالَ:

١- لَا تُقَلِّدْنِي وَلَا تُقَلِّدْ مَالِكًا وَلَا الشَّافِعِيَّ وَلَا الْأَوْزَاعِيَّ وَلَا الثَّوْرِيَّ وَخُذْ مِنْ حَيْثُ أَخَذُوا.

٢- رَأْيُ الْأَوْزَاعِيِّ وَرَأْيُ مَالِكٍ وَرَأْيُ أَبِي حَنِيفَةَ كُلُّهُ رَأْيٌ، وَهُوَ عِنْدِي سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا الْحُجَّةُ فِي الْآثَارِ.

٣- مَنْ رَدَّ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ عَلَىٰ شَفَا هَلَكَةٍ.

تِلْكَ هِيَ أَقْوَالُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فِي الْأَمْرِ بِالتَّمَسُّكِ بِالْحَدِيثِ، وَالنَّهْيِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ دُونَ بَصِيرَةٍ، وَهِيَ مِنَ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ بِحَيْثُ لَا تَقْبَلُ جَدَلًا وَلَا تَأْوِيلًا، وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِكُلِّ مَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ وَلَوْ خَالَفَ بَعْضَ أَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ، لَا يَكُونُ مُبَايِنًا لِمَذْهَبِهِمْ، وَلَا خَارِجًا عَنْ طَرِيقَتِهِمْ، بَلْ هُوَ مُتَّبِعٌ لَهُمْ جَمِيعًا، وَمُتَمَسِّكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَنْ تَرَكَ السُّنَّةَ الثَّابِتَةَ لِمُجَرَّدِ مُخَالَفَتِهَا لِقَوْلِهِمْ، بَلْ هُوَ بِذَلِكَ عَاصٍ لَهُمْ، وَمُخَالِفٌ لِأَقْوَالِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. اهـ

بَيَانُ فَسَادِ التَّقْلِيدِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاتِّبَاعِ:

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْجَامِعِ» (٢/ ١٠٩): «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٣-٢٤].

فَمَنَعَهُمُ الِاقْتِدَاءُ بِآبَائِهِمْ مِنْ قَبُولِ الِاهْتِدَاءِ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وَفِي هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

وَقَالَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

وَقَالَ ﷻ عَائِبًا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَذَامًّا لَهُمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٣].

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ مِنْ ذَمِّ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ، وَقَدِ احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ كُفْرُ أُولَئِكَ مِنَ الِاحْتِجَاجِ بِهَا، لِأَنَّ التَّشْبِيهَ لَمْ يَقَعْ مِنْ جِهَةِ كُفْرِ أَحَدِهِمَا وَإِيمَانِ الْآخَرِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ التَّقْلِيدَيْنِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ لِلْمُقَلِّدِ، كَمَا لَوْ قَلَّدَ رَجُلٌ فَكَفَرَ، وَقَلَّدَ آخَرُ فَأَذْنَبَ، وَقَلَّدَ آخَرُ فِي مَسْأَلَةِ دُنْيَاهُ فَأَخْطَأَ وَجْهَهَا، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مَلُومًا عَلَىٰ التَّقْلِيدِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْآثَامُ فِيهِ.

وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

فَإِذَا بَطَلَ التَّقْلِيدُ بِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا وَجَبَ التَّسْلِيمُ لِلْأُصُولِ الَّتِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهَا، وَهِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُمَا بِدَلِيلٍ جَامِعٍ بَيْنَ ذَلِكَ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ: يُقَالُ لِمَنْ قَالَ بِالتَّقْلِيدِ: لِمَ قُلْتَ بِهِ وَخَالَفْتَ السَّلَفَ

فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا؟ فَإِنْ قَالَ: قَلَّدْتُ لِأَنَّ كِتَابَ اللهِ ﷻ لَا عِلْمَ لِي بِتَأْوِيلِهِ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ لَمْ أُحْصِهَا، وَالَّذِي قَلَّدْتُهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ، فَقَلَّدْتُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي، قِيلَ لَهُ: أَمَّا الْعُلَمَاءُ، إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ أَوْ حِكَايَةِ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوِ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ فَهُوَ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَكِنْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا قَلَّدْتَ فِيهِ بَعْضَهُمْ دُونَ بَعْضٍ، فَمَا حُجَّتُكَ فِي تَقْلِيدِ بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ وَكُلُّهُمْ عَالِمٌ، وَلَعَلَّ الَّذِي رَغِبْتَ عَنْ قَوْلِهِ أَعْلَمُ مِنَ الَّذِي ذَهَبْتَ إِلَىٰ مَذْهَبِهِ؟

فَإِنْ قَالَ: قَلَّدْتُهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ صَوَابٌ.

قِيلَ لَهُ: عَلِمْتُ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إِجْمَاعٍ؟

فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، فَقَدْ أَبْطَلَ التَّقْلِيدَ وَطُولِبَ بِمَا ادَّعَاهُ مِنَ الدَّلِيلِ.

وَإِنْ قَالَ: قَلَّدْتُهُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنِّي.

قِيلَ لَهُ: فَقَلِّدْ كُلَّ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَإِنَّكَ تَجِدُ مَنْ ذَلِكَ خَلْقًا كَثِيرًا، وَلَا تَخُصَّ مَنْ قَلَّدْتَهُ، إِذْ عِلَّتُكَ فِيهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْكَ.

فَإِنْ قَالَ: قَلَّدْتُهُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ.

قِيلَ لَهُ: فَهُوَ -إِذَنْ- أَعْلَمُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَفَىٰ بِقَوْلٍ مِثْلِ هَذَا قُبْحًا.

وَإِنْ قَالَ: إِنَّمَا أُقَلِّدُ بَعْضَ الصَّحَابَةِ.

قِيلَ لَهُ: فَمَا حُجَّتُكَ فِي تَرْكِ مَنْ لَمْ تُقَلِّدْ مِنْهُمْ؟ وَلَعَلَّ مَنْ تَرَكْتَ قَوْلَهُ مِنْهُمْ أَفْضَلُ مِمَّنْ أَخَذْتَ بِقَوْلِهِ، عَلَىٰ أَنَّ الْقَوْلَ لَا يَصِحُّ لِفَضْلِ قَائِلِهِ وَإِنَّمَا يَصِحُّ بِدَلَالَةِ الدَّلِيلِ فِيهِ». اهـ

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقَالُ لِلْمُقَلِّدِ: بِأَيِّ شَيْءٍ عَرَفْتَ أَنَّ الصَّوَابَ مَعَ مَنْ قَلَّدْتَهُ دُونَ مَنْ لَا تُقَلِّدُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: عَرَفْتُ بِالدَّلِيلِ، فَلَيْسَ بِمُقَلِّدٍ، وَإِنْ قَالَ: عَرَفْتُهُ تَقْلِيدًا لَهُ، فَإِنَّهُ أَفْتَىٰ بِهَذَا الْقَوْلِ وَدَانَ بِهِ وَعَلَّمَهُ، وَدِينُهُ وَحُسْنُ ثَنَاءِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِ مَنَعَهُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ، قِيلَ لَهُ: فَمَعْصُومٌ هُوَ عِنْدَكَ، أَمْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَأُ؟ فَإِنْ قَالَ بِعِصْمَتِهِ أَبْطَلَ، وَإِنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ الْخَطَأَ، قِيلَ لَهُ: فَمَا يُؤْمِنُكَ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِيمَا قَلَّدْتَهُ فِيهِ وَخَالَفَهُ فِيهِ غَيْرُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: وَإِنْ أَخْطَأَ فَهُوَ مَأْجُورٌ، قِيلَ: أَجَلْ، هُوَ مَأْجُورٌ لِاجْتِهَادِهِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مَأْجُورٍ لِأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ بِمُوجَبِ الْأَجْرِ، بَلْ قَدْ فَرَّطْتَ فِي اتِّبَاعِ الْوَاجِبِ، فَأَنْتَ إِذَنْ مَأْزُورٌ.

فَإِنْ قَالَ: كَيْفَ يَأْجُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا أَفْتَىٰ بِهِ وَيَمْدَحُهُ عَلَيْهِ، وَيَذُمُّ الْمُسْتَفْتِيَ عَلَىٰ قَوْلِهِ، وَهَلْ يُعْقَلُ هَذَا؟!

قِيلَ لَهُ: الْمُسْتَفْتِي إِنْ هُوَ قَصَّرَ وَفَرَّطَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ لَحِقَهُ الذَّمُّ وَالْوَعِيدُ، وَإِنْ بَذَلَ جُهْدَهُ، وَلَمْ يُقَصِّرْ فِيمَا أُمِرَ بِهِ وَاتَّقَىٰ اللهَ مَا اسْتَطَاعَ فَهُوَ مَأْجُورٌ -أَيْضًا-.

وَأَمَّا الْمُتَعَصِّبُ الَّذِي جَعَلَ قَوْلَ مَتْبُوعِهِ عِيَارًا عَلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ

الصَّحَابَةِ يَزِنُهَا بِهِ، فَمَا وَافَقَ قَوْلَ مَتْبُوعِهِ مِنْهَا قَبِلَهُ، وَمَا خَالَفَهُ رَدَّهُ، فَهَذَا إِلَىٰ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَىٰ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ.

وَإِنْ قَالَ -وَهُوَ الْوَاقِعُ-: اتَّبَعْتُهُ وَقَلَّدْتُهُ وَلَا أَدْرِي عَلَىٰ صَوَابٍ هُوَ أَمْ لَا؟ وَالْعُهْدَةُ عَلَىٰ الْقَائِلِ، وَأَنَا حَاكٍ لِأَقْوَالِهِ.

قِيلَ لَهُ: فَهَلْ تَتَخَلَّصُ بِهَذَا مِنَ اللهِ ﷻ عِنْدَ السُّؤَالِ لَكَ عَمَّا حَكَمْتَ بِهِ بَيْنَ عِبَادِ اللهِ وَأَفْتَيْتَهُمْ بِهِ؟ فَوَاللهِ إِنَّ لِلْحُكَّامِ وَالْمُفْتِينَ لَمَوْقِفًا لِلسُّؤَالِ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَحَكَمَ بِهِ، وَعَرَفَهُ وَأَفْتَىٰ بِهِ، وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمَا فَسَيَعْلَمُ عِنْدَ انْكِشَافِ الْحَالِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ شَيْءٍ»[1].

وَالْأَئِمَّةُ أَنْفُسُهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لَمْ يَتَعَمَّدْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مُخَالَفَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَيْءٍ مِمَّا ثَبَتَ عَنْهُ، وَحَاشَىٰ لِلَّهِ أَنْ يَفْعَلُوا، بَلْ كُلُّهُمْ صَرَّحَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَنَّهُ إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبُهُ، وَأَنَّهُ إِذَا خَالَفَ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْأَلَةٍ فَهُوَ رَاجِعٌ عَنْهَا حَيًّا وَمَيِّتًا.

وَالْمُخَالَفَةُ إِنْ وَقَعَتْ فَإِنَّمَا تَقَعُ لِأَعْذَارٍ بَيَّنَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي رِسَالَتِهِ «رَفْعُ الْمَلَامِ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ» (ص١٢)، فَقَالَ: «وَلْيُعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَقْبُولِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ قَبُولًا عَامًّا يَتَعَمَّدُ مُخَالَفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ سُنَّتِهِ، دَقِيقٍ وَلَا جَلِيلٍ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ اتِّفَاقًا يَقِينِيًّا عَلَىٰ وُجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (٢/ ٢٣٢).

ﷺ، وَعَلَىٰ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ إِذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ، قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عُذْرٍ فِي تَرْكِهِ».

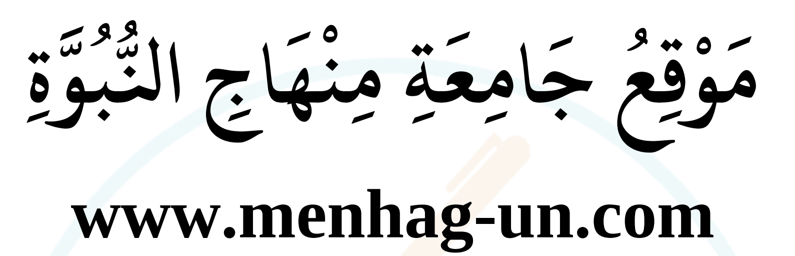
وَجَمِيعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ اعْتِقَادِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ.

الثَّانِي: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ إِرَادَةَ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ.

وَالثَّالِثُ: اعْتِقَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ.

• • •



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الثَّامِنَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



شُبْهَةٌ وَجوابُها:

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ فِي إِهْدَارِ التَّقْلِيدِ تَكْلِيفًا لِلنَّاسِ بِمَا لَا يُطِيقُونَ؛ فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَالِمًا، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ قَادِرًا عَلَىٰ الِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ.

* **وَجَوَابُ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ:**

«**أَحَدُهَا**: أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ بِنَا وَرَأْفَتِهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْنَا بِالتَّقْلِيدِ، فَلَوْ كَلَّفَنَا بِهِ لَضَاعَتْ أُمُورُنَا، وَفَسَدَتْ مَصَالِحُنَا؛ لِأَنَّا لَمْ نَكُنْ نَدْرِي مَنْ نُقَلِّدُ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَهُمْ عَدَدٌ فَوْقَ الْمِئِينَ، وَلَا يَدْرِي عَدَدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَلَئُوا الْأَرْضَ شَرْقًا وَغَرْبًا وَجَنُوبًا وَشَمَالًا، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ -بِحَمْدِ اللهِ وَفَضْلِهِ- وَبَلَغَ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ.

فَلَوْ كُلِّفْنَا بِالتَّقْلِيدِ لَوَقَعْنَا فِي أَعْظَمِ الْعَنَتِ وَالْفَسَادِ، وَلَكُلِّفْنَا بِتَحْلِيلِ الشَّيْءِ وَتَحْرِيمِهِ، وَإِيجَابِ الشَّيْءِ وَإِسْقَاطِهِ مَعًا إِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ كُلِّ عَالِمٍ، وَإِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ الْأَعْلَمِ فَالْأَعْلَمِ فَمَعْرِفَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَنُ مِنَ الْأَحْكَامِ أَسْهَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَعْلَمِ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ شُرُوطُ التَّقْلِيدِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ عَلَىٰ الْعَالِمِ الرَّاسِخِ فَضْلًا عَنِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي هُوَ

كَالْأَعْمَىٰ، وَإِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ الْبَعْضِ، وَكَانَ جَعْلُ ذَلِكَ إِلَىٰ تَشَهِّينَا وَاخْتِيَارِنَا صَارَ دِينُ اللهِ تَبَعًا لِإِرَادَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا وَشَهَوَاتِنَا، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَىٰ مَنْ أَمَرَ اللهُ بِاتِّبَاعِ قَوْلِهِ وَتَلَقِّي الدِّينِ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ، وَذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ وَأَمِينُهُ عَلَىٰ وَحْيِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ هَذَا الْمَنْصِبَ لِسِوَاهُ بَعْدَهُ أَبَدًا.

الثَّانِي: أَنَّ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ صَلَاحَ الْأُمُورِ لَا ضَيَاعَهَا، وَبِإِهْمَالِهِ وَتَقْلِيدِ مَنْ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ إِضَاعَتَهَا وَفَسَادَهَا كَمَا الْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مَأْمُورٌ بِأَنْ يُصَدِّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَلَمْ يُوجِبِ اللهُ -سُبْحَانَهُ- مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا فِيهِ حِفْظُ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا وَصَلَاحُهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَبِإِهْمَالِ ذَلِكَ تَضِيعُ مَصَالِحُهَا وَتَفْسُدُ أُمُورُهَا؛ فَمَا خَرَابُ الْعَالَمِ إِلَّا بِالْجَهْلِ وَلَا عِمَارَتُهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَإِذَا ظَهَرَ الْعِلْمُ فِي بَلَدٍ أَوْ مَحِلَّةٍ قَلَّ الشَّرُّ فِي أَهْلِهَا، وَإِذَا خَفِيَ الْعِلْمُ هُنَاكَ ظَهَرَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا فَهُوَ مِمَّنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلَوْلَا الْعِلْمُ كَانَ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ.

وَقَالَ: النَّاسُ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْعِلْمِ مِنْهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَالْعِلْمُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ

وَقْتٍ(١).

الرَّابِعُ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَخُصُّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا لَا تَدْعُوهُ الْحَاجَةُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِضَاعَةٌ لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَلَا تَعْطِيلٌ لِمَعَاشِهِمْ، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ ﭬ قَائِمِينَ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعِمَارَةِ حُرُوثِهِمْ وَالْقِيَامِ عَلَىٰ مَوَاشِيهِمْ، وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِمَتَاجِرِهِمْ وَالصَّفْقِ بِالْأَسْوَاقِ، وَهُمْ أَهْدَىٰ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ لَا يَشُقُّ فِي الْعِلْمِ غُبَارُهُمْ.

الْخَامِسُ: أَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ دُونَ مُقَدَّرَاتِ الْأَذْهَانِ وَمَسَائِلِ الْخَرْصِ وَالْأَلْغَازِ، وَذَلِكَ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَىٰ النُّفُوسِ تَحْصِيلُهُ وَحِفْظُهُ وَفَهْمُهُ، فَإِنَّهُ كِتَابُ اللهِ الَّذِي يَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:٢٢].

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «**صَحِيحِهِ**»: قَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيْهِ؟ وَلَمْ يَقُلْ: فَتَضِيعُ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ وَتَتَعَطَّلُ مَعَايِشُهُ عَلَيْهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَهِيَ -بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ- مَضْبُوطَةٌ مَحْفُوظَةٌ، وَأُصُولُ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا نَحْوُ خَمْسِمِئَةِ حَدِيثٍ، وَفَرْشُهَا وَتَفَاصِيلُهَا نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ حَدِيثٍ.

(١) **فِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ**: النَّاسُ إِلَىٰ الْعِلْمِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَحَاجَتُهُ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ.

وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ: مُقَدَّرَاتُ الْأَذْهَانِ، وَأُغْلُوطَاتُ[١] الْمَسَائِلِ، وَالْفُرُوعُ وَالْأُصُولُ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، الَّتِي كُلُّ مَالَهَا فِي نُمُوٍّ وَزِيَادَةٍ وَتَوْلِيدٍ، وَالدِّينُ كُلُّ مَالَهُ فِي غُرْبَةٍ وَنُقْصَانٍ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»[٢].

فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَأْخُذَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَأَنْ يَدَعَ التَّعَصُّبَ وَالتَّقْلِيدَ جَانِبًا، فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي الِاتِّبَاعِ، وَالشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ فِيمَا أَحْدَثَ الْأَتْبَاعُ.

●●●

(١) **الْأُغْلُوطَاتُ**: وَاحِدُهَا أُغْلُوطَةٌ، وَزْنُهَا أُفْعُولَةٌ، مِنَ الْغَلَطِ كَالْأُحْمُوقَةِ مِنَ الْحُمْقِ، وَالْأُسْطُورَةِ مِنَ السَّطْرِ.

(٢) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» (٢/ ٢٥٦).

١٢- التَّسَرُّعُ فِي الْفَتْوَى

كَانَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ، وَصَفْوَةُ الْأَتْقِيَاءِ، وَأُسْوَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَصَفْوَةُ الْأَصْفِيَاءِ، مُحَمَّدٌ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ رَبِّهِ عِلْمٌ بِهِ تَوَقَّفَ فِيهِ؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ مِنْ رَبِّهِ بِهِ خَبَرٌ.

وَكَذَلِكَ كَانَ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا فِيمَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ قَالَ: فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**»، فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟**». قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «**أَسْوَاقُهَا**» قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صِفَةِ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» (ص٩): «وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ (٢/ ٦) بِسَنَدٍ حَسَنٍ».

فَيَا لَلَّهِ! مَا أَجَلَّ مَقَامَ «لَا أَدْرِي»!! فَهَذَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مَنْ هُوَ يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**لَا أَدْرِي**».

وَكَذَلِكَ صَنَعَ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا نَطَقَ فِي الْإِجَابَةِ بِحَرْفٍ حَتَّىٰ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ يَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ حُدُودِ مَا عَلِمُوا لَا يَتَقَدَّمُونَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَأَلَهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣١-٣٢].

فَأَيُّ ضَيرٍ عَلَىٰ الرَّجُلِ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُهُ؟! أَوْ عَنْ أَمْرٍ لَا يَدْرِيهِ، أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِيهِ؟! وَإِمَامُهُ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ، وَالْتِزَامُ الْأَصْحَابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لِهَذَا النَّهْجِ لَا يَفْتُرُونَ عَنِ الْأَخْذِ بِهِ، وَلَا عَنْهُ يَحِيدُونَ، وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَا يُحْسِنُونَ، وَلَا يَتَجَمَّلُونَ بِمَا لَا يَمْلِكُونَ.

«رَوَىٰ مُجَاهِدٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عُذْرُهَا قَبَّلَ أَبُو بَكْرٍ رَأْسَهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَا عَذَرْتَنِي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ مَا لَا أَعْلَمُ؟!

وَرَوَىٰ أَيُّوبُ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ آيَةٍ، فَقَالَ: أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيْنَ أَذْهَبُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهِ؟

وَذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ عَنْ عُزْرَةَ التَّمِيمِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ-: وَا بَرْدَهَا عَلَىٰ كَبِدِي! ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنْ يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ، فَيَقُولُ: لَا أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ -أَيْضًا- عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَمْسٌ إِذَا سَافَرَ فِيهِنَّ رَجُلٌ إِلَىٰ الْيَمَنِ كُنَّ فِيهِ عِوَضًا مِنْ سَفَرِهِ: لَا يَخْشَىٰ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا ذَنْبَهُ، وَلَا يَسْتَحِي مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَلَا يَسْتَحِي مَنْ يَعْلَمُ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ، وَالصَّبْرُ مِنَ الدِّينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ -وَهُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ-: خَرَجْنَا مَعَ ابْنِ عُمَرَ نَمْشِي، فَلَحِقَنَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: أَنْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: سَأَلْتُ عَنْكَ فَدُلِلْتُ عَلَيْكَ، فَأَخْبِرْنِي: أَتَرِثُ الْعَمَّةُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي. قَالَ: أَنْتَ لَا تَدْرِي؟! قَالَ: نَعَمْ، اذْهَبْ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ بِالْمَدِينَةِ فَاسْأَلْهُمْ. فَلَمَّا أَدْبَرَ قَبَّلَ يَدَيْهِ وَقَالَ: نِعِمَّا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سُئِلَ عَمَّا لَا يَدْرِي، فَقَالَ: لَا أَدْرِي.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَلْيَقُلِ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ أَفْتَىٰ النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْأَلُونَهُ عَنْهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ»(١).

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (٢/ ١٨٤).

«قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ رَأَيْتُ ثَلَاثَمِئَةٍ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ مَا فِيهِمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكْفِيَهُ صَاحِبُهُ الْفُتْيَا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَىٰ: أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِئَةً مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فَيَرُدُّهَا هَذَا إِلَىٰ هَذَا، وَهَذَا إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ الْأَوَّلِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يُحَدِّثُ حَدِيثًا أَوْ يُسْأَلُ عَنْهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ شَيْءٍ- إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يُسْتَفْتَىٰ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا.

وَقَالَ أَبُو حُصَيْنٍ الْأَسَدِيُّ: إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُفْتِي فِي الْمَسْأَلَةِ لَوْ وَرَدَتْ عَلَىٰ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ لَجَمَعَ لَهَا أَهْلَ بَدْرٍ»(١).

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ فَسَارُوا عَلَىٰ نَهْجِ الْحَقِّ، وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَانُوا أَئِمَّةَ الْهُدَىٰ بِحَقٍّ، وَأَصْحَابَ اتِّبَاعٍ صَادِقٍ وَأَمِينٍ.

«**سُئِلَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ:** لَا أُحْسِنُهُ، فَقَالَ السَّائِلُ: إِنِّي جِئْتُ إِلَيْكَ لَا أَعْرِفُ غَيْرَكَ! فَقَالَ الْقَاسِمُ: لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ طُولِ لِحْيَتِي وَكَثْرَةِ النَّاسِ حَوْلِي، وَاللهِ مَا أُحْسِنُهُ، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَالِسٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ: يَا ابْنَ أَخِي، الْزَمْهَا، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُكَ فِي مَجْلِسٍ أَنْبَلَ مِنْكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: وَاللهِ

(١) «صِفَةُ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» لِابْنِ حَمْدَانَ الْحَنْبَلِيِّ، تَحْقِيقُ الْأَلْبَانِيِّ (ص٧).

لَأَنْ يُقْطَعَ لِسَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِمَا لَا عِلْمَ لِي بِهِ.

وَسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ شَيْءٍ أَيَّامًا، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا أَتَكَلَّمُ فِيمَا أَحْتَسِبُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَلَسْتُ أُحْسِنُ مَسْأَلَتَكَ هَذِهِ.

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ: شَهِدْتُ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً، فَقَالَ فِي اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنْهَا: لَا أَدْرِي.

وَقِيلَ: رُبَّمَا كَانَ يُسْأَلُ عَنْ خَمْسِينَ مَسْأَلَةً فَلَا يُجِيبُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ أَجَابَ فِي مَسْأَلَةٍ فَيَنْبَغِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجِيبَ فِيهَا أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونُ خَلَاصُهُ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يُجِيبُ فِيهَا.

وَسُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ سَهْلَةٌ!! فَغَضِبَ وَقَالَ: لَيْسَ فِي الْعِلْمِ خَفِيفٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ وَخَاصَّةً مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ مَالِكٌ أَيْضًا: مَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ شَهِدَ لِي سَبْعُونَ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَقَالَ: لَا يَنْبَغِي لِرَجُلٍ أَنْ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَهْلًا لِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَسْأَلَ مَنْ كَانَ أَعْلَمَ مِنْهُ، وَمَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ سَأَلْتُ رَبِيعَةَ وَيَحْيَىٰ بْنَ سَعِيدٍ فَأَمَرَانِي بِذَلِكَ، وَلَوْ نَهَيَانِي انْتَهَيْتُ.

وَقَالَ: إِذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يُجِيبُ أَحَدُهُمْ فِي مَسْأَلَةٍ حَتَّىٰ يَأْخُذَ رَأْيَ صَاحِبِهِ، مَعَ مَا رُزِقُوا مِنَ السَّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ مَعَ الطَّهَارَةِ، فَكَيْفَ بِنَا الَّذِينَ غَطَّتِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبُ قُلُوبَنَا؟!

وَقِيلَ: كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ كَأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَقَالَ أَبُو نُعَيْمٍ: مَا رَأَيْتُ عَالِمًا أَكْثَرَ قَوْلًا «لَا أَدْرِي» مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ.

وَسُئِلَ الشَّعْبِيُّ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ: أَلَا تَسْتَحِي مِنْ قَوْلِكَ «لَا أَدْرِي» وَأَنْتَ فَقِيهُ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَسْتَحِ حِينَ قَالَتْ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢].

وَقَالَ أَبُو الذَّيَّالِ: تَعَلَّمْ لَا أَدْرِي، فَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ: لَا أَدْرِي، عَلَّمُوكَ حَتَّىٰ تَدْرِيَ، وَإِنْ قُلْتَ: أَدْرِي، سَأَلُوكَ حَتَّىٰ لَا تَدْرِيَ.

وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَسَكَتَ، فَقِيلَ: أَلَا تُجِيبُ؟ فَقَالَ: حَتَّىٰ أَدْرِيَ، الْفَضْلُ فِي سُكُوتِي أَوْ فِي الْجَوَابِ؟

وَقَالَ الْأَثْرَمُ: سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَحْمَدَ يُسْتَفْتَىٰ فَيُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِي، وَذَلِكَ فِيمَا عُرِفَتْ فِيهِ الْأَقَاوِيلُ، وَقَالَ: مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا فَقَدْ عَرَّضَهَا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تُلْجِئُ الضَّرُورَةُ.

وَقِيلَ لَهُ-أَيْ: لِأَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ-: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؛ الْكَلَامُ أَوِ الْإِمْسَاكُ؟ فَقَالَ: الْإِمْسَاكُ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَّا لِضَرُورَةٍ.

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ لَا يَكَادُ يُفْتِي فُتْيَا، وَلَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي.

وَقَالَ سُحْنُونٌ صَاحِبُ «الْمُدَوَّنَةِ»: أَشْقَىٰ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَأَشْقَىٰ مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ فَفَكَّرْتُ -يَقُولُ ابْنُ حَمْدَانَ- فِيمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ فَوَجَدْتُهُ الْمُفْتِيَ يَأْتِيهِ رَجُلٌ قَدْ حَنَثَ فِي امْرَأَتِهِ وَرَقِيقِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: لَا شَيْءَ عَلَيْكَ، فَيَذْهَبُ الْحَانِثُ فَيَتَمَتَّعُ بِامْرَأَتِهِ وَرَقِيقِهِ وَقَدْ بَاعَ الْمُفْتِي دِينَهُ بِدُنْيَا هَذَا.

وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مَسْأَلَةً فَتَرَدَّدَ إِلَيْهِ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَالَ: وَمَا أَصْنَعُ لَكَ يَا خَلِيلِي وَمَسْأَلَتُكَ هَذِهِ مُعْضِلَةٌ وَفِيهَا أَقَاوِيلُ، وَأَنَا مُتَحَيِّرٌ فِي ذَلِكَ؟! فَقَالَ لَهُ: وَأَنْتَ أَصْلَحَكَ اللهُ لِكُلِّ مُعْضِلَةٍ. فَقَالَ لَهُ سُحْنُونٌ: هَيْهَاتَ يَا ابْنَ أَخِي!! لَيْسَ بِقَوْلِكَ هَذَا أَبْذُلُ لَكَ لَحْمِي وَدَمِي فِي النَّارِ.

وَكَانَ يُزْرِي عَلَىٰ مَنْ يَعْجَلُ فِي الْفَتْوَىٰ، وَيَذْكُرُ النَّهْيَ فِي ذَلِكَ عَنْ مُعَلِّمِيهِ الْقُدَمَاءِ.

وَقَالَ: إِنِّي لَأُسْأَلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ أَعْرِفُهَا، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْجَوَابِ إِلَّا كَرَاهَةُ الْجَرَاءَةِ بَعْدِي عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ. وَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُ أَصْحَابِكَ أَجَابَ، فَتَتَوَقَّفُ فِيهَا، فَقَالَ: فِتْنَةُ الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ.

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَيَعْجَلُ فِي الْجَوَابِ فَيُصِيبُ فَأَذُمُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَيَتَثَبَّتُ فِي الْجَوَابِ فَيُخْطِئُ فَأَحْمَدُهُ.

وَقَالَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْأَلَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسْأَلَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ وَالصَّيْمَرِيُّ: قَلَّ مَنْ حَرَصَ عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ وَسَابَقَ إِلَيْهَا وَثَابَرَ عَلَيْهَا إِلَّا قَلَّ تَوْفِيقُهُ وَاضْطَرَبَ أَمْرُهُ، وَإِذَا كَانَ كَارِهًا لِذَلِكَ غَيْرَ مُخْتَارٍ لَهُ، مَا وَجَدَ مَنْدُوحَةً عَنْهُ، وَقُدِّرَ أَنْ يُحِيلَ بِالْأَمْرِ فِيهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، كَانَتِ الْمَعُونَةُ لَهُ مِنَ اللهِ أَكْثَرَ، وَالصَّلَاحُ فِي جَوَابِهِ وَفُتْيَاهُ أَغْلَبَ.

وَرَأَىٰ رَجُلٌ رَبِيعَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

وَقَالَ: لَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَاهُنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السُّرَّاقِ.

قُلْتُ -أَيِ: ابْنُ حَمْدَانَ الْحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ-: فَكَيْفَ لَوْ رَأَىٰ زَمَانَنَا، وَإِقْدَامَ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْفُتْيَا مَعَ قِلَّةِ خِبْرَتِهِ وَسُوءِ سِيرَتِهِ وَشُؤْمِ سَرِيرَتِهِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ السُّمْعَةُ وَالرِّيَاءُ وَمُمَاثَلَةُ الْفُضَلَاءِ وَالنُّبَلَاءِ وَالْمَشْهُورِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالْمُتَبَحِّرِينَ السَّابِقِينَ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ يُنْهَوْنَ فَلَا يَنْتَهُونَ، وَيُنَبَّهُونَ فَلَا يَنْتَبِهُونَ، قَدْ أُمْلِيَ لَهُمْ بِاعْتِكَافِ الْجُهَّالِ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا مَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَمَا عَلَيْهِمْ، فَمَنْ أَقْدَمَ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ أَهْلًا مِنْ فُتْيَا أَوْ قَضَاءٍ أَوْ تَدْرِيسٍ أَثِمَ، فَإِنْ أَكْثَرَ مِنْهُ وَأَصَرَّ وَاسْتَمَرَّ فَسَقَ، وَلَمْ يَحِلَّ قَبُولُ قَوْلِهِ وَلَا فُتْيَاهُ وَلَا قَضَائِهِ»(١).

---

(١) «صِفَةُ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» (ص٧).

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُوِّينا عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: مَا وَجَدْتَ مَنْ تَسْأَلُهُ غَيْرِي؟!

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: مَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ سَأَلْتُ سَبْعِينَ شَيْخًا، هَلْ تَرَوْنَ لِي أَنْ أُفْتِيَ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: فَلَوْ نَهَوْكَ؟ قَالَ: لَوْ نَهَوْنِي انْتَهَيْتُ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي حَلَفْتُ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ حَلَفْتُ، قَالَ: لَيْتَكَ دَرَيْتَ كَيْفَ حَلَفْتَ، فَدَرَيْتُ أَنَا كَيْفَ أُفْتِيكَ!

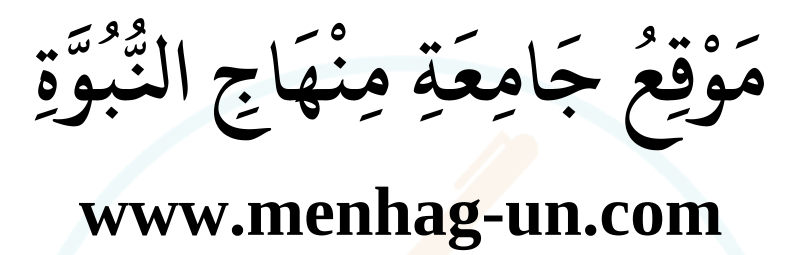
وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ سَجِيَّةَ السَّلَفِ لِخَشْيَتِهِمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَخَوْفِهِمْ مِنْهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَتِهِمْ تَأَدَّبَ»(١).

●●●



(١) «تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص١٢١).


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة التَّاسِعَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الْآفَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ: التَّسَرُّعُ فِي الْفَتْوَى

«**قَالَ الْقَاسِمُ**: مِنْ إِكْرَامِ الرَّجُلِ نَفْسَهُ أَلَّا يَقُولَ إِلَّا مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ.

وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، وَاللهِ مَا نَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَسْأَلُونَنَا عَنْهُ، وَلَأَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ جَاهِلًا إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: الْعَجَلَةُ فِي الْفَتْوَىٰ نَوْعٌ مِنَ الْجَهْلِ، وَالْخَرْقِ، قَالَ: وَكَانَ يُقَالُ: التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[1].

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: «أَجْسَرُ النَّاسِ عَلَىٰ الْفُتْيَا أَقَلُّهُمْ عِلْمًا.

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» (٢/ ١٨٤).

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَكَانَ يُقَالُ: التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ بِصِيغَةِ التَّمْرِيضِ، بَلْ هُوَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ رَوَاهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ»، وَأَبُو يَعْلَىٰ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» بِرَقْمِ (٣٠٠٨)، وَفِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» بِرَقْمِ (١٧٩٥).

وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ سُحْنُونَ بْنَ سَعِيدٍ، يَقُولُ: أَجْسَرُ النَّاسِ عَلَىٰ الْفُتْيَا أَقَلُّهُمْ عِلْمًا، يَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ الْبَابُ الْوَاحِدُ مِنَ الْعِلْمِ فَيَظُنُّ أَنَّ الْحَقَّ كُلَّهُ فِيهِ.

قَالَ سُحْنُونٌ: إِنِّي لَأَحْفَظُ مَسَائِلَ مِنْهَا مَا فِيهِ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَئِمَّةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ أَعْجَلَ بِالْجَوَابِ حَتَّىٰ أَتَخَيَّرَ؟ فَلِمَ أُلَامُ عَلَىٰ حَبْسِي الْجَوَابَ؟!»[1].

وَمَنْ حَرَصَ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ لَمْ يُقْحِمْ نَفْسَهُ فِي مَا لَا يُحْسِنُ وَمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ، وَمَنْ أَهَمَّهُ قَوْلُ النَّاسِ فِيهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ ظِلٌّ زَائِلٌ وَوَهْمٌ عَابِرٌ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ فَضِيحَتِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ لِيَوْمِ النُّحُوسِ وَيَوْمِ السُّعُودِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومُ فِي الدُّنْيَا مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ إِلَّا سَمَّعَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ»[2]. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ»[3].

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (٢/ ١٦٥).

(٢) «التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ» لِلْحَافِظِ الْمُنْذِرِيِّ، تَعْلِيقُ الشَّيْخِ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس (١/ ٥٢).

(٣) «صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (١/ ١١٨).

فَمَدَارُ الْمَسْأَلَةِ عَلَىٰ هَضْمِ النَّفْسِ، وَإِسْلَامِ الْوَجْهِ لِلَّهِ، وَإِخْلَاصِ الْقَصْدِ لَهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ عَلَىٰ نَفْسِهِ، كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ شَانَهُ اللهُ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي شَرْحِ كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

«هَذَا شَقِيقُ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةِ الْمُحَدَّثِ الْمُلْهَمِ، وَهَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ، وَمَنْ أَحْسَنَ الْإِنْفَاقَ مِنْهُمَا نَفَعَ غَيْرَهُ، وَانْتَفَعَ غَايَةَ الِانْتِفَاعِ: فَأَمَّا الْكَلِمَةُ الْأُولَىٰ فَهِيَ مَنْبَعُ الْخَيْرِ وَأَصْلُهُ.

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ -وَهِيَ قَوْلُهُ: وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ شَانَهُ اللهُ- فَهِيَ أَصْلُ الشَّرِّ وَفَصْلُهُ.

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا خَلُصَتْ نِيَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَكَانَ قَصْدُهُ وَهَمُّهُ وَعَمَلُهُ لِوَجْهِهِ سُبْحَانَهُ كَانَ اللهُ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَرَأْسُ التَّقْوَىٰ وَالْإِحْسَانِ خُلُوصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا غَالِبَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْلِبُهُ أَوْ يَنَالُهُ بِسُوءٍ؟ فَإِنْ كَانَ اللهُ مَعَ الْعَبْدِ فَمَنْ يَخَافُ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فَمَنْ يَرْجُو؟ وَبِمَنْ يَثِقُ؟ وَمَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟

فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ غَيْرِهِ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ أَوَّلًا، وَكَانَ قِيَامُهُ بِاللهِ وَلِلَّهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَادَتْهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ لَكَفَاهُ اللهُ مُؤْنَتَهَا، وَجَعَلَ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ الْعَبْدُ مِنْ تَفْرِيطِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، أَوْ

فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا، أَوْ فِي وَاحِدٍ؛ فَمَنْ كَانَ قِيَامُهُ فِي بَاطِلٍ لَمْ يُنْصَرْ، وَإِنْ نُصِرَ نَصْرًا عَارِضًا فَلَا عَاقِبَةَ لَهُ وَهُوَ مَذْمُومٌ مَخْذُولٌ، وَإِنْ قَامَ فِي حَقٍّ وَلَكِنْ لَمْ يَقُمْ فِيهِ لِلَّهِ وَإِنَّمَا قَامَ لِطَلَبِ الْمَحْمَدَةِ وَالشُّكُورِ وَالْجَزَاءِ مِنَ الْخَلْقِ أَوِ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ أَوَّلًا، وَالْقِيَامُ فِي الْحَقِّ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَمْ تُضْمَنْ لَهُ النُّصْرَةُ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا ضَمِنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، لَا لِمَنْ كَانَ قِيَامُهُ لِنَفْسِهِ وَلِهَوَاهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَلَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَإِنْ نُصِرَ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْصُرُ إِلَّا الْحَقَّ، وَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ مَنْصُورٌ أَبَدًا؛ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُحِقًّا كَانَ مَنْصُورًا لَهُ الْعَاقِبَةُ، وَإِنْ كَانَ مُبْطِلًا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَاقِبَةٌ، وَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ وَلَكِنْ قَامَ بِنَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِاللهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُفَوِّضًا إِلَيْهِ بَرِيًّا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ فَلَهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَضَعْفِ النُّصْرَةِ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَنُكْتَةُ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدَيْنِ فِي أَمْرِ اللهِ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ، وَصَاحِبُهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ وَلَوْ تَوَالَتْ عَلَيْهِ زُمَرُ الْأَعْدَاءِ.

وَالْعَبْدُ إِذَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِ أَمْرٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَوَّلًا هَلْ هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ أَمْ لَا؟

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَاعَةً فَلَا يَفْعَلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُبَاحًا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ، وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ طَاعَةً، فَإِذَا بَانَ لَهُ أَنَّهُ طَاعَةٌ فَلَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَنْظُرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ

عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَانًا عَلَيْهِ فَلَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ.. فَيُذِلَّ نَفْسَهُ، وَإِنْ كَانَ مُعَانًا عَلَيْهِ بَقِيَ عَلَيْهِ نَظَرٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ بَابِهِ؛ فَإِنْ أَتَاهُ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ أَضَاعَهُ أَوْ فَرَّطَ فِيهِ أَوْ أَفْسَدَ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَفَلَاحِهِ، وَهِيَ مَعْنَىٰ قَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦]، فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ، وَأَشْقَاهُمْ مَنْ عَدِمَ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَنَصِيبُهُ مِنْ ﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعْدُومٌ أَوْ ضَعِيفٌ؛ فَهَذَا مَخْذُولٌ مَهِينٌ مَحْزُونٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ ﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَوِيًّا، وَنَصِيبُهُ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضَعِيفًا أَوْ مَفْقُودًا؛ فَهَذَا لَهُ نُفُوذٌ وَتَسَلُّطٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، بَلْ عَاقِبَتُهُ أَسْوَأُ عَاقِبَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَلَكِنْ نَصِيبُهُ مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ ضَعِيفٌ جِدًّا، كَحَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُبَّادِ وَالزُّهَّادِ الَّذِينَ قَلَّ عِلْمُهُمْ بِحَقَائِقِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ.

وَقَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ عَلَىٰ نَفْسِهِ»: إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَكْفِي قِيَامُهُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ إِذَا كَانَ عَلَىٰ غَيْرِهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ أَوَّلَ قَائِمٍ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَحِينَئِذٍ يُقْبَلُ قِيَامُهُ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُقْبَلُ الْحَقُّ مِمَّنْ أَهْمَلَ الْقِيَامَ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ؟!

«وَأَمَّا قَوْلُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**مَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ شَانَهُ اللهُ**»: لَمَّا كَانَ الْمُتَزَيِّنُ بِمَا لَيْسَ

فِيهِ ضِدَّ الْمُخْلِصِ، فَإِنَّهُ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَمْرًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِهِ -عَامَلَهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ- فَإِنَّ الْمُعَاقَبَةَ بِنَقِيضِ الْقَصْدِ ثَابِتَةٌ شَرْعًا وَقَدَرًا، وَلَمَّا كَانَ الْمُخْلِصُ يُعَجَّلُ لَهُ مِنْ ثَوَابِ إِخْلَاصِهِ الْحَلَاوَةُ وَالْمَحَبَّةُ وَالْمَهَابَةُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ: عَجَّلَ لِلْمُتَزَيِّنِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ أَنْ شَانَهُ اللهُ بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُ شَانَ بَاطِنَهُ عِنْدَ اللهِ، وَهَذَا مُوجِبُ أَسْمَاءِ الرَّبِّ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَحِكْمَتُهُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

هَذَا، وَلَمَّا كَانَ مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالدِّينِ وَالنُّسُكِ وَالْعِلْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَدْ نَصَّبَ نَفْسَهُ لِلَوَازِمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُ، فَإِذَا لَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ افْتُضِحَ، فَيَشِينُهُ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ يَزِينُهُ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ أَخْفَىٰ عَنِ النَّاسِ مَا أَظْهَرَ لِلَّهِ خِلَافَهُ، فَأَظْهَرَ اللهُ مِنْ عُيُوبِهِ لِلنَّاسِ مَا أَخْفَاهُ عَنْهُمْ، جَزَاءً لَهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، قَالُوا: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَىٰ الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبَ غَيْرَ خَاشِعٍ، وَأَسَاسُ النِّفَاقِ وَأَصْلُهُ هُوَ التَّزَيُّنُ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي الْبَاطِنِ مِنَ الْإِيمَانِ.

فَعُلِمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُشْتَقَّتَانِ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، وَهُمَا مِنْ أَنْفَعِ الْكَلَامِ وَأَشْفَاهُ لِلسِّقَامِ»[١].

وَكَمَا أَنَّ التَّسَاهُلَ فِي الْفَتْوَىٰ مِمَّا يَحْرُمُ عَلَىٰ الْمُفْتِي أَنْ يَفْعَلَهُ، فَكَذَلِكَ

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» (٢/ ١٧٨).

يَحْرُمُ عَلَىٰ الْمُسْتَفْتِي أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مُتَوَقِّيًا فِي دِينِهِ.

«يَحْرُمُ التَّسَاهُلُ فِي الْفَتْوَىٰ وَاسْتِفْتَاءُ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ، إِمَّا لِتَسَرُّعِهِ قَبْلَ تَمَامِ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ، أَوْ لِظَنِّهِ أَنَّ الْإِسْرَاعَ بَرَاعَةٌ، وَتَرْكَهُ عَجْزٌ، فَإِنْ سَبَقَتْ مَعْرِفَتُهُ لِمَا سُئِلَ عَنْهُ قَبْلَ السُّؤَالِ فَأَجَابَ سَرِيعًا جَازَ»[١].

وَكَانَ مِنْ شَأْنِ السَّلَفِ ﷺ أَنْ يَتَبَيَّنُوا صِدْقَ السَّائِلِ فِي مَسْأَلَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْأَلُ مُتَعَنِّتًا وَلَا مُغَالِطًا، وَأَنَّهُ صَاحِبُ حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ فِيمَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَإِنْ تَبَيَّنُوا ذَلِكَ أَفْتَوْا بِمَا يَعْلَمُونَ، وَإِلَّا أَحَالُوا عَلَىٰ مَنْ يَعْلَمُ.

«كَانَ أَيُّوبُ إِذَا سَأَلَهُ السَّائِلُ، قَالَ لَهُ: أَعِدْ، فَإِنْ أَعَادَ السُّؤَالَ كَمَا سَأَلَهُ عَنْهُ أَوَّلًا أَجَابَهُ، وَإِلَّا لَمْ يُجِبْهُ، وَهَذَا مِنْ فَهْمِهِ وَفِطْنَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

*** وَفِي ذَلِكَ فَوَائِدُ عَدِيدَةٌ:**

مِنْهَا: أَنَّ الْمَسْأَلَةَ تَزْدَادُ وُضُوحًا وَبَيَانًا بِتَفَهُّمِ السُّؤَالِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ السَّائِلَ لَعَلَّهُ أَهْمَلَ فِيهَا أَمْرًا يَتَغَيَّرُ الْحُكْمُ بِهِ، فَإِذَا أَعَادَهَا رُبَّمَا بَيَّنَهُ لَهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَسْئُولَ قَدْ يَكُونُ ذَاهِلًا عَنِ السُّؤَالِ أَوَّلًا، ثُمَّ يَحْضُرُ ذِهْنُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ رُبَّمَا بَانَ لَهُ تَعَنُّتُ السَّائِلِ وَأَنَّهُ وَضَعَ الْمَسْأَلَةَ، فَإِذَا غَيَّرَ السُّؤَالَ

---

(١) «صِفَةُ الْفَتْوَىٰ» (ص٣١).

وَزَادَ فِيهِ وَنَقَصَ فَرُبَّمَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَأَنَّهَا مِنَ الْأُغْلُوطَاتِ، أَوْ غَيْرِ الْوَاقِعَاتِ الَّتِي لَا يَجِبُ الْجَوَابُ عَنْهَا، فَإِنَّ الْجَوَابَ بِالظَّنِّ إِنَّمَا يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، فَإِنْ وَقَعَتِ الْمَسْأَلَةُ صَارَتْ حَالَ ضَرُورَةٍ، فَيَكُونُ التَّوْفِيقُ إِلَىٰ الصَّوَابِ أَقْرَبَ»(١).

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ ابْنِ هُرْمُزَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيَسْأَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ فَيُخْبِرُهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ فِي أَثَرِهِ مَنْ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُ: إِنِّي قَدْ عَجِلْتُ فَلَا تَقْبَلْ شَيْئًا مِمَّا قُلْتُ لَكَ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَيَّ، قَالَ: وَكَانَ قَلِيلًا مَنْ يُفْتِي مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، قَالَ مَالِكٌ: وَلَيْسَ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ كَمَنْ لَا يَخْشَاهُ»(٢).

وَكُلُّ مَا مَرَّ مِنْ ضَرُورَةِ التَّثَبُّتِ فِي الْجَوَابِ، وَعَدَمِ التَّسَرُّعِ فِي الْفَتْوَىٰ إِلَّا أَنْ تَدْعُوَ ضَرُورَةٌ شَرْعِيَّةٌ، يَجِبُ أَلَّا يُؤَدِّيَ إِلَىٰ كِتْمَانِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْكِتْمَانَ شَدِيدُ الْخَطَرِ.

وَقَدْ نَهَىٰ الشَّرْعُ الْكَرِيمُ عَنْ كَتْمِ الْعِلْمِ نَهْيًا أَكِيدًا، وَتَوَعَّدَ عَلَىٰ الْكِتْمَانِ مَنْ كَتَمَهُ وَعِيدًا شَدِيدًا، وَفَهِمَ السَّابِقُونَ هَذَا النَّهْيَ عَلَىٰ وَجْهِهِ اللَّيِّقِ بِهِ، وَأَنْزَلُوهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي هِيَ لَهُ، فَلَمْ يَضَعُوا عِلْمَهُمْ إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ، وَلَمْ يَكْتُمُوا الْعِلْمَ طَالِبَ عِلْمٍ جَدِيرًا بِهِ.

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» (٢/ ١٨٧).

(٢) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» (٢/ ١٦٩).

قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَد شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَبْلِيغُ الْعِلْمِ وَاجِبٌ، وَلَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، وَلَكِنَّهُمْ خَصَّصُوا ذَلِكَ بِأَهْلِهِ، وَأَجَازُوا كِتْمَانَهُ عَمَّنْ لَا يَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِأَخْذِهِ وَعَمَّنْ يُصِرُّ عَلَىٰ الْخَطَأِ بَعْدَ إِخْبَارِهِ بِالصَّوَابِ»(١)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ، وَكَذَلِكَ الْأَلْبَانِيُّ(٢).

•••

(١) «الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ» لِلشَّيْخِ أَحْمَد شَاكِر (ص١٣٣).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ (٩٦)، وَالْحَاكِمُ (١/ ١٠٢)، وَقَالَ: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ الْمِصْرِيِّينَ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ»، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَحْمَد شَاكِر فِي تَعْلِيقِهِ عَلَىٰ «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ» (١/ ٢٥٧): «وَنَأْخُذُ عَلَيْهِمَا -أَيِ: الْحَاكِمِ وَالذَّهَبِيِّ- أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَيَّاشٍ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ شَيْئًا وَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَالْحَدِيثُ عَلَىٰ شَرْطِهِ وَحْدَهُ، وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْمُنْذِرِيُّ فِي «التَّرْغِيبِ» وَنَسَبَهُ لِابْنِ حِبَّانَ وَالْحَاكِمِ فَقَطْ، وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١/ ١٦٣)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَ«الْأَوْسَطِ» وَرِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ.

١٣-التَّحَاسُدُ وَالْحِقْدُ

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي تَعْرِيفِ الْحَسَدِ: إِنَّهُ أَذًىٰ يَلْحَقُ بِسَبَبِ الْعِلْمِ بِحُسْنِ حَالِ الْأَغْنِيَاءِ.

وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّهُ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ، وَإِنْ لَمْ يَصِرْ لِلْحَاسِدِ مِثْلُهَا، بِخِلَافِ الْغِبْطَةِ فَإِنَّهَا تَمَنِّي مِثْلِهَا، مِنْ غَيْرِ حُبِّ زَوَالِهَا عَنِ الْمَغْبُوطِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْحَسَدَ هُوَ الْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ حُسْنِ حَالِ الْمَحْسُودِ[١].

فَالْحَسَدُ هُوَ كَرَاهَةُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ، وَلَيْسَ تَمَنِّيَ زَوَالِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ الْغَيْرِ، بَلْ هُوَ مُجَرَّدُ أَنْ يَكْرَهَ الْإِنْسَانُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَهَذَا هُوَ الْحَسَدُ، سَوَاءٌ تَمَنَّىٰ زَوَالَهُ، أَوْ أَنْ يَبْقَىٰ، وَلَكِنَّهُ كَارِهٌ لَهُ.

وَأَمَّا الْحِقْدُ فَهُوَ رَذِيلَةٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ ثَمَرَةُ الْغَضَبِ، وَهُوَ يُثْمِرُ الْحَسَدَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الشَّرُّ مِنْ أَقْطَارِهِ.

«الْغَضَبُ إِذَا لَزِمَ كَظْمُهُ لِعَجْزٍ عَنِ التَّشَفِّي فِي الْحَالِ، رَجَعَ إِلَىٰ الْبَاطِنِ

(١) «أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَشِفَاؤُهَا» لِابْنِ تَيْمِيَةَ (ص١٤).

وَاحْتُقِنَ فِيهِ فَصَارَ حِقْدًا، وَمَعْنَىٰ الْحِقْدِ: أَنْ يُلْزِمَ قَلْبَهُ اسْتِثْقَالَهُ وَالْبِغْضَةَ لَهُ، وَالنِّفَارَ عَنْهُ، وَأَنْ يَدُومَ ذَلِكَ وَيَبْقَىٰ، فَالْحِقْدُ ثَمَرَةُ الْغَضَبِ»(١).

قَالَ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ بَعْضِ أَخْلَاقِ الْيَهُودِ الَّتِي تَقَرَّحَتْ مِنْهَا قُلُوبُهُمْ، وَنَضَحَتْ بِهَا جَوَارِحُهُمْ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٤-٥٥].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودَ، ﴿ٱلنَّاسَ﴾، يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ خَاصَّةً، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا: حَسَدُوهُ عَلَىٰ النُّبُوَّةِ، وَأَصْحَابَهُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: «النَّاسُ» الْعَرَبُ، حَسَدَتْهُمُ الْيَهُودُ عَلَىٰ النُّبُوَّةِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: حَسَدَتِ الْيَهُودُ قُرَيْشًا؛ لِأَنَّ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ.

وَالْحَسَدُ مَذْمُومٌ وَصَاحِبُهُ مَغْمُومٌ، قَالَ الْحَسَنُ: مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنْ حَاسِدٍ، نَفَسٌ دَائِمٌ، وَحُزْنٌ لَازِمٌ، وَعَبْرَةٌ لَا تَنْفَدُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَا تُعَادُوا نِعَمَ اللهِ، قِيلَ لَهُ: وَمَنْ يُعَادِي نِعَمَ اللهِ؟! قَالَ: الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، يَقُولُ اللهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: الْحَسُودُ عَدُوُّ نِعْمَتِي، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي غَيْرُ رَاضٍ بِقِسْمَتِي.

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ٧٦).

وَلِمَنْصُورٍ الْفَقِيهِ:

أَلَا قُـلْ لِمَـنْ ظَـلَّ لِـي حَاسِـدًا ... أَتَـدْرِي عَلَـىٰ مَـنْ أَسَـأْتَ الْأَدَبْ؟!
أَسَـأْتَ عَلَـىٰ اللهِ فِـي حُكْمِـهِ ... إِذَا أَنْـتَ لَـمْ تَـرْضَ لِـي مَـا وَهَـبْ

وَيُقَالُ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ بِهِ اللهُ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا فِي السَّمَاءِ: فَحَسَدُ إِبْلِيسَ لِآدَمَ، وَأَمَّا فِي الْأَرْضِ: فَحَسَدُ قَابِيلَ لِهَابِيلَ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

اصْـبِرْ عَلَـىٰ كَيْـدِ الْحَسُـو ... دِ فَـإِنَّ صَـبْرَكَ قَاتِلُـهْ
فَالنَّـارُ تَأْكُـلُ بَعْضَـهَا ... إِنْ لَـمْ تَجِـدْ مَـا تَأْكُلُـهْ

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْغُـرَابَ وَكَـانَ يَمْشِـي مِشْـيَةً ... فِيمَـا مَضَـىٰ مِـنْ سَـالِفِ الْأَحْـوَالِ
حَسَدَ الْقَطَاةَ فَرَامَ يَمْشِي مَشْيَهَا ... فَأَصَـابَهُ ضَـرْبٌ مِـنَ التَّعْقَـالِ[1]

*** حَالَاتُ الْإِنْسَانِ مَعَ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ:**

«لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ نِعْمَةٍ؛ فَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ أَخِيكَ بِنِعْمَةٍ؛ فَلَكَ فِيهَا حَالَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ تَكْرَهَ تِلْكَ النِّعْمَةَ وَتُحِبَّ زَوَالَهَا، وَهَذِهِ الْحَالَةُ تُسَمَّىٰ حَسَدًا،

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٥/ ٢٥٢).

فَالْحَسَدُ حَدُّهُ: كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ وَحُبُّ زَوَالِهَا عَنِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ(١).

الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: أَلَّا تُحِبَّ زَوَالَهَا وَلَا تَكْرَهَ وُجُودَهَا وَدَوَامَهَا، وَلَكِنْ تَشْتَهِي لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا، وَهَذِهِ تُسَمَّىٰ غِبْطَةً، وَقَدْ تَخْتَصُّ بِاسْمِ الْمُنَافَسَةِ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ، إِلَّا نِعْمَةً أَصَابَهَا فَاجِرٌ أَوْ كَافِرٌ وَهُوَ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَىٰ تَهْيِيجِ الْفِتْنَةِ، وَإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَإِيذَاءِ الْخَلْقِ، فَلَا يَضُرُّكَ كَرَاهَتُكَ لَهَا، وَمَحَبَّتُكَ لِزَوَالِهَا، فَإِنَّكَ لَا تُحِبُّ زَوَالَهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ نِعْمَةٌ، بَلْ مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِلْفَسَادِ.

وَأَمَّا الْمُنَافَسَةُ: فَلَيْسَتْ بِحَرَامٍ، بَلْ هِيَ إِمَّا وَاجِبَةٌ، وَإِمَّا مَنْدُوبَةٌ، وَإِمَّا مُبَاحَةٌ.

وَالْمُنَافَسَةُ فِي اللُّغَةِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ النَّفَاسَةِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ إِبَاحَةِ الْمُنَافَسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، وَإِنَّمَا الْمُسَابَقَةُ عِنْدَ خَوْفِ الْفَوْتِ، وَهُوَ كَالْعَبْدَيْنِ يَتَسَابَقَانِ إِلَىٰ خِدْمَةِ مَوْلَاهُمَا، يَجْزَعُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ يَسْبِقَهُ صَاحِبُهُ فَيَحْظَىٰ عِنْدَ مَوْلَاهُ بِمَنْزِلَةٍ لَا يَحْظَىٰ هُوَ بِهَا»(٢).

وَلَكِنَّ الْمُنَافَسَةَ الْمَشْرُوعَةَ وَالْحَسَدَ الْمَذْمُومَ قَدْ يَشْتَبِهَانِ فِي نَظَرِ النَّاظِرِ؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا دَقِيقٌ رَقِيقٌ، وَقَدْ يَلْتَبِسُ الْأَمْرُ عَلَىٰ طَلَبَةِ الْعِلْمِ فَيَتَحَاسَدُونَ

---

(١) الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ: أَنَّ الْحَسَدَ: هُوَ كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ عَلَىٰ أَخِيكَ.

(٢) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ٧٩).

بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَظُنُّونَهَا مُنَافَسَةً مَحْمُودَةً، وَسَعْيًا مَشْرُوعًا، فَلَزِمَ بَيَانُ مَا بَيْنَ الْمُنَافَسَةِ الْمَشْرُوعَةِ وَالْحَسَدِ الْمَذْمُومِ مِنْ فَرْقٍ.

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ:**

الْمُنَافَسَةُ هِيَ الْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ الْكَمَالِ الَّذِي تُشَاهِدُ مِنْ غَيْرِكَ فَتُنَافِسُهُ فِيهِ حَتَّىٰ تَلْحَقَهُ أَوْ تُجَاوِزَهُ، فَهِيَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَكِبَرِ الْقَدْرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وَأَصْلُهَا مِنَ الشَّيْءِ النَّفِيسِ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ النُّفُوسُ طَلَبًا وَرَغْبَةً، فَيُنَافِسُ فِيهِ كُلٌّ مِنَ النَّفْسَيْنِ الْأُخْرَىٰ، وَرُبَّمَا فَرِحَتْ إِذَا شَارَكَتْهَا فِيهِ كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَيَفْرَحُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِاشْتِرَاكِهِمْ فِيهِ، بَلْ يَحُضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ مَعَ تَنَافُسِهِمْ فِيهِ، وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الْمُسَابَقَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُسَابِقُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَلَمْ يَظْفَرْ بِسَبْقِهِ أَبَدًا، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ قَدِ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الْإِمَامَةِ قَالَ: «وَاللهِ لَا أُسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا، وَقَالَ: وَاللهِ مَا سَابَقْتُهُ إِلَىٰ خَيْرٍ إِلَّا وَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ».

وَالْمُتَنَافِسَانِ كَعَبْدَيْنِ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِمَا يَتَبَارَيَانِ وَيَتَنَافَسَانِ فِي مَرْضَاتِهِ

وَيَتَسَابَقَانِ إِلَىٰ مَحَابِّهِ، فَسَيِّدُهُمَا يُعْجِبُهُ ذَلِكَ مِنْهُمَا وَيَحُثُّهُمَا عَلَيْهِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُحِبُّ الْآخَرَ وَيُحَرِّضُهُ عَلَىٰ مَرْضَاةِ سَيِّدِهِ.

وَالْحَسَدُ خُلُقُ نَفْسٍ ذَمِيمَةٍ وَضِيعَةٍ سَاقِطَةٍ لَيْسَ فِيهَا حِرْصٌ عَلَىٰ الْخَيْرِ، فَلِعَجْزِهَا وَمَهَانَتِهَا تَحْسُدُ مَنْ يَكْسِبُ الْخَيْرَ وَالْمَحَامِدَ وَيَفُوزُ بِهَا دُونَهَا، وَتَتَمَنَّىٰ أَنْ لَوْ فَاتَهُ كَسْبُهَا حَتَّىٰ يُسَاوِيَهَا فِي الْعَدَمِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء:٨٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة:١٠٩].

فَالْحَسُودُ عَدُوُّ النِّعْمَةِ، مُتَمَنٍّ زَوَالَهَا عَنِ الْمَحْسُودِ كَمَا زَالَتْ عَنْهُ هُوَ، وَالْمُنَافِسُ مُسَابِقُ النِّعْمَةِ مُتَمَنٍّ تَمَامَهَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ مَنْ يُنَافِسُهُ، فَهُوَ يُنَافِسُ غَيْرَهُ أَنْ يَعْلُوَ عَلَيْهِ وَيُحِبَّ لَحَاقَهُ بِهِ أَوْ مُجَاوَزَتَهُ لَهُ فِي الْفَضْلِ، وَالْحَسُودُ يُحِبُّ انْحِطَاطَ غَيْرِهِ حَتَّىٰ يُسَاوِيَهُ فِي النُّقْصَانِ.

وَأَكْثَرُ النُّفُوسِ الْفَاضِلَةِ الْخَيِّرَةِ تَنْتَفِعُ بِالْمُنَافَسَةِ فَمَنْ جَعَلَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ شَخْصًا مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالسَّبْقِ فَنَافَسَهُ انْتَفَعَ بِهِ كَثِيرًا، فَإِنَّهُ يَتَشَبَّهُ بِهِ وَيَطْلُبُ اللَّحَاقَ بِهِ وَالتَّقَدُّمَ عَلَيْهِ وَهَذَا لَا نَذُمُّهُ.

وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْحَسَدِ عَلَىٰ الْمُنَافَسَةِ الْمَحْمُودَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ**

آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ»(١) فَهَذَا حَسَدُ مُنَافَسَةٍ وَغِبْطَةٍ يَدُلُّ عَلَىٰ عُلُوِّ هِمَّةِ صَاحِبِهِ، وَكِبَرِ نَفْسِهِ، وَطَلَبِهَا لِلتَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ(٢).

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**لَا حَسَدَ**» الْحَسَدُ: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِأَنْ يَتَمَنَّىٰ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَعَمُّ، وَسَبَبُهُ أَنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ حُبِّ التَّرَفُّعِ عَلَىٰ الْجِنْسِ، فَإِذَا رَأَىٰ لِغَيْرِهِ مَا لَيْسَ لَهُ أَحَبَّ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ عَنْهُ لَهُ؛ لِيَرْتَفِعَ عَلَيْهِ، أَوْ مُطْلَقًا لِيُسَاوِيَهُ.

وَصَاحِبُهُ مَذْمُومٌ إِذَا عَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ مِنْ تَصْمِيمٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَيَنْبَغِي لِمَنْ خَطَرَ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَكْرَهَهُ كَمَا يَكْرَهُ مَا وُضِعَ فِي طَبْعِهِ مِنْ حُبِّ الْمَنْهِيَّاتِ.

وَاسْتَثْنَوْا مِنْ ذَلِكَ مَا إِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ لِكَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَىٰ مَعَاصِي اللهِ تَعَالَىٰ، فَهَذَا حُكْمُ الْحَسَدِ بِحَسَبِ حَقِيقَتِهِ.

وَأَمَّا الْحَسَدُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ فَهُوَ الْغِبْطَةُ، وَأُطْلِقَ الْحَسَدُ عَلَيْهَا مَجَازًا، وَهِيَ أَنْ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مَا لِغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ عَنْهُ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ هَذَا يُسَمَّىٰ مُنَافَسَةً، فَإِنْ كَانَ فِي الطَّاعَةِ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَمِنْهُ: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ مَذْمُومٌ وَمِنْهُ:

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْهَا (٧٠٩٠)، وَمُسْلِمٌ (٨١٥).
(٢) «الرُّوحُ» (ص٣٣٩).

«وَلَا تَنَافَسُوا» وَإِنْ كَانَ فِي الْجَائِزَاتِ فَهُوَ مُبَاحٌ.

فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: لَا غِبْطَةَ أَعْظَمَ -أَوْ أَفْضَلَ- مِنَ الْغِبْطَةِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَوَجْهُ الْحَصْرِ أَنَّ الطَّاعَاتِ إِمَّا بَدَنِيَّةٌ أَوْ مَالِيَّةٌ أَوْ كَائِنَةٌ عَنْهُمَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ الْبَدَنِيَّةِ بِإِتْيَانِ الْحِكْمَةِ وَالْقَضَاءِ بِهَا وَتَعْلِيمِهَا، وَالْمُرَادُ بِالْقِيَامِ بِهِ: الْعَمَلُ بِهِ مُطْلَقًا، أَعَمُّ مِنْ تِلَاوَتِهِ دَاخِلَ الصَّلَاةِ أَوْ خَارِجَهَا وَمِنْ تَعْلِيمِهِ، وَالْحُكْمُ وَالْفَتْوَىٰ بِمُقْتَضَاهُ.

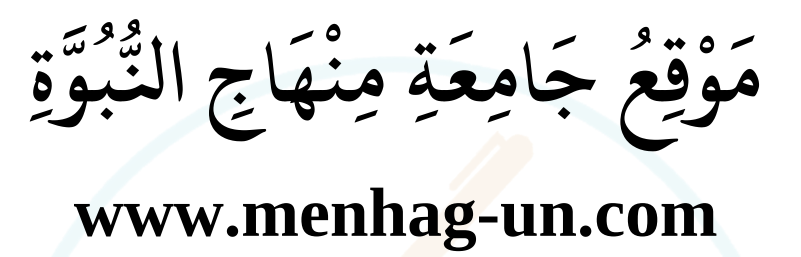
وَيَجُوزُ حَمْلُ الْحَسَدِ فِي الْحَدِيثِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ عَلَىٰ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ، وَالتَّقْدِيرُ نَفْيُ الْحَسَدِ مُطْلَقًا، لَكِنْ هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ مَحْمُودَتَانِ، وَلَا حَسَدَ فِيهِمَا فَلَا حَسَدَ أَصْلًا.

⦿ ⦿ ⦿





جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الْعَاشِرَة


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الْآفَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ: التَّحَاسُدُ وَالْحِقْدُ

قَوْلُهُ ﷺ: «**مَالًا**» نَكِرَةٌ لِيَشْمَلَ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ.

قَوْلُهُ: «**فَسَلَّطَهُ**» عَبَّرَ بِالتَّسْلِيطِ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ قَهْرِ النَّفْسِ الْمَجْبُولَةِ عَلَىٰ الشُّحِّ.

قَوْلُهُ: «**هَلَكَتِهِ**» -بِفَتْحِ اللَّامِ وَالْكَافِ- أَيْ: إِهْلَاكَهُ، وَعَبَّرَ بِذَلِكَ؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا، وَكَمَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «**فِي الْحَقِّ**»، أَيْ: فِي الطَّاعَاتِ لِيُزِيلَ عَنْهُ إِيهَامَ الْإِسْرَافِ الْمَذْمُومِ»(١).

فَالْغِبْطَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا الْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- هِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا بَعْضُ النَّاسِ تَنَافُسًا، وَقَدْ فَرَّقَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ كَمَا رَأَيْتَ قَبْلُ.

وَقَسَّمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَاتَ التَّقْسِيمِ فَقَالَ: «وَهُوَ -أَيِ: الْحَسَدُ- نَوْعَانِ:

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (١/ ٢٠٠).

أَحَدُهُمَا: كَرَاهَةٌ لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِ مُطْلَقًا فَهَذَا هُوَ الْحَسَدُ الْمَذْمُومُ، وَإِذَا أَبْغَضَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَتَأَلَّمُ وَيَتَأَذَّىٰ بِوُجُودِ مَا يُبْغِضُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مَرَضًا فِي قَلْبِهِ وَيَلْتَذُّ بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ نَفْعٌ بِزَوَالِهَا؛ لَكِنَّ نَفْعَهُ زَوَالُ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: أَنْ يَكْرَهَ فَضْلَ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَلَيْهِ فَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ فَهَذَا حَسَدٌ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّوْهُ الْغِبْطَةَ، وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَسَدًا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ**». هَذَا لَفْظُ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَلَفْظُ ابْنِ عُمَرَ: «**رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ فِي الْحَقِّ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**».

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحَاسُدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَقُولُ لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ**».

فَهَذَا الْحَسَدُ الَّذِي نَهَىٰ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ، هُوَ الَّذِي سَمَّوْهُ غِبْطَةً، وَهُوَ أَنْ يُحِبَّ مِثْلَ حَالِ الْغَيْرِ وَيَكْرَهَ أَنْ يَفْضُلَ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَنْ لِمَ سُمِّيَ حَسَدًا، وَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْهِ؟

قِيلَ: مَبْدَأُ هَذَا الْحُبِّ هُوَ نَظَرُهُ إِلَىٰ إِنْعَامِهِ عَلَىٰ الْغَيْرِ، وَكَرَاهَتُهُ أَنْ يَفْضُلَ عَلَيْهِ، وَلَوْلَا وُجُودُ ذَلِكَ الْغَيْرِ لَمْ يُحِبَّ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ مَبْدَأُ ذَلِكَ كَرَاهَتَهُ أَنْ يَفْضُلَ عَلَيْهِ الْغَيْرُ كَانَ حَسَدًا؛ لِأَنَّهُ كَرَاهَةٌ تَتْبَعُهَا مَحَبَّةٌ، وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ الْتِفَاتِهِ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فَهَذَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْحَسَدِ شَيْءٌ.

وَلِهَذَا يُبْتَلَىٰ غَالِبُ النَّاسِ بِهَذَا الْقِسْمِ الثَّانِي، وَقَدْ يُسَمَّىٰ «الْمُنَافَسَةَ» فَيَتَنَافَسُ الِاثْنَانِ فِي الْأَمْرِ الْمَحْبُوبِ الْمَطْلُوبِ، كِلَاهُمَا يَطْلُبُ أَنْ يَأْخُذَهُ، وَذَلِكَ لِكَرَاهِيَةِ أَحَدِهِمَا أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ الْآخَرُ، كَمَا يَكْرَهُ الْمُسْتَبِقَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنْ يَسْبِقَهُ الْآخَرُ.

وَالتَّنَافُسُ لَيْسَ مَذْمُومًا مُطْلَقًا، بَلْ هُوَ مَحْمُودٌ فِي الْخَيْرِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]، فَأُمِرَ الْمُنَافِسُ أَنْ يُنَافِسَ فِي هَذَا النَّعِيمِ لَا يُنَافِسُ فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ[١].

وَهَذَا مُوَافِقٌ لِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ نَهَىٰ عَنِ الْحَسَدِ إِلَّا فِيمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ، وَمَنْ أُوتِيَ الْمَالَ فَهُوَ يُنْفِقُهُ.

---

(١) «أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَشِفَاؤُهَا» لِابْنِ تَيْمِيَةَ (ص١٤).

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ عِلْمًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَلَمْ يُعَلِّمْهُ، أَوْ أُوتِيَ مَالًا وَلَمْ يُنْفِقْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ فَهَذَا لَا يُحْسَدُ وَلَا يُتَمَنَّىٰ مِثْلُ حَالِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي خَيْرٍ يُرْغَبُ فِيهِ بَلْ هُوَ مُعَرَّضٌ لِلْعَذَابِ.

وَمَنْ وَلِيَ وِلَايَةً فَيَأْتِيهَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ أَدَّىٰ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهَذَا دَرَجَتُهُ عَظِيمَةٌ؛ لَكِنَّ هَذَا فِي جِهَادٍ عَظِيمٍ، كَذَلِكَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يُنْفِقُ الْمَالَ؛ بِخِلَافِ الْمُنْفِقِ وَالْمُعَلِّمِ فَإِنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْعَادَةِ عَدُوٌّ مِنْ خَارِجٍ، فَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُمَا لَهُمَا عَدُوٌّ يُجَاهِدَانِهِ فَذَلِكَ أَفْضَلُ لِدَرَجَتِهِمَا، وَكَذَلِكَ لَمْ يَذْكُرِ النَّبِيُّ ﷺ الْمُصَلِّيَ وَالصَّائِمَ وَالْحَاجَّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ لَا يَحْصُلُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ مِنْ نَفْعِ النَّاسِ الَّذِي يُعَظِّمُونَ بِهِ الشَّخْصَ وَيُسَوِّدُونَهُ مَا يَحْصُلُ بِالتَّعْلِيمِ وَالْإِنْفَاقِ.

وَالْحَسَدُ فِي الْأَصْلِ إِنَّمَا يَقَعُ لِمَا يَحْصُلُ لِلْغَيْرِ مِنَ السُّؤْدُدِ وَالرِّيَاسَةِ، وَإِلَّا فَالْعَامِلُ لَا يُحْسَدُ فِي الْعَادَةِ، وَلَوْ كَانَ تَنَعُّمُهُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنِّكَاحِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ فَإِنَّهُمَا يُحْسَدَانِ كَثِيرًا، وَلِهَذَا يُوجَدُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ مِنَ الْحَسَدِ مَا لَا يُوجَدُ فِيمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَكَذَلِكَ فِيمَنْ لَهُ أَتْبَاعٌ بِسَبَبِ إِنْفَاقِ مَالِهِ، فَهَذَا يَنْفَعُ النَّاسَ بِقُوتِ الْقُلُوبِ، وَهَذَا يَنْفَعُهُمْ بِقُوتِ الْأَبْدَانِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ مَا يُصْلِحُهُمْ مِنْ هَذَا وَهَذَا.

وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ يُعَظِّمُونَ دَارَ الْعَبَّاسِ: كَانَ عَبْدُ اللهِ يُعَلِّمُ النَّاسَ، وَأَخُوهُ يُطْعِمُ النَّاسَ، فَكَانُوا يُعَظِّمُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَرَأَىٰ مُعَاوِيَةُ النَّاسَ يَسْأَلُونَ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الْمَنَاسِكِ وَهُوَ يُفْتِيهِمْ فَقَالَ: هَذَا وَاللهِ الشَّرَفُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

هَذَا، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَافَسَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْإِنْفَاقَ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»**. قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَىٰ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»**. قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا».

وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَنَحْوُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، كَانُوا سَالِمِينَ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَكَانُوا أَرْفَعَ دَرَجَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ مُنَافَسَةٌ وَغِبْطَةٌ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُبَاحًا، وَلِهَذَا اسْتَحَقَّ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَكُونَ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ الْمُؤْتَمَنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ مُزَاحَمَةٌ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا اؤْتُمِنَ عَلَيْهِ كَانَ أَحَقَّ بِالْأَمَانَةِ مِمَّنْ يُخَافُ مُزَاحَمَتُهُ؛ وَلِهَذَا يُؤْتَمَنُ عَلَىٰ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ الْخِصْيَانُ، وَيُؤْتَمَنُ عَلَىٰ الْوِلَايَةِ الصُّغْرَىٰ مَنْ يُعْرَفُ أَنَّهُ لَا يُزَاحِمُ عَلَىٰ الْكُبْرَىٰ، وَيُؤْتَمَنُ عَلَىٰ الْمَالِ مَنْ يُعْرَفُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي أَخْذِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ مَنْ فِي نَفْسِهِ خِيَانَةٌ شُبِّهَ بِالذِّئْبِ الْمُؤْتَمَنِ عَلَىٰ الْغَنَمِ، فَلَا يُقَدَّرُ أَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فِي ذَلِكَ؛ لِمَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الطَّلَبِ لِمَا اؤْتُمِنَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؛ أَيْ: مِمَّا أُوتِيَ إِخْوَانُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً -أَيْ: حَسَدًا وَغَيْظًا- مِمَّا أُوتِيَ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ مَالِ الْفَيْءِ، وَقِيلَ: مِنَ الْفَضْلِ وَالتَّقَدُّمِ، فَهُمْ لَا يَجِدُونَ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا مِنَ الْمَالِ وَلَا مِنَ الْجَاهِ، وَالْحَسَدُ يَقَعُ عَلَىٰ هَذَا.

وَكَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مُنَافَسَةٌ عَلَىٰ الدِّينِ فَكَانَ هَؤُلَاءِ إِذَا فَعَلُوا مَا يَفْضُلُونَ بِهِ عِنْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ أَحَبَّ الْآخَرُونَ أَنْ يَفْعَلُوا نَظِيرَ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَافَسَةٌ فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وَأَمَّا الْحَسَدُ الْمَذْمُومُ كُلُّهُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ فِي حَقِّ الْيَهُودِ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]؛ وَيَوَدُّونَ: أَيْ: يَتَمَنَّوْنَ ارْتِدَادَكُمْ حَسَدًا، فَجَعَلَ الْحَسَدَ هُوَ الْمُوجِبَ لِذَلِكَ الْوُدِّ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّكُمْ قَدْ حَصَلَ لَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ مَا حَصَلَ -بَلْ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مِثْلُهُ- حَسَدُوكُمْ»[1].

وَهُنَاكَ تَقْسِيمٌ آخَرُ لِلْحَسَدِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْمَدْحِ وَالْقَدْحِ، أَيْ: عَلَىٰ مَا يُنْدَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ وَمَا لَا يُنْدَبُ، تَقَسَّمَ فِيهِ الْحَسَدُ إِلَىٰ مَرَاتِبَ أَرْبَعٍ:

---

(١) «أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَشِفَاؤُهَا» لِابْنِ تَيْمِيَةَ (ص١٤).

الْأُولَىٰ: أَنْ يُحِبَّ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْخُبْثِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُحِبَّ زَوَالَ النِّعْمَةِ إِلَيْهِ؛ لِرَغْبَتِهِ فِي تِلْكَ النِّعْمَةِ، مِثْلَ رَغْبَتِهِ فِي دَارٍ حَسَنَةٍ، أَوِ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، أَوْ وِلَايَةٍ نَافِذَةٍ، أَوْ سَعَةٍ نَالَهَا غَيْرُهُ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ.

الثَّالِثَةُ: أَلَّا يَشْتَهِيَ عَيْنَهَا لِنَفْسِهِ، بَلْ يَشْتَهِي مِثْلَهَا، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ مِثْلِهَا أَحَبَّ زَوَالَهَا، كَيْ لَا يَظْهَرَ التَّفَاوُتُ بَيْنَهُمَا.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يَشْتَهِيَ لِنَفْسِهِ مِثْلَهَا، فَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ فَلَا يُحِبُّ زَوَالَهَا عَنْهُ.

وَهَذَا الْأَخِيرُ هُوَ الْمَعْفُوُّ عَنْهُ إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ فِي الدِّينِ، وَالثَّالِثَةُ فِيهَا مَذْمُومٌ وَغَيْرُ مَذْمُومٍ، وَالثَّانِيَةُ أَخَفُّ مِنَ الثَّالِثَةِ، وَالْأُولَىٰ مَذْمُومٌ مَحْضٌ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحَاسِدُ الْمُبْغِضُ لِلنِّعْمَةِ عَلَىٰ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا ظَالِمٌ مُعْتَدٍ، وَالْكَارِهُ لِتَفْضِيلِهِ، الْمُحِبُّ لِمُمَاثَلَتِهِ، مَنْهِيٌّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَإِذَا أَحَبَّ أَنْ يُعْطَىٰ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَإِعْرَاضُ قَلْبِهِ عَنْ هَذَا بِحَيْثُ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ حَالِ الْغَيْرِ أَفْضَلُ».

ثُمَّ هَذَا الْعَمَلُ إِنْ عَمِلَ بِمُوجَبِهِ صَاحِبُهُ كَانَ ظَالِمًا مُعْتَدِيًا مُسْتَحِقًّا لِلْعُقُوبَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَكَانَ الْمَحْسُودُ مَظْلُومًا مَأْمُورًا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَىٰ، فَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَىٰ الْحَاسِدِ وَيَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم

مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة:١٠٩].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْحَسَدَ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفْسِ، وَهُوَ مَرَضٌ غَالِبٌ فَلَا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ، لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ، وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ.

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ فَقَالَ: مَا أَنْسَاكَ إِخْوَةَ يُوسُفَ لَا أَبَا لَكَ؟ وَلَكِنْ عَمِّهِ فِي صَدْرِكَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا لَمْ تُعَدِّ بِهِ يَدًا وَلِسَانًا، فَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ حَسَدًا لِغَيْرِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَهُ التَّقْوَىٰ وَالصَّبْرَ، فَيَكْرَهُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ دِينٌ لَا يَعْتَدُونَ عَلَىٰ الْمَحْسُودِ، فَلَا يُعِينُونَ مَنْ ظَلَمَهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَيْضًا لَا يَقُومُونَ بِمَا يَجِبُ مِنْ حَقِّهِ، بَلْ إِذَا ذَمَّهُ أَحَدٌ لَمْ يُوَافِقُوهُ عَلَىٰ ذَمِّهِ، وَلَا يَذْكُرُونَ مَحَامِدَهُ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَدَحَهُ أَحَدٌ سَكَتُوا، وَهَؤُلَاءِ مَدِينُونَ فِي تَرْكِ الْمَأْمُورِ فِي حَقِّهِ مُفَرِّطُونَ فِي ذَلِكَ لَا مُعْتَدُونَ عَلَيْهِ، وَجَزَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ يُبْخَسُونَ حُقُوقَهُمْ فَلَا يُنْصِفُونَ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ، وَلَا يُنْصَرُونَ عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَهُمْ كَمَا لَمْ يَنْصُرُوا هَذَا الْمَحْسُودَ، وَأَمَّا مَنِ اعْتَدَىٰ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَذَلِكَ يُعَاقَبُ، وَمَنِ اتَّقَىٰ اللهَ وَصَبَرَ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي الظَّالِمِينَ نَفَعَهُ اللهُ بِتَقْوَاهُ»[(١)].

---

(١) «أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَشِفَاؤُهَا» (ص٢١).

وَأَمَّا الْحِقْدُ فَهُوَ رَذِيلَةٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ يُثْمِرُهُ الْغَضَبُ، وَهُوَ يُثْمِرُ الْحَسَدَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الشَّرُّ مِنْ أَطْرَافِهِ جَمِيعِهَا.

«وَاعْلَمْ أَنَّ الْغَضَبَ إِذَا لَزِمَ كَظْمُهُ لِعَجْزٍ عَنِ التَّشَفِّي فِي الْحَالِ، رَجَعَ إِلَىٰ الْبَاطِنِ، وَاحْتُقِنَ فِيهِ فَصَارَ حِقْدًا، وَمَعْنَىٰ الْحِقْدِ أَنْ يُلْزِمَ قَلْبَهُ اسْتِثْقَالَهُ وَالْبِغْضَةَ لَهُ، وَالنِّفَارَ عَنْهُ، وَأَنْ يَدُومَ ذَلِكَ وَيَبْقَىٰ، فَالْحِقْدُ ثَمَرَةُ الْغَضَبِ.

* **وَالْحِقْدُ يُثْمِرُ ثَمَانِيَةَ أُمُورٍ:**

الْأَوَّلُ: الْحَسَدُ: وَهُوَ أَنْ يَحْمِلَكَ الْحِقْدُ عَلَىٰ أَنْ تَتَمَنَّىٰ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُ، فَتَغْتَمَّ بِنِعْمَةٍ إِذَا أَصَابَهَا، وَتُسَرَّ بِمُصِيبَةٍ إِنْ نَزَلَتْ بِهِ.

الثَّانِي: أَنْ تَزِيدَ عَلَىٰ إِضْمَارِ الْحَسَدِ فِي الْبَاطِنِ، فَتَشْمَتَ بِمَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنْ تُهَاجِرَهُ وَتُصَارِمَهُ -أَيْ: تُقَاطِعَهُ-، وَتَنْقَطِعَ عَنْهُ وَإِنْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ.

الرَّابِعُ: وَهُوَ دُونَهُ: أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ اسْتِصْغَارًا لَهُ.

الْخَامِسُ: أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهِ بِمَا لَا يَحِلُّ مِنْ كَذِبٍ وَغِيبَةٍ وَإِفْشَاءِ سِرٍّ وَهَتْكِ سِتْرٍ.

السَّادِسُ: أَنْ تُحَاكِيَهُ اسْتِهْزَاءً بِهِ، وَسُخْرِيَةً مِنْهُ.

السَّابِعُ: إِيذَاؤُهُ بِالضَّرْبِ وَمَا يُؤْلِمُ بَدَنَهُ.

الثَّامِنُ: أَنْ تَمْنَعَهُ حَقَّهُ مِنْ أَدَاءِ دَيْنٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، أَوْ رَدِّ مَظْلَمَةٍ، وَكُلُّ

ذَلِكَ حَرَامٌ»(١).

* **السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ يَكْثُرُ الْحَسَدُ بَيْنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَقْرَانِ:**

الْحَسَدُ يَكْثُرُ بَيْنَ قَوْمٍ تَكْثُرُ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ الْحَسَدِ.

وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ إِنَّمَا تَكْثُرُ بَيْنَ أَقْوَامٍ تَجْمَعُهُمْ رَوَابِطُ يَجْتَمِعُونَ بِسَبَبِهَا فِي مَجَالِسِ الْمُخَاطَبَاتِ وَيَتَوَارَدُونَ عَلَىٰ الْأَغْرَاضِ، فَإِذَا خَالَفَ وَاحِدٌ صَاحِبَهُ فِي غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ نَفَرَ طَبْعُهُ مِنْهُ وَأَبْغَضَهُ وَثَبَتَ الْحِقْدُ فِي قَلْبِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَحْقِرَهُ وَيَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَيُكَافِئَهُ -أَيْ: يُجَازِيَهُ- عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ لِغَرَضِهِ وَيَكْرَهَ تَمَكُّنَهُ مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي تُوَصِّلُهُ إِلَىٰ أَغْرَاضِهِ وَتَتَرَادَفُ جُمْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؛ إِذْ لَا رَابِطَةَ بَيْنَ شَخْصَيْنِ فِي بَلْدَتَيْنِ مُتَنَائِيَتَيْنِ فَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مُحَاسَدَةٌ.

نَعَمْ، إِذَا تَجَاوَرَا فِي مَسْكَنٍ أَوْ سُوقٍ أَوْ مَدْرَسَةٍ أَوْ مَسْجِدٍ، تَوَارَدَا عَلَىٰ مَقَاصِدَ تَتَنَاقَضُ فِيهَا أَغْرَاضُهُمَا، فَيَثُورُ مِنَ التَّنَاقُضِ التَّنَافُرُ وَالتَّبَاغُضُ، وَمِنْهُ تَثُورُ بَقِيَّةُ أَسْبَابِ الْحَسَدِ، وَلِذَلِكَ تَرَىٰ الْعَالِمَ يَحْسُدُ الْعَالِمَ دُونَ الْعَابِدِ، وَالْعَابِدُ يَحْسُدُ الْعَابِدَ دُونَ الْعَالِمِ، وَالتَّاجِرَ يَحْسُدُ التَّاجِرَ، بَلِ الْإِسْكَافُ يَحْسُدُ الْإِسْكَافَ وَلَا يَحْسُدُ الْبَزَّازَ -بَائِعَ الثِّيَابِ- إِلَّا بِسَبَبٍ آخَرَ سِوَىٰ الِاجْتِمَاعِ فِي الْحِرْفَةِ، وَيَحْسُدُ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَابْنَ عَمِّهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْسُدُ الْأَجَانِبَ، وَالْمَرْأَةُ تَحْسُدُ ضَرَّتَهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْسُدُ أُمَّ الزَّوْجِ وَابْنَتَهُ، وَمَنْشَأُ جَمِيعِ ذَلِكَ حُبُّ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا هِيَ الَّتِي تَضِيقُ عَلَىٰ

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ٧٦).

الْمُتَزَاحِمِينَ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَلَا ضِيقَ فِيهَا.

فَلِذَلِكَ لَا يَكُونُ بَيْنَ عُلَمَاءِ الدِّينِ مُحَاسَدَةٌ؛ لِأَنَّ مَقْصِدَهُمْ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ بَحْرٌ وَاسِعٌ لَا ضِيقَ فِيهِ، وَغَرَضُهُمُ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ اللهِ، وَلَا ضِيقَ أَيْضًا فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

نَعَمْ، إِذَا قَصَدَ الْعُلَمَاءُ بِالْعِلْمِ الْمَالَ وَالْجَاهَ تَحَاسَدُوا؛ لِأَنَّ الْمَالَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ إِذَا وَقَعَتْ فِي يَدِ وَاحِدٍ خَلَتْ عَنْهَا يَدُ الْآخَرِ(١).

*** بَيَانُ الدَّوَاءِ الَّذِي يَنْفِي مَرَضَ الْحَسَدِ عَنِ الْقَلْبِ:**

الْحَسَدُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْعَظِيمَةِ لِلْقُلُوبِ، وَلَا تُدَاوَىٰ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْعِلْمُ النَّافِعُ لِمَرَضِ الْحَسَدِ أَنْ تَعْرِفَ -تَحْقِيقًا- أَنَّ الْحَسَدَ ضَرَرٌ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

أَمَّا كَوْنُهُ ضَرَرًا عَلَيْكَ فِي الدِّينِ: فَهُوَ أَنَّكَ بِالْحَسَدِ سَخِطْتَ قَضَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَرِهْتَ نِعْمَتَهُ الَّتِي قَسَمَهَا بَيْنَ عِبَادِهِ، وَعَدْلَهُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي مُلْكِهِ بِخَفِيِّ حِكْمَتِهِ، فَاسْتَنْكَرْتَ ذَلِكَ وَاسْتَبْشَعْتَهُ، وَهَذِهِ جِنَايَةٌ عَلَىٰ حَدَقَةِ التَّوْحِيدِ، وَقَذًىٰ فِي عَيْنِ الْإِيمَانِ، وَنَاهِيكَ بِهِمَا جِنَايَةً عَلَىٰ الدِّينِ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ ضَرَرًا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا: فَهُوَ أَنَّكَ تَتَأَلَّمُ فِي الدُّنْيَا أَوْ تَتَعَذَّبُ بِهِ، وَلَا تَزَالُ فِي كَمَدٍ وَغَمٍّ، إِذْ أَعْدَاؤُكَ لَا يُخَلِّيهِمُ اللهُ عَنْ نِعَمٍ يُفِيضُهَا عَلَيْهِمْ، فَلَا تَزَالُ

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ (٢/ ٨٢).

تَتعذَّبُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ تَرَاهَا، وَتتأَلَّمُ بِكُلِّ بَلِيَّةٍ تَنصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَبْقَىٰ مَغْمُومًا مَحْرُومًا، مُتَشَعِّبَ الْقَلْبِ وَضَيِّقَ الصَّدْرِ، قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا يَشْتَهِيهِ الْأَعْدَاءُ لَكَ، وَتَشْتَهِيهِ لِأَعْدَائِكَ، فَقَدْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمِحْنَةَ لِعَدُوِّكَ فَتُنْجِزَ فِي الْحَالِ مِحْنَتَكَ وَغَمَّكَ نَقْدًا.

فَهَذِهِ هِيَ الْأَدْوِيَةُ الْعِلْمِيَّةُ، فَمَهْمَا تَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِيهَا بِذِهْنٍ صَافٍ وَقَلْبٍ حَاضِرٍ، انْطَفَأَتْ نَارُ الْحَسَدِ مِنْ قَلْبِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُهْلِكٌ نَفْسَهُ وَمُفْرِحٌ عَدُوَّهُ، وَمُسْخِطٌ رَبَّهُ، وَمُنَغِّصٌ عَيْشَهُ.

وَأَمَّا الْعَمَلُ النَّافِعُ فَهُوَ أَنْ يَحْكُمَ الْحَسَدَ، فَكُلُّ مَا يَتَقَاضَاهُ الْحَسَدُ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ نَقِيضَهُ، فَإِنْ حَمَلَهُ الْحَسَدُ عَلَىٰ الْقَدْحِ فِي مَحْسُودِهِ كَلَّفَ لِسَانَهُ الْمَدْحَ لَهُ، وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَىٰ التَّكَبُّرِ عَلَيْهِ أَلْزَمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُعَ لَهُ وَالِاعْتِذَارَ إِلَيْهِ، وَإِنْ بَعَثَهُ عَلَىٰ كَفِّ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، أَلْزَمَ نَفْسَهُ الزِّيَادَةَ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، فَمَهْمَا فَعَلَ ذَلِكَ عَنْ تَكَلُّفٍ وَعَرَفَهُ الْمَحْسُودُ طَابَ قَلْبُهُ وَأَحَبَّهُ، وَمَهْمَا ظَهَرَ حُبُّهُ عَادَ الْحَاسِدُ فَأَحَبَّهُ، وَتَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوَافَقَةُ: الَّتِي تَقْطَعُ مَادَّةَ الْحَسَدِ، فَهَذِهِ هِيَ أَدْوِيَةُ الْحَسَدِ وَهِيَ نَافِعَةٌ جِدًّا، إِلَّا أَنَّهَا مُرَّةٌ جِدًّا عَلَىٰ الْقُلُوبِ، وَلَكِنَّ النَّفْعَ فِي الدَّوَاءِ الْمُرِّ»(١).

●●●

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ (٢/ ٨٤).

الخَاتِمَةُ

• وَبَعْدُ:

فَتِلْكَ كَانَتْ آفَاتُ الْعِلْمِ، وَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ آفَاتُهُ، وَإِنَّمَا هِيَ آفَاتُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ سَبِيلَهُ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَمِنْ غَيْرِ جِهَادٍ لِلنَّفْسِ وَقَمْعٍ لِلشَّهَوَاتِ.

وَلَمَّا كَانَ الْعُلَمَاءُ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ -فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ- صَفْوَةَ الصَّفْوَةِ مِنَ النَّاسِ، كَانَ قَلِيلُ الزَّلَلِ فِي أَخْلَاقِهِمْ كَبِيرًا عِنْدَ النَّاسِ، وَكَانَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَسَكَنَاتُهُمْ مُحْصَاةً عَلَيْهِمْ- فَقَدْ وَجَبَ أَنْ يُطَهِّرُوا النُّفُوسَ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْتَفِعُوا هُمْ بِالْعِلْمِ وَكَفَىٰ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْفَعَ اللهُ بِعِلْمِهِمْ، وَيَفْتَحَ لَهُمْ قُلُوبَ خَلْقِهِ، وَيَكْتُبَ لَهُمْ عِنْدَهُ ثُمَّ عِنْدَ النَّاسِ الْقَبُولَ وَالسَّدَادَ.

أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ، أَنْ يُطَهِّرَنِي وَطَلَبَةَ الْعِلْمِ مَظْهَرًا وَمَخْبَرًا مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْآفَاتِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ وَالتَّقْوَىٰ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَأَسْأَلُ اللهَ الْعَلِيَّ الْكَبِيرَ، الْحَيَّ الْقَيُّومَ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، أَنْ يُوَحِّدَ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُعْلِيَ رَايَتَهُمْ، وَأَنْ يَجْمَعَ شَمْلَهُمْ؛ لِيَكْبِتُوا أَعْدَاءَهُمْ، وَيَدْحَرُوا عَدُوَّهُمْ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنْ أُمَّتِنَا الْغُمَّةَ وَيَكْشِفَ عَنْهَا الْمُلِمَّةَ، وَأَنْ يُوَفِّقَ

الْعُلَمَاءَ وَطُلَّابَ الْعِلْمِ لِبَيَانِ دِينِ الْحَقِّ لِلْخَلْقِ، حَتَّىٰ يَقُومَ النَّاسُ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ، لِيَرْتَفِعَ عَنْهُمُ الْكَرْبُ وَالْجَوْرُ.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَأَبَوَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَآلِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكَانَ الْفَرَاغُ بِحَمْدِ اللهِ وَمِنَّتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ تَنْقِيحًا وَنَظَرًا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ السَّادِسِ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، لِسَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ﷺ، الْمُوَافِقِ لِلْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ مَايُو لِسَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَلْفَيْنِ مِنْ مِيلَادِ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ.

وَكَتَبَ

أَبُو عَبْدِ اللهِ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ رَسْلَانَ

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ